العدد 100

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 9 - Issue 100 - Mayl 2007

مجلة شهرية . العدد المائة . السنة التاسعة . مايو ٢٠٠٧ . الثمن عشرة جنيهات

هيّا بنا .. غرباً !!
فاروق الباز

حواجز عزمى بشارة ..
إلياس عطا الله

العَرب .. عصُور التحوّل !
إريك هوبزباوم

فى البحث عن مصر .. لماذا التوهان ؟
أنور عبد الملك



السنة التاسعة
العدد المائة
مايو ٢٠٠٧

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- إريك هوبزباوم.. مؤرخ بريطانى بارز.
- إلياس عطا الله.. محاضر جامعى من فلسطين.
- اليزابيث أ. سميث.. أستاذ دراسات الانثربولوجيا والسوسيوثقافية بمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة كاليفورنيا.
- أنور عبد الملك.. مفكر مصرى.
- حلمى محمد القاعود.. أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا.
- راى تكيه.. باحث بارز فى مجلس العلاقات الخارجية الأمريكى.
- صالح محمد النعامى.. صحفى من فلسطين.
- صبرى قنديل.. شاعر وناقد.
- صفاء الليثى.. مونتيرة وناقدة.
- فاروق الباز.. مدير مركز الاستشعار عن بعد فى جامعة بوسطن.
- مصطفى الحمارنة.. باحث بمركز الدراسات الاستراتيجية بالجامعة الأردنية.
- يوسف الشريف.. صحفى.

رسوم العدد للفنانين

محمد حجى - سعد الدين شحاته - أحمد اللباد - ديفيد ليفين

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٣ - ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠١٣٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

قيمة الاشتراك للسنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارا أمريكيا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارا أمريكيا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارا أمريكيا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص.ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٤٧٥٥٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر: ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالا - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١.٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عمان ١.٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن دينار ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٢٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهما - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٢ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة.

أمريكا

رأى تكية

بعد خمس سنوات من تعهد إدارة بوش بتغيير الشرق الأوسط، حدث بالتأكيد تغير عميق بالمنطقة: مغامرة واشنطن الفاشلة في العراق وإذلال الغطرسة الإسرائيلية في لبنان وصعود الشيعة المهمشين وبزوغ الأحزاب الإسلامية، كل ذلك دفع بالشرق الأوسط إلى حافة الفوضى.

وفي وسط هذه الفوضى تقف الجمهورية الإسلامية في إيران.

ترجمة: بثينة الناصرى

عن: Foreign Affairs

فنظامها لم ينج من هجمة أمريكية فحسب وإنما استطاع أن يمد نفوذه في المنطقة. إيران تقع الآن في مركز المشاكل الرئيسية للشرق الأوسط - من الحروب الأهلية التي تطل برؤوسها في العراق ولبنان إلى تهديد أمن الخليج الفارسي (العربي).. ومن الصعب تخيل حل أي مشكلة بدون تعاون طهران. في هذه الأثناء، تتصاعد قوة طهران بثبات يدعمها برنامجها النووي الذي لم يعرقل تقدمه أي شيء رغم الاحتجاجات المنتظمة للمجتمع الدولي.

وقد وضع هذا التطور الأخير واشنطن في ورطة. منذ الثورة التي أطاحت بالشاه في ١٩٧٩: اتبعت الولايات المتحدة سلسلة من السياسات غير المفهومة تجاه طهران. محاولة مرة الإطاحة بالنظام، ملوحة أحيانا بعمل عسكري، ساعية في أحيان أخرى إلى إجراء محادثات في قضايا محدودة، رامية في كل محاولاتها إلى احتواء إيران والحد من نفوذها في المنطقة. ولكن هذه المقاربات كانت بلا جدوى خاصة سياسة الاحتواء وهي السياسة المفضلة تجاه إيران.

إذا كانت الولايات المتحدة تريد ترويض إيران فعليها أن تعيد النظر في استراتيجيتها من الصفر. فالجمهورية الإسلامية لن تختفي في القريب العاجل ولا يمكن الحد من نفوذها الإقليمي المتنامي، وعلى واشنطن تجنب الخيارات العسكرية التي تبدو جذابة على السطح، وعليها كذلك تجنب وضع شروط للمحادثات ونبذ سياسة احتواء إيران، والأجدى لها أن تلجأ إلى بحث سبل التعاون، وعلى الأخص، منح البراجماتيين في إيران فرصة استئناف العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية. وهكذا وفي منظور قيام علاقة جديدة مع الولايات المتحدة سيتمكن البراجماتيون من تهميش الراديكاليين في طهران وقلب ميزان القوى الداخلي إلى صالحهم. وكلما أسرعت واشنطن في إقرار هذا الواقع والبدء بتطبيع العلاقات مع أكبر أعدائها في الشرق الأوسط، كان ذلك أفضل.



وإيـــران

ومـأزق الاحتواء

لا خيارات جيدة

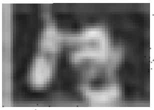
حين يناقش موضوع إيران يصر الرئيس جورج بوش عادة على ان «كل الخيارات مطروحة على المنضدة» وهو تذكير لا شيء من الذكاء فيه، بأن واشنطن قد تستخدم القوة ضد طهران إذا فشلت الخيارات الأخرى، ويتجاهل هذا التهديد حقيقة ان الخيار العسكرى ضد إيران ليس بالأمر الهين فمن أجل حماية مرافقها النووية ضد ضربة أمريكية محتملة، قامت إيران بتوزيعها فى كل أنحاء البلاد ودفنها على عمق كبير تحت الأرض، وهكذا قبل أى عمل عسكرى أمريكى لابد أولا من معالجة التحديات الاستخباراتية (كيف نجد المواقع) والتحديات اللوجستية الشائكة (كيف نضربها) (ولا يغيب عن البال أن الاستخبارات الأمريكية كما أظهرت مجريات العراق لا يمكن الوثوق بها دائما). وحتى الهجوم العسكرى الناجح لن ينهى طموحات الملالى النووية: بل سيزيد من حماستها لإعادة بناء ما دمر من مرافق نووية مع الاستهانة التامة بالتزامات إيران بموجب المعاهدات الدولية.

وماذا عن إجراء حوار مشروط؟ مثل ذلك الذى اقترحته وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس؟ فى مايو ٢٠٠٦ خطت رايس خطوة واسعة نحو الأمام حين أعلنت رغبة الولايات المتحدة فى المشاركة بمحادثات متعددة الأطراف مع إيران حول المسألة النووية إذا علقت إيران أنشطة تخصيب اليورانيوم، ولكن التصريح صور الخلاف بين الولايات المتحدة وإيران وكأنه مشكلة بسيطة حول نزع السلاح، فى حين أن الخلافات السياسية والاستراتيجية بين البلدين أعمق من ذلك بكثير وتتطلب مقاربة أوسع.

إن فكرة احتواء إيران ليست جديدة، فقد كانت، بشكل أو بآخر، السياسة الفعلية للولايات المتحدة منذ إنشاء الجمهورية الإسلامية، وقد تمتعت بدعم واسع من الحزبين فى واشنطن. ومع ذلك فإنه من أجل الموافقة على هذه السياسة بضمير حى اليوم، على المرء أن يطرح سؤالين مهمين: هل يمكن حقا احتواء دولة تمد نفوذها عبر دعم الإرهاب وتمويل العملاء والارتباط بأحزاب شيعية خارجية؟ هل لدى الدول الأخرى فى المنطقة الرغبة فى مساعدة الولايات المتحدة فى عزل إيران؟

إذا نظرت واشنطن بعقلانية إلى البدائل أمامها، سوف تدرك بسرعة بأن جواب السؤالين هو كلا، ولكن هناك شكا متجذرا فى السياسة الأمريكية تجاه طهران، خلال الأيام العصيبة التى تلت ثورة ١٩٧٩ كانت عاصمة إيران الإسلامية تبدو فى ذروة عنفوانها وتأججها وكانت الصفوة الدينية الحاكمة تنظر إلى حدود إيران باعتبارها ارث إمبراطورية قديمة ممتدة



وبدت وكأنها تريد تصدير الثورة. ومع ذلك فإن النظام الإقليمي اثبت انه أكثر صمودا مما توقعه الملالي وتقوضت معظم احلام إيران الثورية على أرض المعارك مع العراق في الثمانينيات. وقد أجبرت الحرب المكلفة مع بغداد الصفوة الحاكمة في إيران على فهم حدود قوتها واستحالة تحقيق طموحاتها. وفي حين استمرت طهران في إطلاق خطابها الكوني اكتسبت سياستها الخارجية بعدا براجماتيا. ومع ذلك فقد تجذر في المخيلة الأمريكية أن إيران مثيرة للقلاقل ولم تزل هذه الفكرة سائدة حتى بعد تحول إيران - منذ زمن طويل - من دولة تعمل على نشر ثورتها الإسلامية إلى قوة متوسطة الحجم تطمح إلى الهيمنة الإقليمية. بتعبير آخر، لم يعد الاحتواء صالحا منذ زمن لأن إيران لم تعد دولة ثورية تسعى لتصدير نموذج نظامها بالقوة.

في الواقع، لقد فشل الاحتواء سابقا وفرص نجاحه مستقبلا أقل حظا. وقد وثقت إخفاقات تلك السياسة في التقارير السنوية لوزارة الخارجية التي تصف بالتفصيل الدعم الإيراني المستمر للإرهاب وتحذر من سعيها لامتلاك برنامج نووي. كما فشلت العقوبات وأشكال الضغوط الأمريكية الأخرى في دفع إيران إلى تحسين سلوكها. والأنكى من ذلك أن الخطوات التي اتخذتها إدارة بوش مؤخرا، جردت الاحتواء من تأثيره. لقد جاء غزو واشنطن الشائن للعراق في مصلحة إيران حيث مكن الأحزاب الشيعية المحلية المتعاطفة مع طهران من السلطة. وقد ولى زمن وجود عراق قوي يحكمه السنة، يعمل كمعادل للقوى الشيعية في إيران. ومع أن شيعة العراق ليسوا كتلة واحدة ولكن الحزبين الشيعيين الحاكمين اليوم وهما الدعوة والمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق على صلة وثيقة مع طهران. وهذا لا يعني أن حكام العراق الجدد يرغبون في تفضيل المصالح الإيرانية على مصالحهم ولكنهم أيضا، على أكثر احتمال، لن يقفوا في مواجهة الجمهورية الإسلامية بأوامر من واشنطن.

كما أنه من غير المحتمل أن تقف أية دولة أخرى في الشرق الأوسط في وجه إيران اليوم. فقد تعودت المشيخات العربية في الخليج على شراء أمنها من الإمبراطورية البريطانية ثم من الولايات المتحدة مما وفر لها تاريخيا، درجة من الاستقلال أمام جارها الفارسي القوي، ولكن سلوك إدارة بوش المتهور وفشله في إخضاع العراق قوضا ثقة تلك الدول في القدرة الأمريكية. والعداء الشعبي المتنامي الواسع لأمريكا جعل من الصعب على حكومات المنطقة أن تتعاون مع واشنطن أو تسمح بتواجد القوات الأمريكية على أراضيها. قد تتمكن الولايات المتحدة من الإبقاء على قوات بحرية في عرض البحر وقواعد صغيرة في دول موثوق بها مثل الكويت ولكن من غير المحتمل أن تحتفظ بوجود مهم في المنطقة. وإلى جانب كراهية جماهير المنطقة للولايات المتحدة، فإن أخطاءها المتلاحقة مع الصفوة الحاكمة دفعت العديد من دول الخليج إلى الثقة بالموقف الإيراني أكثر من ثقتهم بمواقف واشنطن المثيرة للاضطراب والقلاقل، وهكذا، كلما تنامت قوة إيران ازداد احتمال تقارب المشيخات المحلية معها بدلا من مواجهتها.

ويبدو كذلك أن المجتمع الدولي لا يبالي نسبيا بأفعال إيران. في العام الماضي استطاعت إدارة بوش إحراز عدد من النقاط الإجرائية ضد طهران؛ على سبيل المثال تحت ضغط واشنطن، أدان مجلس الأمن إيران وحثها على تعليق برنامجها النووي. ورغم هذه النجاحات الرمزية فإن القليل من القوى العظمى يدعم الآن فرض عقوبات مشددة على الجمهورية الإسلامية. ليس هذا لأن الفرنسيين جبناء أو أن الروس بلا مبادئ ولكن لأن حلفاء واشنطن لا يوافقونها على أن إيران تشكل خطرا كبيرا ووشيكا. فهم ينظرون إلى طموحات إيران النووية وحتى رعايتها للإرهاب على أنها أخبار تثير القلق ولكن يمكن معالجتها بدون اللجوء إلى القوة أو الإجراءات الاقتصادية الصارمة. خلال الأيام الأولى للحرب الباردة كان في استطاعة الولايات المتحدة الحصول على دعم واسع لاحتواء الاتحاد السوفيتي لأن معظم الشركاء الأوروبيين كانوا يخشون السوفييت. والأمر ليس كذلك مع إيران اليوم، حيث يبدو أن الكثير من أصدقاء الولايات المتحدة - ما عدا إسرائيل - لا يشعرون بقلق شديد من إيران.

قضية للمذكرى

من أجل تطوير سياسة أكثر ذكاء وتأثيرا تجاه إيران، على القادة الأمريكيين أن يتقبلوا أولا بعض الحقائق المرة. مثل صعود إيران كقوة إقليمية وقدرة نظامها على الصمود، ثم يبحثون طرق التكيف معها. ورغم خطابها الملتهب وادعاءاتها المتبجحة، فإن الجمهورية الإسلامية ليست ألمانيا النازية. إنها قوة انتهازية تسعى إلى تأكيد هيمنتها على جيرانها بدون اللجوء إلى الحرب. ومع الإقرار بصعود قوة إيران، على الولايات المتحدة فتح حوارات من أجل خلق إطار لتنظيم نفوذ إيران، وإظهار رغبة في التعايش مع إيران مع العمل على الحد من شطحاتها. بتعبير آخر ينبغي على واشنطن تبني سياسة استرخاء لا احتواء.

بقدر ما تبدو هذه الدعوة بعيدة عن الواقعية، فإن الولايات المتحدة لديها فعلا تجربة التعامل مع قوى مماثلة. في أواخر الستينيات، ومع تضاؤل الوجود الأمريكي في آسيا بدأت الصين في استعراض عضلاتها بين جيرانها. ولم يكن رد فعل الرئيس ريتشارد نيكسون ومستشاره للأمن القومي هنري كيسنجر هو إنكار حقيقة القوة الصينية، بل باشرا في التحدث مع بكين، وكسبا بذلك مساعدة الصين في إنهاء الحرب الفيتنامية وتحقيق استقرار شرق آسيا. وبنفس الطريقة نجحت سياسة الاسترخاء التي طبقها نيكسون تجاه الاتحاد السوفيتي ليس فقط في تفادي الصراع مع موسكو ولكن أيضا في كسب تعاونها في قضايا ضبط التسلح.

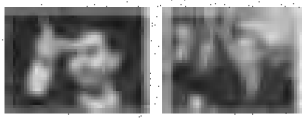
ليس واضحا تماما الآن ما إذا كانت إيران ترغب أن تكون شريكا مفاوضا مثلما كانت الصين والاتحاد السوفيتي، ولكن هناك سببا للتفاؤل. فالتطورات الأخيرة في الشرق الأوسط وقلاقل الوضع الإيراني الداخلي يضع طهران في مفترق طرق. وإذا كان لإيران أن تكون القوة الأعظم في الخليج فعليها أن تحدد موقفها وتختار إما التحرك باتجاه التعايش أو المواجهة مع الولايات المتحدة.

خلال المحاولات السابقة لإجراء مفاوضات مع واشنطن. كانت الحكومة الإيرانية تفضل أن تكون المحادثات شاملة بدلا من التركيز على قضية مفردة. وفي رد فعلها الأخير على العرض المشترك من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي في الصيف الماضي، أكدت طهران استعدادها «لتعاون طويل المدى في مجالات الأمن والاقتصاد والسياسة والطاقة من أجل تحقيق الأمن في المنطقة وأمن الطاقة طويل المدى». وترى إيران أنه من أجل حل القضية الراهنة بشكل دائم «ليس ثمة بديل سوى الاعتراف بجذور الأسباب العميقة التي أدت بالطرفين إلى الوضع المعقد الراهن وإزالتها».

قد يتطلب تجاوز هذا «الوضع المعقد» من واشنطن الاهتمام الجدي بالتحولات الأخيرة في طهران: حاجة إيران إلى سياسة خارجية أكثر تكيفا مع التحولات في الشرق الأوسط، والطائفية الحتمية التي تميز النظام، والأهم من ذلك صعود جيل جديد من القادة في طهران، كل هذا أطلق جدالا مهما داخل النظام. وإذا لعبت الولايات المتحدة أوراقها جيدا قد تصبح محكما مهما في تلك المجادلات.

يميل الغربيون إلى النظر إلى السياسة الداخلية الإيرانية على أنها صراع بين المتشددين والبراجماتيين. وقد انشغلوا طويلا - على أمل دمقرطة السياسات الإيرانية - بالصراع بين الرئيس السابق هاشمي رافسنجاني والقائد الروحي الأعلى علي خامنئي، إلى جانب متابعة توالي تيارات مد وجزر حركة الإصلاح. ولكن هؤلاء المراقبين فشلوا

رغم خطابها الملتهب وادعاءاتها المتبجحة،
فإن الجمهورية الإسلامية ليست ألمانيا النازية.
إنها قوة انتهازية تسعى إلى تأكيد هيمنتها على جيرانها بدون اللجوء إلى الحرب.



أحمدي نجاد / [illegible]

تماما فى إدراك أن النمط القديم من صراع الليبراليين ضد المحافظين لم يعد قائما. إن النظام الإيرانى فى حالة تحول بتأثير جماعة صاعدة من المحافظين الشباب. مازال الحراس القدماء يحتفظون بسلطاتهم، ولكنهم يستجيبون لمبادرات يطلقها تلاميذهم الأكثر تشددا. لم يعد هناك خط رئيسى رفيع يفصل بين اليسار واليمين، اليوم هناك فجوات فى طهران تفصل بين الشيوخ والشباب وبين شباب اليمين الجديد.

وقد امتنع هؤلاء القادة الجدد، حتى الرئيس الإيرانى المتشدد محمود أحمدى نجاد - على عكس سابقيهم خلال الثمانينيات - عن إدانة حكام الخليج والأنظمة الموالية للغرب فى مصر والأردن، أو التآمر لإطاحتها. إنهم الآن أكثر اهتماما بعلاقات هذه الدول الخارجية من تكويناتها الداخلية. كما أنهم امتنعوا عن تصدير الثورة الإسلامية إلى الأرض الخصبة فى العراق، متوقعين معارضة كبار رجال الدين الشيعة فى العراق لمثل هذه المحاولات، وبدلا من ذلك انصب اهتمام المسئولين الإيرانيين على القضايا العملية. فرغم أنهم يريدون جارا متعاطفا، لكنهم لا يتوهمون إمكانية إذعان شيعة العراق لأوامر طهران. وإذ يستمرون فى دعم الأحزاب الشيعية فى العراق، فليس ذلك من أجل تثبيت عملاء إيرانيين فى الحكومة وإنما بقصد منع قيام نظام سنى معاد.

ليس القصد من هذا الإيحاء بأن اليمين الجديد لا يسعى لإحداث تغييرات مهمة فى علاقات إيران الدولية. ولكن الجدل الذى يسيطر على طهران اليوم يتركز على كيفية تقوية نفوذ النظام وتوسيع محيطه وما هو الاستغلال الأفضل لتمكين إيران كقوة إقليمية مهيمنة صاعدة.

أدت الإطاحة بطالبان فى أفغانستان وصدام حسين، وتورط أمريكا فى العراق، بالرجعيين فى إيران إلى الترحيب بالفرص الفريدة المهيأة لصعود بلادهم. إيران ترى نفسها الآن دولة لا غنى عنها فى الشرق الأوسط.

تقف منقسمين

كما هو المعتاد فى أى فصيل يقود السياسة الإيرانية، يسود الانقسام اليمين الجديد فى إيران. وإحدى القضايا التى تختلف عليها المواقف هى: ما هو الأفضل لمصلحة إيران؟ التعايش مع الولايات المتحدة أم محاربتها؟. على أحد طرفى الطيف هناك الراديكاليون وممثلهم الأكثر بروزا هو الرئيس أحمدى نجاد ولكن هناك أيضا آخرين فى مناصب حساسة مثل مرتضى رضائى نائب قائد الحرس الثورى ومجتبى هاشمى سمارة نائب وزير الداخلية. ولا يمكن تجاهل الراديكاليين الذين يستمدون قوتهم من الحرس الثورى (خاصة جهاز مخابراته) قوات الباسيج، وجماعات مثل تحالف تطوير إيران الإسلامية والرابطة الإسلامية للمهندسين. ورغم أن الكثير من كبار رجال الدين لا يقيمون وزنا لادعاءات أحمدى نجاد الدينية، ولكنه استطاع كسب دعم مجموعة ضيقة من رجال الدين خاصة آية الله محمد تقى مصباح يزدى وهو المرشد الروحانى لكثير من المحافظين الشباب.

لم تكن ثورة ١٩٧٩ هى التجربة السياسية التى شكلت فكر الراديكاليين، ولكنها الحرب ضد العراق فى الثمانينيات التى ولدت لديهم احتقارا للولايات المتحدة والمجتمع الدولى وخلقت لديهم هوس الاعتماد على الذات. وطبقا لهؤلاء المحاربين القدماء فإن الحرب أوضحت استحالة ضمان مصالح إيران بالالتزام بالمعاهدات الدولية أو الارتكان للرأى الغربى. وهم خصوصا أحمدى نجاد وحلفاؤه، يرون فى الولايات المتحدة «الشيطان الأكبر» ومصدر التلوث الحضارى والقوة الرأسمالية الجشعة التى تسعى لنهب موارد السكان الأصليين، الولايات المتحدة - فى نظرهم - هى سبب كل مصائب إيران من نظام الشاه إلى غزو العراق لبلادهم فى عهد صدام حسين. ولكنهم أيضا يرون فى الولايات المتحدة قوة على وشك الانهيار. وقد قال الجنرال حسين سلامى قائد الحرس الثورى فى مارس ٢٠٠٦ «لقد قيمنا القوة القصوى للغطرسة الكونية وعلى هذا الأساس ليس هناك ما نخشاه».

ورغم اعتقاده الدينى العميق فإن أحمدى نجاد ليس مبشرا يدعو لنظام عالمى جديد، بل هو مستغل ماكر يحاول أن يثير مشاعر الجماهير فى المنطقة التى تغص بالفوضى. إنه يفهم أن المذابح فى العراق والعراقيل التى تواجه عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية وعجز الحكام العرب عن مواجهة واشنطن قد خلق شعورا بالعداء ضد أمريكا يجتاح الشرق الأوسط وأن هناك احتياجا شعبيا لقائد يقف متحديا إسرائيل والولايات المتحدة، وهو يريد أن يكون هذا القائد. ومن أجل هذا الهدف استخدم خطابا ملتهبا حول الهولوكوست وإسرائيل ودعم حزب الله ودعا إلى التضامن الإسلامى للتغلب على الانقسامات الطائفية، وبفضله أصبحت بلاده الفارسية الشيعية ملتقى أنظار حتى العرب السنة.

ولكن أهم من ذلك كله، فإن أحمدى نجاد وحلفاءه ينظرون إلى الحصول على الأسلحة النووية على أنها مسألة حيوية لتدعيم مركز إيران ومساعدة البلاد فى إنهاء النفوذ الأمريكى فى المنطقة، وهى جائزة تستحق المعاناة والعقوبات من أجل نيلها. وفى هذا الشأن أعلن آية الله مصباح يزدى بأن تلك المهمة هى (أخبار من الله) وقالت صحيفة كيهان الناطقة باسم اليمين المتطرف بأن «المعرفة والقدرة لصناعة أسلحة نووية ضرورية للاستعداد للمرحلة المقبلة فى ميدان المعركة». وبسبب انعدام ثقتهم بواشنطن فإن المتشددين يفترضون أن معارضة الولايات المتحدة لطموحهم النووى لا علاقة له بعملية مواجهة انتشار الأسلحة النووية وإنما باستغلال القضية لاستدرار تعاطف حلفاء أمريكا ضد إيران. وكما وصفها أحمدى نجاد «إذا حلت هذه المشكلة، فسوف يثير الأمريكان قضية حقوق الإنسان. وإذا حلت قضية حقوق الإنسان فربما يثيرون قضية حقوق الحيوان».

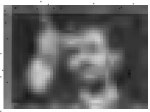
وقد نجحت شطحات أحمدى نجاد فى أن يكون بؤرة الاهتمام الدولى خلال العامين المنصرمين مما أدى إلى أن يغفل المراقبون الخارجيون تصاعد معسكر مهم آخر داخل اليمين الإيرانى الجديد، وهى مجموعة محافظة تميل إلى تغليب القومية الإيرانية على الهوية الإسلامية وتفضيل البراجماتية على الأيديولوجية. من بين قادة هذه المجموعة على لاريجانى رئيس المجلس الأعلى للأمن القومى وعباس محتاج قائد البحرية الإيرانية وعزة الله زرقامى رئيس هيئة إذاعة جمهورية إيران الإسلامية وكلهم قوميون تشكلت تجربتهم السياسية - مثل الراديكاليين، بتأثير الحرب العراقية الإيرانية ولكنهم يتوصلون إلى استنتاجات مختلفة.

خلال التسعينيات حين استولى الإصلاحيون على الكثير من مؤسسات الدولة الإيرانية، تراجع هؤلاء المحافظون إلى مراكز الأبحاث وخاصة جامعة الإمام الحسين من أجل إعادة تقييم علاقات إيران الدولية. ومن خلال كتاباتهم وخطبهم يبدو أنهم توصلوا إلى استنتاج أن نهاية الحرب الباردة والموقع الجغرافى الفريد جعلتا من إيران قوة إقليمية طبيعية وأن صعود إيران قد تأخر بسبب التطرف الأيديولوجى للنظام وعدائه غير الضرورى للغرب، وأن الطريق الوحيد لإيران لتحقيق قدراتها، فى رأيهم، هو بالتصرف الحكيم وهذا يعنى الحد من استعراض نفوذها والالتزام ببعض التقاليد الدولية والتفاوض على معاهدات مقبولة مع خصومها. فى السنتين الأخيرتين صعد الكثير من أعضاء هذا الفصيل البراجماتى إلى مناطق النفوذ داخل المجلس الأعلى للأمن القومى وأجهزة المخابرات والجيش، وباستخدام صلاتهم مع شبكة رجال الدين التقليديين وصلاتهم القوية بالقائد الأعلى، يحاولون انتزاع سلطة العلاقات الدولية الإيرانية من العسكر.

الأهمية الحقيقية لانتخابات البلدية فى إيران

حتى الآن، نجح البراجماتيون فى حث خامنئى باتجاه القبول بمفاوضات محتملة مع الولايات المتحدة حول قضايا ذات اهتمام مشترك. ولكن المشهد السياسى الإيرانى يتغير بسرعة، الفشل الأمريكى فى العراق وانتصار حزب الله ضد إسرائيل فى الصيف الماضى





في ديسمبر ٢٠٠٦ والتي أحرز فيها معسكر أحمدي نجاد نسبا مخيبة للآمال لا تكمن في إحياء الحركة الإصلاحية ولكن في الحقيقة أن الكثير من المحافظين الشباب ممن لا يرتاحون لسياسات أحمدي نجاد هم الذين كسبوها.

لا شيء يفرق الجماعتين من اليمين الجديد أكثر من نظرتهم إلى الولايات المتحدة. يرى البراجماتيون بأن هيمنة إيران لا تتحقق بدون علاقات أكثر عقلانية مع واشنطن. وفي مقابلة بأواخر ٢٠٠٥ قال لاريجاني «قد نكون على يقين بأن الأمريكان أعداؤنا، ولكن العمل مع العدو هو جزء من العمل السياسي». وأضاف «استراتيجية كبح وتقليل الاضطرابات وتطبيع العلاقات لها فوائدها على المدى البعيد» ومثل الصقور فإن لاريجاني وحلفاءه يرون بأن الوجود الأمريكي في الشرق الأوسط مصيره الزوال، ولكن على عكس الصقور، يخشون أنه يمكن أن يستمر في عرقلة تقدم إيران. وفي رأيهم أن تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة سوف يمهد الطريق أمام إيران لزيادة نفوذها في المنطقة.

ويوافق المعتدلون مع الراديكاليين في أن توسيع نفوذ إيران يحتاج إلى قدرات نووية. وكما أشار نائب رئيس المجلس الأعلى للأمن القومي علي حسيني تاش «البرنامج النووي فرصة لنا لبذل محاولات للحصول على مركز استراتيجي وتدعيم هويتنا القومية». ولكن المعتدلين يؤمنون أيضا بالتروي. فهم يدعون إلى استمرار التزام إيران بمعاهدة منع انتشار الأسلحة النووية والتأكيد على أهمية اتخاذ خطوات بناء الثقة مع المجتمع الدولي، ويأملون أنه بتحسين علاقات طهران مع واشنطن سوف يمكنهم طمأنة المخاوف الأمريكية حول تطوير القدرات النووية الإيرانية بدون الحاجة إلى التخلي عن البرنامج.

ويهيمن على هذا الجدل القائد الأعلى الذي لم يحسم موقفه بعد، والذي دعم حتى الآن مطلب البراغماتيين للتفاوض مع الولايات المتحدة. في جانب، يبدو خامنئي وهو أيديولوجي شديد التشكك بالولايات المتحدة، وكأنه يوافق على خطب أحمدي نجاد النارية ضد الغرب والتأكيد على إسلاميته. ولكن من جانب آخر يفتقر خامنئي إلى المؤهلات الدينية التي يتطلبها منصب رئيس السلطة الدينية وهذا الضعف قد اضطره إلى الاعتماد على العناصر المحافظة لتدعيم سلطته، ومع ذلك لم تكن علاقة خامنئي مع المتشددين سلسة دائما فهم يشككون بقدرته على الحسم في أوقات الأزمات. ومن أجل أن ينجو من مؤامرات السياسة، عمد خامنئي إلى موازنة الأطياف المختلفة بدون تمكين أي منها على الأخرى.

حتى الآن، نجح البراجماتيون في حث خامنئي باتجاه القبول بمفاوضات محتملة مع الولايات المتحدة حول قضايا ذات اهتمام مشترك. ولكن المشهد السياسي الإيراني يتغير بسرعة: الفشل الأمريكي في العراق وانتصار حزب الله ضد إسرائيل في الصيف الماضي ونجاح دبلوماسية التحدي النووية لأحمدي نجاد أثبتت صحة موقف من يدعو للمواجهة. والقائد الأعلى يتردد في تسوية الجدل الداخلي في طهران بشكل حاسم.

الطريق الموحد

إن أفضل ما تستطيع واشنطن أن تفعله لحسم هذا التردد لصالحها هو ابتداع دبلوماسية جديدة فالوضع لا يتطلب نقلة دبلوماسية فحسب وإنما نقلة نموذجية.

في السابق كان صانعو السياسة الأمريكان يرون - طبقا لمبدأ الاحتواء - أن تطبيع العلاقات هو النتيجة النهائية لعملية طويلة من المفاوضات. ولكن مع السياسة الجديدة المقترحة هنا، يجب أن يكون التطبيع منطلقا للمحادثات، بما يمهد طريق المناقشات حول قضايا مثل الأسلحة النووية والإرهاب. وسوف تقدم الاستراتيجية الرامية لخلق شبكة من ترتيبات دعم الأمن والاقتصاد المتبادل أفضل الفرص لربط إيران بالأوضاع الراهنة في المنطقة. وهذا الوضع الجديد سوف يؤدي بطهران إلى إدراك أن علاقتها بواشنطن أكثر فائدة لمصالحها من علاقتها مع حزب الله أو من سعيها للحصول على الأسلحة النووية.

من أجل تحفيز مثل هذا التغيير يجب أن تدعم واشنطن البراجماتيين في طهران برفع الحصار وإقامة علاقات دبلوماسية. إن اعتراف واشنطن بالوضع الإقليمي لإيران وتعميق روابطها الاقتصادية مع الغرب قد يمكن في النهاية البراجماتيين من دفع خامنئي لتهميش الراديكاليين الذين يصرون على أن المواجهة مع الولايات المتحدة هي وحدها التي ستسمح لإيران بتحقيق أهدافها.

ولكن إذا أعادت الولايات المتحدة النظر في سياساتها تجاه إيران، عليها أن تتخلى عن فكرة منح طهران ضمانات أمنية. فالرأي المتوارث في دوائر السياسة بواشنطن والذي يقول بأن حل أحجية إيران لا يكون إلا إذا تعهدت إدارة بوش بعدم مهاجمة إيران، هو تفكير خاطئ يعكس سوء فهم أساسي لنظرة الجمهورية الإسلامية لقوتها ومكانتها في الشرق الأوسط.

إن حراس النظام الثيوقراطي لا يخافون الولايات المتحدة. انهم لا يقدمون أنفسهم للمجتمع الدولي من موقع ضعف استراتيجي، وطهران لا تطلب الآن تأكيدات ضد ضربة عسكرية أمريكية وإنما تريد اعترافا بوضعها ونفوذها.

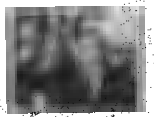
تحتاج الولايات المتحدة إلى إحداث تغييرات مهمة في مقاربتها لإيران في الشكل والمضمون. وبسبب الطبيعة الثيوقراطية للنظام الإيراني والبارانويا التي تسيطر عليه، ينبغي على واشنطن أن تتبنى خطابه. فلم يعد باستطاعة المسئولين الأمريكان إدانة إيران باعتبارها «قاعدة للطغيان» أو «الممول الرئيسي للإرهاب» في لحظة ثم اقتراح المفاوضات في اللحظة التالية. مثل كل الأنظمة التي ولدت من رحم ثورة، تصر طهران على أن يعترف المجتمع الدولي ليس بمصالحها فحسب وإنما بشرعية قوتها أيضا. ولا يتفرد حكام إيران في هذا المطلب: تذكروا أنه على مدى عقود من السنين طلب السوفييت من الولايات المتحدة أن تعترف رسميا بحدود أوروبا الشرقية ما بعد الحرب. إن الاعتراف رسميا بسلطة الجمهورية الإيرانية هو شرط نجاح أية سياسة أمريكية جديدة باتجاه إيران.

بهذه الروحية، يجب على واشنطن أن تتخلى عن سياستها العقيمة في تغيير النظام بضمنها تخصيص مبلغ ٧٥ مليون دولار للمنفيين الإيرانيين ولإقامة إذاعة موجهة إلى إيران. والسبب هو أن هذه المثالية في غير موضعها. وعلى عكس أوروبا الشرقية في الثمانينيات، فليس لدى إيران حركة معارضة واضحة راغبة في استلام توجيهات وتمويل من الولايات المتحدة. ومن ناحية أخرى تأتي الدعوات لتغيير النظام بنتائج عكسية حيث إن تقديم واشنطن المساعدة لمعارضة ديمقراطية (غير موجودة) أقنع الكثير من المتشددين الإيرانيين بأن عرض واشنطن للتفاوض ما هو إلا محاولة لإضعاف النظام في طهران ولهذا يتسارعون لإدانة أي جهد يقوم به المعتدلون للتواصل مع الولايات المتحدة، باعتباره إذعانا لخطط الشيطان الأكبر. إيران سوف تتغير بالتأكيد ولكن حسب شروطها وتوقيتها. والولايات المتحدة لديها مصلحة في تشجيع حكومة أكثر تسامحا في طهران ولكن لن تساعد نفسها بإذاعة الأكاذيب المستقاة من الإيرانيين في المنفى أو من دعوات بوش لجماهير إيرانية غير مبالية. بل إن دمج إيران بالاقتصاد العالمي والمجتمع الكوني سوف يساهم كثيرا في تسريع تحولها الديمقراطي.

قواعد الاشتباك

إن أفضل طريقة باتجاه علاقة مؤثرة مع إيران هي أن تفتح واشنطن مفاوضات مباشرة على قضايا ذات أهمية حيوية على أربعة مسارات منفصلة. طالما أن الهدف من المحادثات سيكون تطبيع

إن حراس النظام الثيوقراطي لا يخافون الولايات المتحدة.
إنهم لا يقدمون أنفسهم للمجتمع الدولي من موقع ضعف استراتيجي، وطهران
لا تطلب الآن تأكيدات ضد ضربة عسكرية أمريكية وإنما تريد اعترافا بوضعها ونفوذها

العلاقات فإن أول مسار يجب أن يتناول وضع جدول زمني لاستئناف العلاقات الدبلوماسية ينهي تدريجيا العقوبات الأمريكية ويعيد الأرصدة الإيرانية المجمدة. إن تقديم محفزات مثل هذه سوف يسهل حدوث مناقشات مثمرة على المواضيع الأكثر صعوبة وسوف يشجع النوايا الحسنة تجاه الولايات المتحدة لدى الشعب الإيراني.

وبسبب التقدم الحاصل في البرنامج النووي الإيراني، فإن هذه القضية تستحق أولوية في محادثات المسار الثاني. وليس من المحتمل أن تتأثر الجمهورية الإسلامية بالنموذج الليبي وتدمر بناها التحتية النووية بشكل كامل. وهكذا فإن مهمة المفاوضين في هذه القضية ستكون تصور إجراءات تتخذها طهران لاستعادة ثقة المجتمع الدولي مثل وضع نظام تفتيش نشيط لضمان عدم تحويل البرنامج النووي السلمي إلى الأغراض العسكرية. يجب أن تحصل إيران على حقوقها بموجب معاهدة عدم الانتشار لتطوير قدرات محدودة لتخصيب اليورانيوم وبالمقابل يجب أن تخضع إلى إجراءات المراقبة مثل التفتيش الفجائي وتسمح بوجود عناصر دائمة من وكالة الطاقة الذرية الدولية وعليها أن تقدم تقارير شفافة عن أنشطتها السابقة. قد يكون هدف إيران البعيد هو إنتاج أسلحة نووية ولكن قضية العراق توضح بأن عملية المراقبة والتفتيش التي يدعمها المجتمع الدولي يمكن أن تعرقل مثل هذه الطموحات.

المفاوضات على المسار الثالث يجب أن تركز على العراق. في ضوء تقرير بيكر – هاملتون، انهمك الكثير من صانعي السياسة في واشنطن بتقديم أسباب تبرز امتناع إيران المحتمل عن المساعدة. ولكن كثيرا من هذه المبررات غير حقيقية. أول أسطورة هي أن طهران تفضل بقاء القوات الأمريكية متورطة في العراق طالما أن تزايد عدد قتلاها سوف يردعها عن المجازفة بمغامرة غير محسوبة أخرى. في الواقع بعد أربع سنوات من حرب فاشلة يعتقد المسئولون الإيرانيون أن الطموحات الإمبريالية للولايات المتحدة قد انهارت وأن العملاق لا يحتاج إلى المزيد من الاستنزاف. والأسطورة الثانية تقول إن الحصول على تعاون إيران سيتطلب رفع عقوبات الأمم المتحدة. ولكن مثل هذا التفكير يفترض مقدما أن هناك عملية فعالة للأمم المتحدة تحتاج إلى إيقافها ولكن هذا غير دقيق. ومثل نظرائهم الأمريكان يرى القادة الإيرانيون صلة واهية بين سياستهم في العراق وسياستهم النووية. والإجماع السائد في طهران اليوم هو أن احتلال أمريكا للعراق يمنع التقدم السياسي المحسوس هناك وأن الطريقة الوحيدة لإعادة الاستقرار في العراق هي انسحاب القوات الأمريكية تدريجيا.

مهما تكن مفاهيم ودوافع طهران فإن تأثيرها في العراق يجعلها شريكا لا غنى عنه. ورغم أن إيران كانت مشغولة بتشجيع حظوظ حلفائها الشيعة العراقيين وتسليح ميليشياتهم واتهام واشنطن لها بذلك، لكن الحكومتين لديهما الكثير من الأهداف المشتركة. طهران مثل واشنطن معنية بتهدئة الحرب الأهلية الدائرة والحفاظ على وحدة العراق. وتؤمن الصفوة الحاكمة في إيران أن أفضل الطرق المناسبة لتحقيق أهدافها هي من خلال انتخابات تصعد بالأغلبية الشيعية. وأن دولة عراقية فاعلة سوف تسهل رحيل القوات الأمريكية وتحيد التمرد وتستقطب السنة المعتدلين إلى العملية السياسية. وكل الأهداف تخدم مصالح إيران والولايات المتحدة.

بدلا من النواح على نفوذ إيران في العراق، يجب على صانعي السياسة الأمريكان التركيز على كيفية إدارة تلك القوة بشكل بناء. إن من شأن الاعتراف بالنفوذ الشرعي لإيران وتأسيس إطار عمل لتنسيق سياسات البلدين، أن يمهد الطريق لواشنطن لإملاء طلباتها على إيران. ستكون واشنطن في مركز أفضل للضغط على طهران، مثلا من أجل ترويض ميول الانفصاليين الشيعة العراقيين وكبح جماح اللاعبين العصاة مثل مقتدى الصدر. وأكثر من ذلك فإن إيران اليوم هي من أكبر شركاء التجارة في العراق، وعلى الولايات المتحدة تسهيل هذه التجارة لأنها تساعد على استقرار جنوب العراق، وكلما أسرعت واشنطن بإدراك أن طهران يمكن أن تلعب دورا مفيدا في العراق كانت أقدر على منع تشظي العراق وبالتالي المزيد من عدم الاستقرار في الخليج.

المسار الرابع من المفاوضات وهو الأصعب، يتناول عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية التي تعارضها طهران بشدة وغالبا بواسطة دعم الإرهاب. إن عداء طهران لإسرائيل قائم على الأيديولوجيه الإسلامية التي تنكر شرعية المشروع الصهيوني. ودعم إيران لحزب الله وحماس يمنح طهران ذراعا في منطقة تبعد عن مداها العسكري. ومع انتصار حزب الله وزيادة شعبيته بعد الحرب مع إسرائيل في الصيف الماضي، تصلب موقف إيران. سوف تحتاج واشنطن إلى تغيير هذا الموقف. إذا حاولت إيران والولايات المتحدة تطبيع علاقتهما، سوف تدرك إيران في النهاية أن موقفها المتعنت تجاه إسرائيل يؤدي إلى خسارتها منافع حقيقية.

تكشف النظرة الفاحصة لتاريخ إيران بأن سلوكها يمكن أن يتغير إلى الأحسن. في التسعينيات مثلا أقنعت الحوافز المناسبة طهران بالتوقف عن اغتيال معارضيها الإيرانيين في أوروبا وقطع الدعم عن بعض الأنشطة الإرهابية في الخليج. في عام ١٩٩٧ أدانت محكمة ألمانية عناصر من الحكومة الإيرانية باغتيال قادة معارضة أكراد في مطعم في مدينة برلين قبل خمس سنوات من تاريخ الحكم، وسحبت حكومات أوروبية قائدة بعثاتها من طهران وفرضت تحديدات على التجارة معها. وعلى اثر ذلك سارعت الجمهورية الإسلامية بنبذ ممارسة استهداف المعارضين في المنفى، وفي نهج مماثل وافقت السعودية ودول الخليج بتطبيع علاقاتها مع إيران في التسعينيات بشرط توقفها عن دعم العناصر الراديكالية داخل تلك الدول. وفي هذه الحالة أيضا أقنعت الفوائد الاستراتيجية للاسترخاء طهران بتغيير أساليبها.

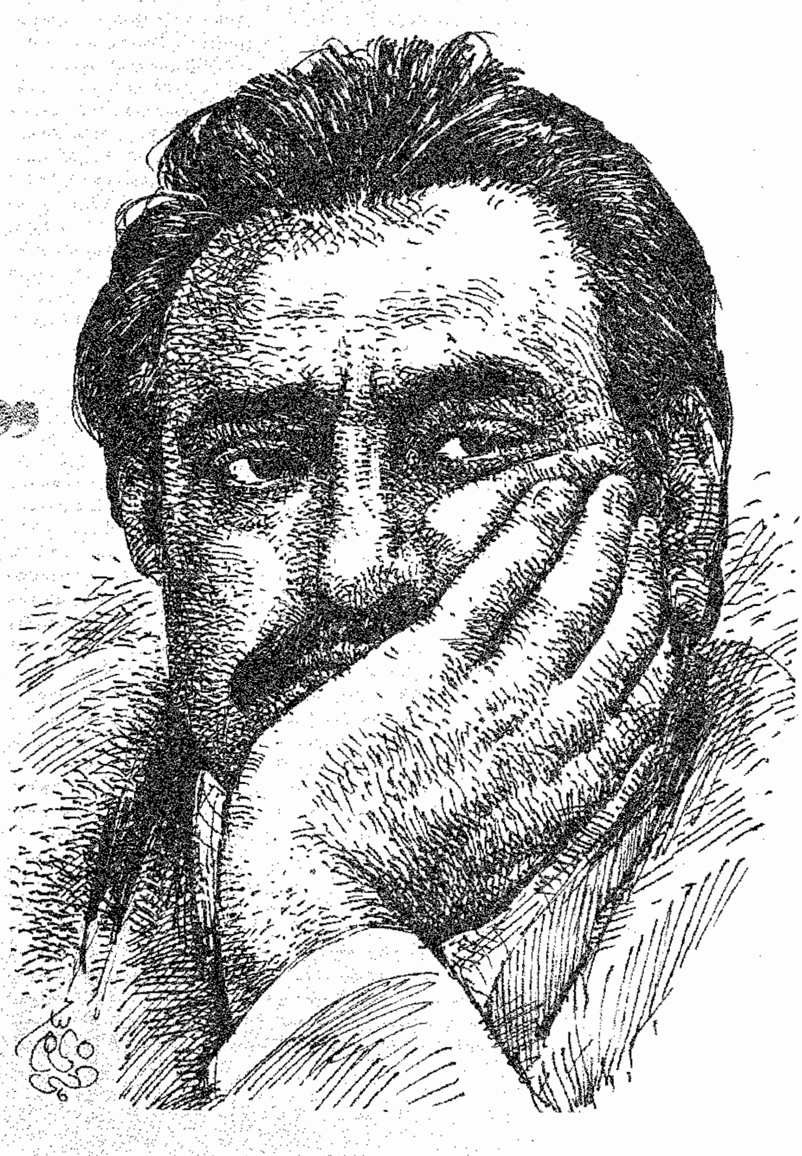
ينبغي على واشنطن أن تستفيد من تلك الدروس الآن. وعندما تحاول الولايات المتحدة وإيران حل الاختلافات، سوف تؤدي القوة الدافعة لتلك الحركة بطهران إلى التخلي عن معارضتها لعملية السلام في الشرق الأوسط وتحالفها مع الإرهاب. ويجب مساعدة هذه النقلة بحوافز دبلوماسية واقتصادية. والفكرة هي ليست بإقناع طهران للتخلي عن حزب الله، مثلا، ولكن للضغط على طهران حتى تعمل بالتالي على إقناع حزب الله أن يلعب دورا بناء في السياسة اللبنانية والتوقف عن مهاجمة إسرائيل.

على مدى ثلاثة عقود عرقلت المشاعر الصارخة والخطاب غير المسئول تطور علاقة عقلانية بين الولايات المتحدة وإيران. وفي أحيان كثيرة تمت التضحية بالبراجماتية على مذبح الأيديولوجية وأهيل على المصالح المشتركة تراب المرارات التاريخية. اليوم هناك في إيران، فصيل قوي - البراجماتيون في اليمين الجديد - يرغب في التعايش مع واشنطن. وإذا استجابت واشنطن باستراتيجية استرخاء شاملة ستتمكن إيران والولايات المتحدة من التغلب أخيرا على العداء المتبادل بينهما.

النموذج الجديد لا يمنع التوتر أو حتى الصراع. ولكنه قد يقنع طهران بأن قمعها الطوعي لميولها الراديكالية سيقدم خدمة أفضل على المدى البعيد لمصالحها في المنطقة. وبالنسبة للولايات المتحدة تظل إيران مشكلة في المستقبل القريب. السؤال هو: أي الطرق أفضل لإدارة تعقيداتها وتناقضاتها؟ إذا قدمت الولايات المتحدة عرضا بتطبيع علاقاتها والبدء بمحادثات حول كل القضايا المتعلقة بين الدولتين، فسوف يكون أمام إيران فرصة اختيار: إما أن تكون أمة تدافع عن أهدافها الشرعية أو أخرى تقودها أوهامها إلى التهلكة. ولأول مرة منذ عشرات السنين، ثمة مؤشر على أن إيران سوف تفضل الخيار الأول. ■

يجب على واشنطن أن تتخلى عن سياستها العقيمة
في تغيير النظام بضمنها تخصيص مبلغ ٧٥ مليون دولار
للمنفيين الإيرانيين ولإقامة إذاعة موجهة إلى إيران

الحوار بطل الأسلوب فى رواية عزمى بشارة، وهو بطل غير مألوف بهذه الكثافة النوعية والكمية فى هذا الجنس الأدبى. ولعل تقنية التشات فرضته سيداً، أو لعل عمر الواحد الموزع فى اثنين جعله ضربا من المناجاة المتشطرة



حواج

الاجتياز الأول: الحاجز

※※ بعد «الحاجز» جاءت رواية عزمى بشارة «حب فى منطقة الظل» سفر خروج من الحاجز، ذلك الحاجز الذى بأر حياة الفلسطينى وشظاها فى آن، بأر المكان والزمان وشظاهما فى آن، ولم يفلح الكاتب، كشعبه، فى تجاوز الحاجز؛ الذى عشش فيه، ولاحقه حيث حل، وكتب له أجندة تنفسه. وإن كان الكاتب فى روايته الثانية قد تجاوز الحاجز أو خرمه، فإنه حمل معه من الحاجز عقابيل دائه المتجسدة بالظلال؛ ظلال تستحضر أوفيد والعهد القديم متمثلين بمسخ الكائنات وسفر التكوين. والحاجز فى المستحضرين رب الصباؤوت أو رب الأرباب، يصوغ الأشياء كما يشاء، ولا راد لمشيئته. ظلال ولدت ظلالا قبل الحاجز، وأخرى، كانت الظلية هاجعة فيها. وجاء الحاجز فتململت. وفقست لها ظلالا، أرادت أن تربو وتتكاثر لتملأ مناطق الحاجز الفاعل، ومناطق المفعول الحاجزى، نزولا عند ما أمر به الرب بملء الأرض الخربة الخاوية، وأن تمتثل إلى مشيئته: «أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض...» ورأى الله أن ما عمله حسن. فكان ملء للأرض. وكان إخضاع. وكان تسلط. وحملت الحيوان دلالتها المعجمية كاملة، وكان مساء. وكان مساء آخر... ولم يأت يوم سابع، فلا هو سبت، ولا هم سبتوا... وصار دخول فى سبات عميق.

ليس باليسير اجتياز الحاجز «المحسوم»، فقد تغلغل فينا. وانتقل إلى لغة أهلنا فى الضفة والقطاع، الذين طوعوه لقوالب العربية وجعلوه على زنة مفعول مفردا. وعلى مفاعيل جمعا «محاسيم». وهذه الكلمة سيئة الأصل ليست عبرية بامتياز، لغة، ولكنها عبرية حصريا بالتنفيذ؛ هى سامية، يلتقى معها الأثل العربى «حسم» فى كل دلالاته الأثمة: بدءا بدلالة القطع والمنع والحرمان، مرورا بقطع اللبن عن الرضيع، وانتهاء بدلالة الشر التى جاءت فى التنزيل العزيز: «سخرها عليهم سبع

حبٌ فى منطقة الظلّ
عزمى بشارة
القاهرة - دار الشروق ٢٠٠٦

إليــاس عطـــاالله

ليال وثمانية أيام حسوماً... وها هي العربية تصف فعلة الحاجز قبل أن يصير كابوس الفلسطيني، ولن يزول إلا بالاستئصال، والاستئصال من معاني الحسم أيضاً... أو لا تكفي المحسوم دلالات المنع وتقطيع الأوصال والتشتيت والتجويع والشر هذه ليظل الفلسطيني «ينعم» في أجواء نكبته؟

الاجتياز الثاني: بنية الرواية

تُحدد عناصر أو مقومات الرواية بين أهل الأكاديميا والنقد الأكاديمي- في بلادي على وجه التحديد، وفي نظريات بعض النقاد - وفقاً لمعايير تليق بمبحث التمييز(تمييز المقادير) في النحو العربي، أو وفق وصفات الطبخ (كمية المقادير)، وعلى هذه المعايير المختلف فيها تصنف أنواع الرواية، ويفترض النقدة أن تشتمل الرواية على دعائم يسمونها: «حدث»، «تصوير المجتمع»، «تصوير العالم الخارجي»، «أفكار»، «أهداف»، «نقد»، «العنصر الشاعري»، «اللغة»...

عشر أو عند زينب لمحمد حسين هيكل (١٩١٤)، أو حتى عند ثلاثية نجيب محفوظ النوبلية (١٩٥٦- ١٩٥٧)... حقيقة الوقوف عند هذه الأوليات/ الأوليات أو الإبداعات، تجعلنا أسرى حاجز ولد قبل دولة الحاجز الفاعلة غير التاركة، وحقيقة الانجماد عند هذه الإبداعات كحقيقة أن نتوقف عند هندسة الشعر العربي في عصر البارودي، هندسة البناء المقيس بالمسطرة طولا وعرضا وصوتا، وهندسة العمارة وما يخاصرها من المنمنمات التي يفتح تناغمها وتضادها مصاريع الأبيات والأغراض لا أبواب الجمال... أعجب وقد مارسنا كرما دونه حاتم بقبول ثورة النواسي والموشح وقصيدة التفعيلة، وقصيدة النثر على هيكلية القصيدة الأعرابية والعربية وحشوتها؛ وأعجب وقد قبلنا بحلم دونه قيس بن عاصم المنقري القصة القصيرة والقصيرة جداً وتلك القزم جداً جداً. أعجب: لم ننظر بدهشة إلى الخروج عن المألوف في موضوعة الرواية؟ الفلسطينيتها؟ أم لأنّ الحواجز تعشش فينا؟ أم لأنّ وقاحة

ما تقف عند ثنائية الصوت diaphonic المتمثلة بالحوار بين عمر ودنيا، وقد ترى أن الحقيقة هي وجود أحادية صوت monophonic، فدنيا هي عمر الحامل لوظائف أخرى.

لم يكن الحوار وحده، عند بشارة، هو الخارج عن المألوف، إذ تأبجل لغة تليق به، هي مزيج بين الفصيح والمحكي والعامي وغير العربي كلياً، وكأني بالكاتب يسينم (من السينما) روايته أو يمسرحها، ولا إخال السينما أو المسرح قادرين- على إمكاناتهما- على التعامل مع كثافة هذا النص الحواري، المقطوع بالسردية بشكل فجائي. أما أن يكون الحاجز الموظف للتشظية والتفتيت والإبعاد لاطئا وراء اللجوء إلى الحوار، فأترك أمره للكاتب والقارئ.

هذه الرواية الفلسطينية... إبداعة مفصلية في تاريخ الرواية العربية عامة، وإن كان الروائي الفلسطيني (عزمي

في بلاد الحواجز: بشارة في «حب في منطقة الظل»، صحيفة الدستور الأردنية، الجمعة ٢- ١٢- ٢٠٠٥)، ولئلا نقع في الخطأ أو الخطيئة، ولئلا نقول شططا، نفترض أن يكون مرد العزوف إلى كون الرواية مرهقة، لا في لغتها، بل في كم الموضوعات المضغوطة المكثفة فيها، المنقولة بأسلوب حواري يقطعه السرد- تماما كما لو كان الحوار يمثل فرح الفلسطيني وبوحه وحبه ووصاله وتنفسه وفشة خلقه أو إفلاتته من الحاجز وأهله، والسرد الممثل للواقع بأوزاره، يندس ضربا من الحاجز ليفجع حتى فرحة الحوار الحلمية المختلسة، وفي أن قارئها مضطر إلى أن يقطع الاسترسال مع النفس الروائي ليتوقف عند فيض من القضايا الفلسفية الفكرية، ليعود إلى القراءة التي ستقطع مع صفنة تتربص به. هذه الرواية لا تقرأ بالعاطفة- رغم أنها تضج بها- بل تقرأ بالقلب والعقل معاً، وهذا سر الإرهاق فيها. ودفعا للظلم لي- ولست بالإخصائي في هذا المجال- وللآخرين المختصين بالنقد الأدبي، أقول إن «حب

ـز عزمي بشارة!

عناصر قد تجدها في رواية ما، ولكنها قد تختص بنوع الرواية، فيما لا تحتاج بعض الروايات إليها رزمة واحدة، وعليه، أوجدوا معايير لكل نوع روائي: الرواية التاريخية، الرواية البوليسية التحقيقية، الرواية التعليمية، رواية الرعب، الرواية السياسية، الرواية العاطفية، الرواية المحلية، الرواية الإقليمية، الرواية التصورية، الرواية المقنعة، الرواية النفسية، الرواية النهر/ المتدفقة/ السيالة... وحول هذه الجداول الرياضية النظمية التمييزية تتبنى الأحكام النقدية الأكاديمية، ويغرد القمح عن الزوان، وفي هذه المعادلات والجداول يمتحن الطلبة، ويحترف بعضهم النقد لاحقاً، إلا أولئك الذين يصبحون نقاداً بعد المحاضرة الأولى... وما أكثرهم!

عن أي رواية نتحدث و«حب في منطقة الظل» بين أيدينا، أو فلنقل ونحن بين يديها؟ وأين تتموضع روايتنا بين هذا الحشد؟ ولنا أن نسأل: هل من جنس روائي يجب الجثو عند قدميه ومحاكاته؟ لنتخيل أن روائيي العالم وقفوا عند رواية مدام لا فاييت «أميرة كليف - La Princesse de Clèves» المكتوبة عام ١٦٧٨، أو عند دون كيخوته Don Quixote لسيرفانتس- Miguel de Cervantes منذ مطلع القرن السابع

الخروج لا تشرعن وترقى إلى الصدق والإبداع والفضيلة إلا بعد عقود؟

لم يكن الحوار- والذي سنعود إليه لاحقا- مما يعول عليه في الرواية بمقاديرها الموصوفة، رأيناه- أي الحوار- يؤسس لأسلوبية المسرحية، ويحلّ هنا وهناك في القصة بمقاييسها. أما في النحو فإنه يظهر بخفر وعلى ندرة، ولذا تعددت أسماؤه عند المختصين في صنعتي الشعر والبلاغة، وإن ارتاح عدد منهم إلى تسميته ترجيعا ومراجعة، وآخرون إلى القول بالموجب، وغيرهم إلى الأسلوب الحكيم وإلى المغالطة، على اختلاف وتعدد دلالات هذه المصطلحات.

قد يكون الحوار بطل الأسلوب في رواية عزمي بشارة، وهو بطل غير مألوف بهذه الكثافة النوعية والكمية في هذا الجنس الأدبي، ولعل تقنية التثنات فرضته سيداً، أو لعل عمر الواحد الموزع في اثنين جعله ضربا من المناجاة المتشطرة... وقد يكون الكاتب متأثراً بمنهج دوستيفسكي، فهذا المنفتح على تعدد الشخصيات وإتاحة الفرصة أمامها للحديث، جعل رواياته، كما يرى باختين، ذات سمة حوارية أو متعددة الأصوات polyphonic. لن أعجل في جعل «حب في منطقة الظل» رواية متعددة الأصوات، فالقراءة المتأنية تدفع إلى الاختزال الصوتي، وإلى محورية الكاتب، إذ سرعان



بشارة) يستحضر الزمن الجميل بحنينية وشغف طاغيين، فإن الكريه القائم هو الفاعل، أو فلننقل من باب التعميم إن عودتنا إلى الجميل شرط تنفس وتنفيس في عصر استشراء القبيح... ولا أصدق من فلسطيني يتحدث عن القبح المطلق! أعجب- وقد تابعت ما كتب عن الرواية- من أن الذين تناولوها ليسوا من نقاد الداخل، رغم أن عددا من الباحثين والأدباء -هنا- كتب عنها، وعلى جليل أو جميل عمل هؤلاء، تظل دراسة الدكتور فيصل دراج الفلسطيني- وليكن حيث شاء- الأشمل والأعمق (الكلهوس الفلسطيني

في منطقة الظل» لا تتناولها إلا دراسة/ رسالة بحث أكاديمية، أما ما نكتبه في حدود وسائل الإعلام فيظل مبتورا، غير منصف للناقد وللرواية وصاحبها معا، ويقتصر على جانب واحد من جوانبها.

ليس بشارة أول فلسطيني يخوض تجربة الرواية، فقد سبقه الكثيرون، ولكن الجديد في روايته أنه تجاوز أو اجتاز النكبة الجسد بأحداثها وإسقاطاتها المرئية المعيشة التي تناولها الروائيون السابقون: الرحيل/ التهجير/ الكب على الحدود/ التشرد، التدمير والذبح، صور قوافل النازحين المقتلعين الحاملين لكواشين الملكية في عب القمباز وما تيسر حمله من أثاث وفراش البيوت الثكلى ومفاتيحها، وما صاحبها من تصوير رحلة العذاب في كل الجهات بعيدا عن المتوسط... صور الصفيح والخيام والجوع والبرد وإنسانية وكالة الغوث والإخوة العرب... إلى النقلة الفنية في تصوير النكبة ووجع اللجوء والحنين إلى البيت، ممثلة بسجين يقف عند شباك سجين أو معتقل يطل على الوطن ولا يدري أين السجن الحقيقي، حيث هو أم حيث ينظر؟ أو بعصفور/ دوري عرف طريق العودة لتنغرس في جسمه الغض أسلاك شائكة، أو لتمزقه رصاصة حضارية من

«حواجز» عزمي بشارة



يقف بشارة عند حدود الوصف والتصوير للنكبة وما أفرزت من مقابح، حيث إنه ما حلل الأمور وهي في منأى عن الذات، بل حلل الذات نفسها بعد أن صارت في وعيه

«أصحاب» البيت الجدد، أو بقبضة جبارة تنطلق نحو السماء مفتتة الحديد والقيد؛ أو بحياة الباقين في سنوات ما بعد «عيد استقلال» الدولة، وما جبههم من عبثيات بدءا بتغير الأحوال وتشتت الشمل، وانتهاء بتغير اللغة، ولا أقسى من أن يعيش إنسان في وطنه وقد هجت لغة الوطن لتنزوي في مخيم، أو في عاصمة عربية قريبة غريبة، بعد أن هجت مدنه أيضا... وإن كان بعضهم - إميل حبيبي أنموذجا - قد روى الأمر بالأسلوب الساخر الشخصاني الممض المصور أيضا لبعض أبطاله... فإن كل ذلك كان تصويرا للنكبة بجسدها المرئي النازف عام النكبة وسنوات الانتقال القسري القليلة بعدها... أما أشلاء ما انولد عن النكبة من المكان والزمان والإنسان، وما آلت إليه، وما نخر فيها - تراكميا - ولما يزل... فهي من خصوصيات «حب في منطقة الظل» إكمالا لما ورد في «الحاجز» من قبل... إلى أن يفجأنا الراوي بعمل روائي جديد قد يكون التنبؤ به شكلا ومضمونا نوعا من العبث.

قرأ الكاتب النسج الاجتماعي بكل ما عمل ويعمل فيه من مؤثرات ومتغيرات... قرأ شخوصه أفرادا ومجموعات، وقرأ قيمه وتصرفاته، وصاغ قراءته هذه بأدواته الخاصة ليولد نصا يكتب عن النص الأول المعيش، مصورا ومتوضا، بانيا ماسخا، مسكونا بالحنين والاستشراف، موظفا الاسترجاع للاستشراف أو للرؤيا، متنقلا بين الماضي المستعاد عبر رموزه الكثيرة، إلى الآتي، منطلقا من الحاضر الذي غيب حضوره وجعله مسرح أحداث... أما المكان فقد أعاد إليه أصالته وحقيقته، وكل ما عدا الأصيل فهو ظل وباطل وعابر، عادت الأصالة عبر تداعيات فكرية مروية بتفاصيلها الدقيقة، وعبر الخشب الذي تفوح رائحته على مساحة الرواية رمزا لخضرة الماضي/ الوطن، ولحضور أصحاب هذه الخضرة رغم التغييب، وعبر زاهي ألوانه، وصلابته وعقده وهشاشته وأسمائه وقابليته للبناء، وعبر شخوصه الذين أوجدهم الخالق قبل الحاجز وأصحاب الحاجز، وبهذا ربط الكاتب بين الزمان والمكان، والأصل والظل، وجسدهما عبر استراتيجيات ذهنية سخرها آلات لكتابته، وهي في الوقت نفسه ملك للقارئ، وليس بالضرورة أن تكون الأمور استنساخا، إن هي إلا حوار بين النص والقارئ، والخرونوتوبوس/ الزمكانية تعني من ضمن ما تعني الوعاء الحافظ للبعد التاريخي الاجتماعي في حقبة ما وفي مكان ما. وإن كان باختين وهو صاحب مفهوم الزمكانية قد انطلق من أن لكل جنس أدبي أو صورة أدبية زمكانيتها، كزمكانية الملحمة اليونانية، والعهد الجديد، أو روايات وقصص الأسر الريفية، والسيرة الذاتية، وإن كان قد ظلل اللغة ودلالة مفرداتها بالزمكانية... فإنها في حب في منطقة الظل تتخصص، إلى جانب ما أورده باختين، زمكانية النكبتين، النكبة العلم، والنكبة التي انولدت عن الأولى متمثلة بسلوكيات وعقائد ومناهج ومويات ومويقات جسدتها الظلال وظلال الظلال... مع استرجاع للنقيض الأصيل. ولا أريد أن أقول «الأصلاني». عبر بعض الشخوص كصاحبي الحوار وعمو صلاح مثلا.

على هذا الصعيد، استثمر الكاتب الحالة الشوهاء المقززة الظلية المسرفة في عدميتها وهلاميتها، وركز عليها فكره التحديقي التسريري أو التحققي، وما جاءت السخرية أو الهجاء من أجلهما حصريا، بل من باب الإقلاق الذي ولده قلق الكاتب، والمفضي في النهاية إلى تدمير القبح. وإن لم يكن بمقدور الكاتب، مهما كانت سلطة الكاتب وسلطة النص، فإن إزالة الرعب منه بإعمال مشرطه/ قلمه فيه ضرب من العبث الذي يقش الخلق... أو ربما أمل في إعادة البناء، ولئلا أضلل نفسي أعرف أن القبح باق، لأنه جزء من الكوميديا البشرية، ولن يزول إلا بزوال البشر... وعندها لا تكون حاجة إلى الحديث عن أي شيء... إذ ليس ثمة من يتحدث.

الرواية فيض من الكرنفالية والقبح/ grotesque- carnivalesque (ينظر: عودة الظل إلى مسقط رأسه، وحوار عمر مع دنيا حول الجمهور، وظل الظل)... يحضر القبح عندما يصبح التشوه أو التشويه سيد الأشياء، وحين نصاب بحالة الغثيان والتقزز لعبثية ما نرى وما نعيش، متمثلا لنا بشرا غير سوي في الظلال وظلالها التي تجسد النشاز، ولا تملك في هذه الحضرة إلا أن تحيل قلمك مدية أو معولا، فتترصده مزيلا أقنعته - فعلة فارة النجار في نزع القشرة/ القناع عن جوهر الخشب - ناسفا قماءة استراتيجية سلوكه، ومن هذا المنطلق - كما أرى - وجدنا هذا الكم من عينات القبح المتولد بالغريزة أو بفعل الحاجز وحضارة الحاجز وظلال الحاجز... قبح يخاصر كرنفالية ميخائيل باختين، التي قد توظفها لفضح أو نسف القائم، إما لمجرد نسفه حتى لو بقيت الأرض خرابا يبابا، أو لإرساء الأحسن لما ينبغي أن يكون، كرنفالية معززة بمينيبية (Menippean نسبة إلى مينيبوس القيسي - من أم قيس الأردنية حاضرا، السورية تاريخا) مسخية تتجاوز الأشخاص لتصل إلى السلوك الاجتماعي العام، والظواهر الفكرية القبيحة التي تحلل كل محرم وقمىء، مستمنية سلوكها على الآخر، شعبا كان أو قضية.

في قراءته هذه، لم يقف بشارة عند حدود الوصف والتصوير للنكبة وما أفرزت من مقابح، حيث إنه ما حلل الأمور وهي في منأى عن الذات، بل حلل الذات نفسها بعد أن صارت في وعيه، والكاتب، وفقا للفينومينولجي الهوسرلي (نسبة إلى الألماني Husserl)، لا يكفيه أنه واع، إذ عليه أن يكون واعيا بالشيء الذي عنه يكتب، واستبطان النكبة ووجعها وظلالها على رحب الزمان والمكان الحاضنين للرواية، شأن جلل.

الاجتياز الثالث: التشات والشتات

إن كان التشات وعاء الحوار غير المألوف في بنية الرواية، فإنه في المسألة الفلسطينية المتجسدة في النكبة، ذو أبعاد خاصة، يضفي عليها عمر الموزع بين أناه هنا وأناه البعيدة هناك، وحقيقة الشتات الفلسطيني ومعاناة الناس، عمقا خاصا. وأمر التشات كامن في ثلاث حقائق: الأولى اللعبة اللغوية بين التشات والشتات، والثانية في أن التشات الوسيلة الحصرية للم الشتات السابق لحق العودة، الذي لا يعتد بالحاجز ولا بالحدود ولا بجواز السفر وتأشيرة الدخول، وكلها واقع مانع قامع... وحين صار يخشى على سقوط حق العودة من الثوابت في عصر ظلال الحاجز في الجانب المقعول، يرقى لم الشتات العصري إلى درجة قصوى من الأهمية. والثالثة متجلية في أن التشات/ الحوار الحب، المسبغة عليه الحالة الفلسطينية الفردية والجمعية، أهم وأرقى - لما فيه من صدق وتوق - من كل الحوارات اللاشيئية السائدة في عصر صناعة الأشياء لا صنعها: حوار الحضارات، حوار الثقافات، حوار الأديان، الحوار العربي اليهودي... وصولا إلى الحوار الفصائلي الفلسطيني، فهذه «المهن» جميعا ضرب من الامتهان والثرثرة واللغو، وإمعان بالابتعاد عن الجوهر، هي انشغال بالقشور البشرية المتصارعة، المساومة،

المسقطة لاختلاف مصالحها كل فشلها أو إخفاقاتها أو أطماعها على المطلق الحضارة/ الثقافة/ الدين/ الحق.

يحتاج الفلسطيني إلى الحكي والبوح احتياج المخلوقات الحية إلى التنفس، وإن كان بشارة قد رأى في الشتات متنفسا، فإنه في غيبية الشتات - كأمهاتنا الفلسطينيات - يخلق مخاطبا: حبيبا غائبا، طيرا منعتقا من الحاجز، نجمة الصبح، وطنا، هواء غربيا يحمل «ريحة الحبايب»... شيئا من بكائيات الحنين التي لا يعرفها إلا المتكويون مما سماه هو نواحا وندبا وتهاليل أم... هذا النواح الذي جاء في خاتمة الرواية، ليس حشوا ولا فضلة ولا استعراض عضلات ذاكراتي، إنه الشتات/ المناجاة قبل ولادة التكنولوجيا... إنه الحنين الفلسطيني لكل بعيد... وما أبعد الوطن! وما أبعد الأهل!

لا تعرف - وأنت تقرأ الرواية - متى سيقطع الراوي الحوار، عائدا إلى السرد والاستطراد، وكل سردية تبدأ حيث انتهت سابقتها، أما الحوار فمخلق مشتت مشتت كزحمة الشبح والظلال... تسعد وأنت تقرأ بوحا عاطفيا عاشقا، وسرعان ما يأتي البتر، والبتر لا ينهي حوارا أو فصلا في الرواية فحسب، إنه بتر لتحويل موضوع الحوار إذا ما ذكرت لفظة الحب! أهو إشارة إلى أن الفرح والفلسطيني محرمان/ محرومان كلاهما؟ أم صحوة من الاستغراق في حلم موجع؟ أم مركب في شخصية الراوي؟ أم عودة إلى الصفحة المريحة المرهقة؟ أم إرهاق من الثرثرة والاستطراد مع الأنا الآخر؟ ألعله هذه الأمور مجتمعة؟

الاجتياز الرابع:

لعبة الأنا المنشطرة

رغم هيمنة الظلال، مفردة وإجماعا على مساحة الرواية، فإن الكاتب خلق أناه الآخر/ الأخرى، ولم يدرجها في الظلال لأنها نقيض الظلال. ولذا شكل من أناه الثانية (دنيا) طيفا، والطيف الجسد الماثل في حضرة الغياب: خلقته سن الحب، وجعله عاشقه أو سميره أو نديمه، يستحضره ليتواصل معه، ليحبه... أهي أناه أم عمر أناها؟ وقد «تبتغراه بداد يلمس» كفعلة البحتري مع صورة أنطاكية في إيوان كسرى.

ولأن دنيا هي عمر نفسه، وربما عمر هو دنيا نفسها، وإن شئتم شخوصا في امتداد لواحد، ولها وظائف شتى تتبنى على السياق: تمارس وظيفة المستفز فيسترسل هذا مكدسا كل التفاصيل، وهو ليس بحاجة لاستفزاز أصلا، وتلعب دنيا لعبة الرقيب الذاتي، أو الضمير لتسكته، ويكفي أن تجنح إلى العاطفة لتفلح، تثير مواجعه حسا وفكرا، تغيظه، تفتح أمامه كوى للحديث في مواضيع يريد هو أصلا أن يتحدث فيها بإسهاب، ولكنه يؤثر هذه الدماثة البروتوكولية النشاتية، تعينه في اندفاق غزير معلوماته عن الأحوال في الخارج مدركة أن تواضعه يتطلب سؤالا أو استيضاحا، توصل الخارج بالداخل نوعا من لم الشمل... وربما تتحكم هي به كما يتحكم بها إذ تصنع رواية وتجعله راوية.

دنيا التي ترمز للوطن الململم بالشتات، هي في النهاية السوداء تظل الدنيا التي لا تريد لعمر وطنا إلا في الشتات، فلا هي قدمت كرغبته، ولا هو خرج كرغبتها، ولذا، رأيناها غائبة مغيبة الشتات معها في إطلالة الفصل قبل الأخير، قالت له دنيا: «عندما تقرر إذا كنت تريدني فعلا فسوف تجدني»، وقال هو لها: «عندما تقررين أن تأتي فسوف تجدينني». (حياة بدون شتات). وكانت هذه إيذانا بالنهاية، وإن التقاها في الحلم في لحظة هلوسة اختصرت الصدق: «... غربته عن المكان خاصة وعينية، أما غربتها فعامة مجردة... وأحست دنيا لأول مرة بضياع حبيبها في شظايا المكان وبغربة عمر وضيقه في هذه الديار. إنهما غريبان ها هنا».

ولم يبق من دنيا إلا اتصال للتعزية، وبيت مفتوح للعزاء في بيروت... ولم يبق من عمر، عصي الدمع، إلا التفرغ لترتيب أوراق عمو صلاح في البيت القديم في حيفا... قصة الفلسطيني، يقتل ويقبر هنا، أو هناك، وهنا وهناك كلاهما حاجز... وتفتح بيوت للعزاء في أقطار الأرض، فالدنيا. لا فلسطين، ما زالت الوطن... ويبقى عمر النجار هي أمنية... وماذا تريد منه؟ إعادة بناء المنزل أو المحل لكل المرتحلين والمرحلين؟ أم اقتناص لحظة لـ «التركيز والتأمل... والانعزال الشرعي والتأمل، أم خلق مسيح جديد؟ أنا لا أعرف... أو لربما أنا أعرف إلى درجة اليقين، ولكن اليقين يرعبني فأتدثر بالشك أو بالتساؤل. ❊

كتاب الزاوية

مقال في العبودية المختارة

أيتن دي لابويسيه

مقال في العبودية المختارة هو أحد أشهر النصوص السياسية والفكرية في التاريخ الأوروبي التي تعالج قضايا الطغيان ودور رجل الشارع العادي في دعم الطغيان وإتاحة الفرصة له كي يزدهر ويستمر.

مؤلف هذا المقال هو الفرنسي أيتن دي لابويسيه الذي ولد في نوفمبر ١٥٣٠ ودرس القانون في الجامعة وحصل على تصريح من الملك هنري الثاني يبيح له حق العمل قاضيا في برلمان بوردو. وكانت تلك الفترة التي ظهر فيها دي لابويسيه مرحلة صراع ديني شديد في فرنسا بين الكاثوليك والهجنوت (وهو الاسم الذي أطلق على أشياع كالفن بفرنسا. وتعرض الهجنوت لعقوبات صارمة بلغت حد الحرق.

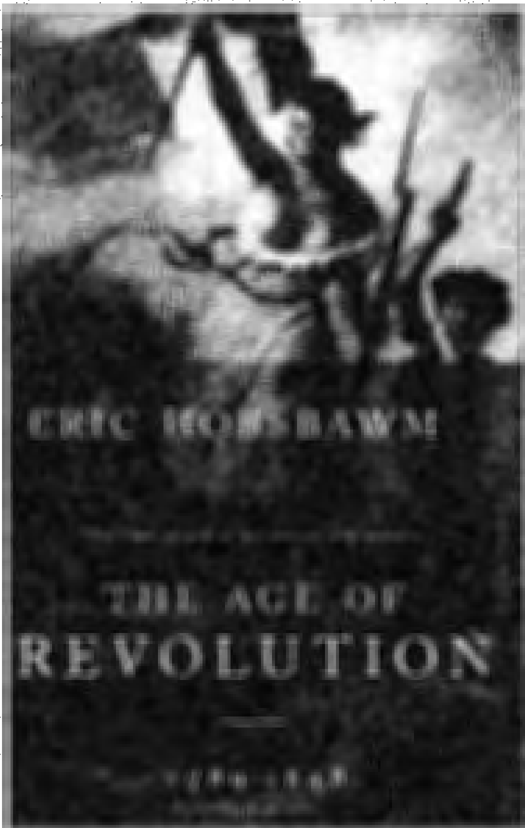
ويناقش المؤلف في كتابه سلوك الطغاة وسلوك الناس وطاعتهم المختارة للطاغية. ويرفض لابويسيه دور الدولة الحديثة التي تسحق الجماعات ولا تترك لها حرية أو استقلالا في تصريف أمورها بنفسها.

وظل الكتاب مثارا للاهتمام في أوروبا وفرنسا بشكل خاص مع قيام الثورات ضد الملوك من أجل تحقيق الحرية.

ونظرا لأهمية هذا الكتاب الفريد قام الدكتور مصطفى صفوان بترجمته وكتابة مقدمة وهوامش ضافية وصدر باللغة العربية عن مكتبة مدبولي عام ١٩٩٠م.

الثورة
رأس المال
الإمبراطورية

إريك هوبزباوم



العرب..

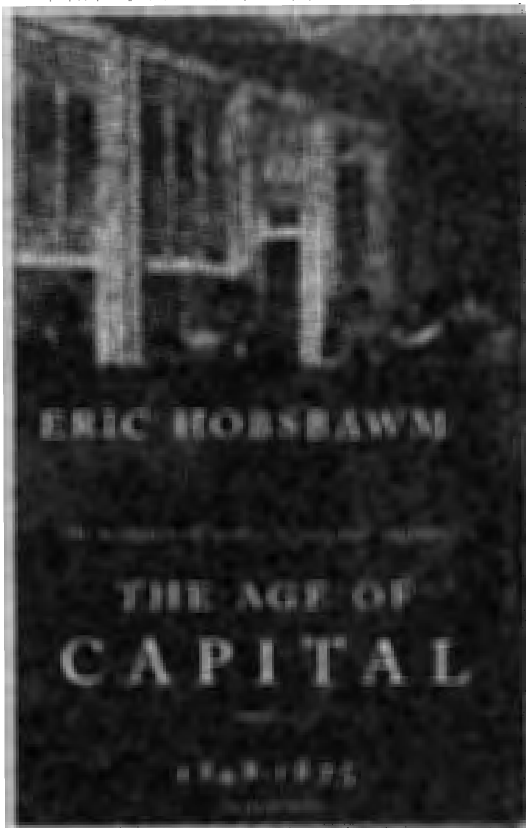
اصطدم توسع الأوروبيين الاقتصادي والعسكري بعالم إسلامي كان لا يزال يمر بمرحلة من التوسع المستمر. ولا سيما في أفريقيا. والمناطق الوسطى والجنوبية الشرقية من آسيا. إلا أن هذا العالم كان يعاني نزاعات داخلية

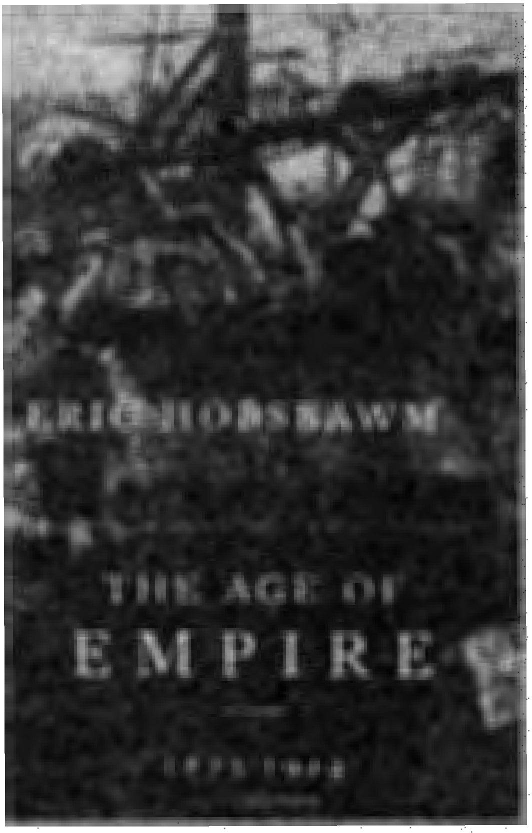
■■ وضعت هذه المؤلفات الثلاثة، التي استكملتها بكتاب رابع عن تاريخ العالم منذ الحرب العالمية الأولى حتى سقوط الاتحاد السوفيتي، ليقرأها، كما تقول مقدمة الكتاب الأول، «المواطن الذكي المتعلم الذي لا يسعى إلى إشباع فضوله لمعرفة الماضي فحسب، بل يريد أيضاً أن يفهم كيف ولماذا أصبح العالم على ما هو عليه الآن. وإلام سيؤول».

وتعالج هذه المؤلفات الأربعة كلها الفترة الأكثر أهمية في تطور البشرية منذ ما اصطلح على تسميته «ثورة العصر الحجري الحديث» قبل نحو عشرة آلاف سنة. التي شهدت بدايات الزراعة، واستخدام المعادن، ونشوء المدن، والسجلات المدونة للنشاط والفكر الإنسانيين. إن التقسيم الزمني لمراحل التاريخ البشري عملية مختصرة بمعايير علوم الإحاثة، والآثار، وطبقات الأرض، بيد أن الفترة التي تتناولها هذه المؤلفات، على مدى قرنين ونصف القرن تقريباً، تغطي أجيالاً بشرية قليلة، وهي مدة قصيرة على نحو كاف لأن تستوعبها ذاكرة عائلة واحدة.

وقد لا تكون ثمة حاجة لإيضاح التحول المثير الذي طرأ على الحياة الإنسانية خلال هذه الحقبة، حتى قبل أن تتسارع خطوات التغيرات التاريخية العالمية في التعبير عن السرعة، خلال

مقدمة المؤلف للطبعة العربية
عصر الثورة: أوروبا (١٧٨٩ - ١٨٤٨)
إريك هوبزباوم
ترجمة: فايز الصايغ
بيروت: المنظمة العربية للترجمة
توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية
٦٣٩ صفحة - ٢٠٠٧





عصور التحول

نصف القرن الماضي، إلا أن بوسعنا أن ندلل على ذلك بواحد من أقدم الأنشطة التقليدية في العالم الإسلامي، هو الحج إلى مكة. فقد كان، قرونًا عديدة، يتم بصورة أساسية برًا بواسطة القوافل أو سيراً على الأقدام. غير أن تقانة القرن التاسع عشر، الممثلة في قناة السويس، والسفن البخارية والسكك الحديدية، وافتتاح سكة الحجاز عام ١٩٠٨ (بالتقويم الزمني الغربي) التي بنيت أساسا لتيسير أداء فريضة الحج، قد تضافرت جميعها لإنهاء عهد القوافل. ذلك أن آخر القوافل المهمة غادر القاهرة عام ١٨٨٣ (بالتقويم الغربي). كما أنها يسرت لمسلمي جنوب شرقي آسيا أن يشاركوا في الحج مشاركة فاعلة مهمة من الوجهة السياسية. وبحلول العام ١٩٠٠، كان عدد الحجيج قد وصل إلى ما يتراوح بين ثمانين ألفا ومائة ألف في السنة، وهو رقم لم يكن ممكنًا تصوره حتى ذلك الحين. وبعد الحرب العالمية الثانية، كانت الآثار التي تركتها تقانة القرن العشرين على المواصلات البرية، وبصورة خاصة الخطوط الجوية، أكثر ثورية: إذ ارتفع عدد الحجيج إلى ما يتراوح بين مليونين وثلاثة ملايين حاج في السنة.

ليس ثمة نشاط بشري خارج نطاق الابتكار، فمنذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يسرت الطباعة والانتشار السريع للكلمة المطبوعة في أرجاء الشرق الأوسط عملية تطوير لغة حديثة نموذجية للمتعلمين الناطقين بالعربية، مقابل اللغة الفصحى من جهة، واللهجات المحلية المتعددة التي يصعب التواصل بها من جهة ثانية. وحيث إن الأفلام والتلفاز ينبغي أن تكون مفهومة في أوساط الملايين من الناس على امتداد بلدان عديدة، فإنها قد خلقت، ربما للمرة الأولى في التاريخ، لغة محكية مفهومة عموماً في أرجاء بلدان المغرب والشرق الأوسط.

وبما أن التغير والتحول قد أصبحا من الخصائص المميزة لهذه البلدان، فليس من المستغرب أن تكون حتى الحركات المنادية بحماية التراث أو العودة إليه تطورات تاريخية مستجدة. ومن الخطأ الاعتقاد أن السبب في اختلاف بلدان العالم الإسلامي كثيراً عن الديمقراطيات الدستورية في الاتحاد الأوروبي، مع استثناءات هامشية، هو أن هذه البلدان لم تتغير. فقد كان «الإخوان المسلمون» في مصر، وسيظلون، «حزبا سياسيا حديثًا»، له شكل من التنظيم السياسي ونهج في اجتذاب الأنصار، وبرنامج سياسي حافل بالفرضيات المستقاة من ميدان العمل السياسي الوطني، خلافًا لكل ما قام به العالم الإسلامي منذ قرنين، حتى وإن كانت أهدافه تتمثل في إقامة نظام اجتماعي قوامه الشريعة الإسلامية. وقد رأى البعض أن نهجا تقليديًا في ظاهره مثل «الحكومة الإسلامية» التي اختطها آية الله الخميني، قد غدت قابلة للتصديق والتصور «بفعل شروط الدولة والعمل السياسي» التي لم تكن موجودة في العالم الإسلامي قبل الثورة الفرنسية.

إن هذه المؤلفات تصف مرحلة حرجة في تحول هذا الكوكب، بفعل النسق الاجتماعي - الاقتصادي المستجد، تاريخيًا، الذي سماه كارل ماركس «المجتمع البورجوازي»، وكان أول من أدرك منطوياته الثورية على الصعيد العالمي. ويبدأ التاريخ الذي أتناوله هنا بالاختراق المزدوج الحاسم الذي وقع في أواخر القرن الثامن عشر، والمسمى «الثورة الصناعية» في بريطانيا. فهي التي مهدت الطريق للنمو

العرب.. عصور التحول



الاقتصادي الرأسمالي، وللتغلغل العالمي، وللثورة السياسية الفرنسية ـ الأمريكية التي طرحت نموذجاً مثالياً متقدماً لمؤسسات المجتمع البورجوازي. وقد تحددت الملامح العامة لتاريخ المائتين والخمسين سنة الماضية جراء الآثار العالمية المتزايدة لهذا النسق، وبنمطه المتميز بالتنمية من خلال عدم الاستقرار، وبفترات متتالية من النمو السريع الذي يؤدي إلى وقوع الأزمات، وإلى إعادة الهيكلة، وإلى الثورة في بعض الأحيان. وقد كان حجم النمو العالمي لهذا النسق متواضعاً في القرن التاسع عشر، ولم تعترضه، بالمقارنة مع مقاييس لاحقة، أية تحديات. فالحقبة التي تلت العام ١٩١٤ هي التي أثبتت إمكانية خلق التصدع والزعزعة في العالم، وهذه المرحلة من الأزمات، والانهيارات، وإعادة الهيكلة، هي موضوع كتاب التاريخ الرابع الذي وضعته بعنوان عصر التطرف.

لم يكن ممكناً قيام نظام عالمي، بالمعنى الحرفي للكلمة، إلا في فترة كولومبوس وماجلان، عندما قام التجار وقادة الحملات الوافدة من «العالم القديم» في أوراسيا وأفريقيا باكتشاف ما يسمى «العالم الجديد» في نصف الكرة الغربي، وغزوه. وعندما تم الدوران حول الأرض بحراً، وعلى مدى أربعة قرون ونصف القرن منذئذ، هيمنت على التاريخ تطورات اقتصادية وسياسية وثقافية وفكرية نابعة من أوروبا. وترابط التغلغل الاقتصادي والغزو السياسي اللذين مارستهما حفنة من الأقطار الأوروبية، ثم مارسته، بعد سقوط تلك البلدان، الولايات المتحدة الأمريكية، وهي دولة أقامها المستوطنون الأوروبيون، واستلهمت التراث الأوروبي. وخلال القرن العشرين، انتهت الحقبة الأوروبية في تاريخ العالم. ويبدو، في مستهل القرن الحادي والعشرين، أن استمرار هذه الحقبة، برعاية الولايات المتحدة، لن يدوم طويلاً.

وحيث إن هذه المؤلفات تقدم صورة عامة لتاريخ العالم منذ «الثورة المزدوجة»، فإن تغطية المناطق المختلفة في العالم كانت متفاوتة جداً. وقد أوضحت أسباب ذلك في مقدمة عصر الثورة. ومع ذلك، فإن من المحبذ أن نتحدث في هذه الإصدارة لجمهرة الناطقين بالعربية، بشكل محدد، عن دور منطقتي المغرب والشرق الأوسط، والعالم الإسلامي بصورة عامة، في الفترة التي تبدأ في أواخر القرن الثامن عشر، وقد استغرقنا عدداً من هذه الموضوعات في عدة مواضع من عصر الثورة.

لقد ارتبطت المنطقة الوسطى من العالم الإسلامي، وهي التي احتلتها الإمبراطورية العثمانية في أواخر القرن، بشبكة من الوشائج مع أوروبا، سواء عن طريق التجارة أم عن طريق الغزو. وكان محتماً أن تمر التجارة بين الغرب والشرق الأقصى عبر هذه المنطقة. وعلى مدى ألف عام، كان الغزاة يأتون من الشرق، لا من الغرب. كانوا، منذ القرن السابع، ينتسبون إلى شعوب وحكام ممن اعتنقوا الإسلام. وبحلول أواخر القرن الثامن عشر، كانت آخر تلك القوى الشرقية الغازية، وهي الإمبراطورية العثمانية، تعاني ضعفاً واضحاً، داخلياً وخارجياً، تحت وطأة الضغوط التي مارستها عليها الإمبراطوريتان الروسية والنمساوية، وكانت تتراجع في أوروبا وشمال البحر الأسود. لكن المناطق غير الأوروبية التي يقطنها سكان مسلمون أساساً لم تتعرض قط للاحتلال من جانب حكام غير مسلمين، باستثناء الغزوات الصليبية القصيرة نسبياً.

وقد اصطدم توسع الأوروبيين الاقتصادي والعسكري بعالم إسلامي كان لايزال يمر بمرحلة من التوسع المستمر، ولا سيما في أفريقيا. والمناطق الوسطى والجنوبية الشرقية من آسيا. إلا أن هذا العالم كان يعاني نزاعات داخلية. فمن الوجهة السياسية، كانت القوى المركزية للإمبراطوريات العثمانية والفارسية والمغولية، قد اندثرت أو أوشكت على الاندثار، وراحت حركات إصلاحية دينية في الهوامش الخارجية للحضارة الإسلامية، مثل الوهابية في الجزيرة العربية، والسنوسية في ليبيا، والمريدية في القوقاز، والحركة الجهادية بزعامة عثمان دون فوايو في شمال نيجيريا، نقول إن هذه الحركات راحت تدعو إلى العودة إلى الإسلام النقي، وسرعان ما أخذت تذكي المقاومة ضد الاعتداءات الأجنبية.

كان للتحولات المثيرة في أوروبا أثر مزدوج على العالم الإسلامي، إذ إنها أذكت روح المقاومة والإصلاح في آن معاً. فقد أصبح الإسلام، من جهة، قوة لحشد المقاومة ضد غير المسلمين الذين غدوا الآن في موقع يمكنهم من غزو أراضي المسلمين واحتلالها، سواء من الروس شمال البحر الأسود وشرقه، أو من جيوش فرنسا الثورية التي وصلت إلى مصر وسوريا، واستعادت النظام الملكي الفرنسي الذي سيطر على الجزائر. (وفي تلك الأثناء، كانت الصيغة البريطانية، التي جمعت بين التجارة والرفاد والدبلوماسية، تؤسس وتوسع الحكم البريطاني في الإقليم، على أنقاض إمبراطورية المغول المتهافتة) ومن جهة أخرى، أظهر التفوق الغربي قوة الأفكار وأساليب العمل الغربية والحاجة إلى التعلم منها. وقد تجسد ذلك، لحسن الحظ، في الثورة الفرنسية، وهي النهضة الأعظم الأكثر تأثيراً على الصعيد العالمي في ذلك العصر، كما أنها، بالتأكيد، أول حركة للأفكار الأوروبية تترك آثارها على العالم الإسلامي، لأنها لم تعد تمثل نزعات دينية في المسيحية الغربية.

وفي القرن التاسع عشر، كانت تأثيرات الإصلاح هي الأعمق وقعاً في مصر، التي حققت ما يشبه الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية في عهد محمد علي. ففي عهده، ومن خلال الاستعانة بمستشاريه الفرنسيين والإيطاليين الذين استوحوا اتجاهاتهم من الدعاة الثوريين حتى من أوائل الاشتراكيين، أصبحت مصر أول دولة إسلامية تدخل مرحلة التحديث بصورة منظمة، وأول دولة غير أوروبية تسعى إلى سلوك سبيل التحديث للخروج من التخلف الاقتصادي. فقد احتفى محمد علي بالتصنيع، وبالثقافة الغربية، وبالإنتاج الذي يستهدف التصدير إلى أسواق (غربية)، وعكف على إعادة تنظيم الإدارة والتعليم والاقتصاد، وفرض سيطرة الدولة على المؤسسات الدينية في بلاده، وتصدى لمساعي الوهابيين للسيطرة على مكة والمدينة. واكتسبت مصر، في واقع الأمر، البنية التحتية للمجتمعات الحديثة، وعناصر النخبة الاقتصادية الجديدة العازمة على التحديث، بمن فيها المسلمون والمسيحيون واليهود في مصر، والوافدون من أنحاء العالم. وقدمت هذه النخبة، فيما بعد، الدعم لأوائل الدعاة الذين نادوا بتحديث الإسلام في الشرق الأوسط، مثل جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وطرحت، في وقت لاحق، مفهوماً علمانياً لمجتمع مصري مستقل. وقد ظلت مصر، في أكثر من ناحية، تحتل مكان الصدارة في مساعي التحديث، منذ انتفاضة الضباط التقدميين بزعامة عرابي عام ١٨٨١ لإقامة حكومة دستورية، وحتى بعد ثورة الضباط الأحرار وجمال عبدالناصر عام ١٩٥٢. وبما أن مصر، بثروتها الزراعية وموقعها الاستراتيجي، وقعت ضحية للقوة الاستعمارية الاقتصادية العسكرية المتفوقة، فقد اتخذت موقع الريادة في معاداة الاستعمار، وأصبحت (هي وأيرلندا) أول دولتين تابعتين ترغمان الإمبراطورية البريطانية على التراجع عام ١٩٢٢. إن نظرة استرجاعية لأحداث الماضي تدلنا على أن الأثر الإصلاحي لعصر الثورة في الأجزاء الرئيسية للإمبراطورية العثمانية كان أكثر عمقاً، غير أن ذلك لم يكن ظاهراً على هذا النحو في القرن التاسع عشر، فقد بدا

في القرن التاسع عشر، كانت تأثيرات الإصلاح هي الأعمق وقعاً في مصر، التي حققت ما يشبه الاستقلال عن الإمبراطورية العثمانية في عهد محمد علي

العرب.. عصور التحول



الإصلاح مبكراً في عهد السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ . ١٨٠٧)، الذي أدرك الضعف الواضح الذي كانت الدولة العثمانية تعانيه في وجه التوسع الأوروبي، على الرغم من أن التحالف بين هيئة العلماء والقوات الانكشارية وضع نهاية لحكمه. وقد أحيا محمود الثاني (١٨٠٧ . ١٨٣٩) هذا البرنامج الإصلاحي الذي طرح، في عدة صور، قضية إعادة التنظيم، أو ما سمى «التنظيمات» التي انتشرت بعده في أوساط البيروقراطيين والمفكرين الساعين إلى التحديث حتى عام ١٨٧٦، مع أنها لم تترك غير أثر قليل على الناس. وعلى الرغم من ذلك، استمر التفكك في الإمبراطورية العثمانية، بفعل آثار التمرد في الأقاليم، والقوة العسكرية الأجنبية. ومع نهاية القرن التاسع عشر، كانت الإمبراطورية العثمانية قد فقدت جميع توابعها الأفريقية، وأكثر توابعها الأوروبية، وقدراً كبيراً من سيطرتها على الشرق الأوسط الذي ظل عثمانياً بالاسم فحسب. كما انخفض عدد سكانها بأكثر من الثلث في مرحلة تميزت بالنمو الديموجرافي. وفي عهد السلطان الطاغية الذي أخذت سلطته بالتضاؤل، مع أنه اعتمد على الدعم الإسلامي، قامت حركة الاتحاد والترقي (التي عرفت باسم «تركيا الفتاة») بحشد تحالف بين الساخطين في أوساط العسكريين والمدنيين، وتولت، في أعقاب الثورة الروسية الأولى، زمام الحكم عام ١٩٠٨ . ومن نتائج ذلك أن حركة «تركيا الفتاة» كانت، خلافاً لمحاولات الإصلاح الإسلامية السابقة، علمانية بصورة لا هوادة فيها. وواقع الأمر أن الثورة التركية بزعامة مصطفى كمال (أتاتورك) استطاعت، تحت تأثير الحرب العالمية وبعدها الثورة الروسية، أن تحول ما تبقى من الأراضي العثمانية إلى دولة قومية حديثة علمانية فعالة اتحد سكانها بعد ذلك، لا بوصفهم مسلمين يحكمون مجموعة من الملل من ديانات أخرى، ويتسامحون معها، بل باعتبارهم أتراكاً يتمتعون بالوعي القومي (غير المتسامح قومياً). وفي عهد أتاتورك كانت تركيا، ومثلها الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي آنذاك، تمثل نموذجاً متطرفاً للنخبة من المصلحين الذين فرضوا في العالم الإسلامي التحديث العنيف المغاير للتقاليد وللإسلام، وليس واضحاً إطلاقاً ما إذا كان شكل التحديث الذي انتهجه أتاتورك سيحالفه النجاح، أو أنه سيكون مثالاً يحتذى في البلدان الأخرى ذات الأغلبية المسلمة. بيد أن هذه التساؤلات، شأنها شأن عهد أتاتورك نفسه، تتصل بتاريخ القرن العشرين.

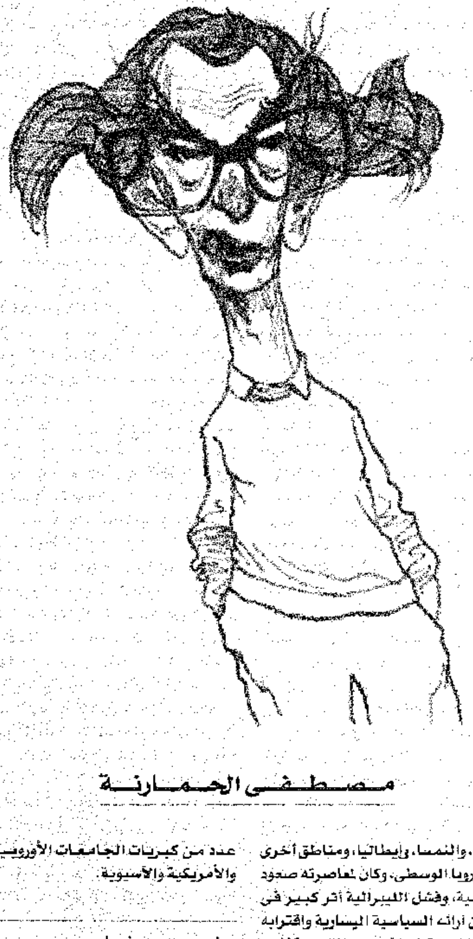
ولا بد من أن نتطرق، باختصار، إلى تيار تحديثي ثالث في الشرق الأوسط، هو حركة الإحياء الثقافي في المناطق الواقعة إلى الشرق من سواحل البحر الأبيض المتوسط، ولاسيما لبنان وما حوله. وحيث إن المنطقة كانت تضم جماعات دينية متعددة، وأنها شهدت، بالمصادفة، تدخلاً كبيراً في المجالات الدبلوماسية والتعليمية من جانب القوى الأوروبية التي تذرعت بمزاعم دينية، فإن اللغة العربية، لا الإسلام، هي الوسيلة التي جمعت ووحدت الصفوة المحدثة التي كانت تضم النخب التجارية الديناميةـ وربما كان لبنان هو البلد الوحيد في الشرق الأوسط الذي هاجر أبناؤه بأعداد كبيرة ناجحة جداً من الوجهة الاقتصادية في العهد العثماني إلى مختلف القارات، إلى الولايات المتحدة اعتباراً من خمسينيات القرن التاسع عشر، والبرازيل من العام ١٨٨٠، وغربي أفريقيا من العام ١٨٩٢، ومازال يطلق عليهم اسم «توركوس» ـ الأتراك ـ في أمريكا اللاتينية. وفي هذه المنطقة، ولدت القومية العربية، بل القومية الخاضعة لكل العرب، التي ينتسب إليها كل من المسلمين والمسيحيين ومن لا شأن لهم بالدين. وقد تصدت، أول الأمر، للحكام العثمانيين، ولكنها، خلال فترة السيطرة البريطانية ـ الفرنسية بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، أبدت مقاومة متزايدة ضد القوى الإمبريالية الأوروبية. وقد داخلتها، عند تعاظمها في الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، بعض الأفكار الاشتراكية، غير أن إسهامها الرئيسي، قبل العام ١٩١٤، كان في الميدان الثقافي.

فكيف نستطيع أن نلخص الآثار التي خلفتها تطورات القرن التاسع عشر على العالم الإسلامي؟ لقد أصبح الموقع الاستراتيجي للشرق الأوسط في غاية الأهمية في زمن الثورة الفرنسية. وبقي كذلك منذ ذلك الحين. وقد تجلى ذلك في دوره خلال الحربين العالميتين. وقد تعزز هذا الدور بأهمية النفط المركزية للاقتصاديات الصناعية الحديثة. وأدى ذلك، بالإضافة إلى انهيار الإمبراطوريات العثمانية والإسلامية القديمة الأخرى، إلى مواجهة مباشرة بين عالم إسلامي واثق في نفسه، متزايد الاتساع من جهة، والإمبراطوريات الأوروبية المتعدية، التي سبقت ما حدث لأجزاء أخرى من العالم غير الأوروبي. وعلى الرغم من ذلك، فإن أغلبية العالم الإسلامي، الواقعة غربي الهند على الأقل، بقيت خارج مجال الحكم الاستعماري الغربي حتى القرن العشرين، مع أن المناطق التي ظلت مستقلة، من الوجهة الفنية، كانت إما ضعيفة أو خارج نطاق تيار التطورات الرئيسية في القرن التاسع عشر، أو كليهما. ومن جهة أخرى، فإن الهيمنة أو السيطرة الأوروبية خلال تلك المرحلة المبكرة من العولمة الاقتصادية لم تترك أية آثار ملموسة على أكثرية سكان (الأرياف) في تلك المناطق، عدا القمع الذي يمارسه حكامهم المحليون. وكان الحكام الغربيون يميلون إلى معاملة الدين الإسلامي باحترام، بسبب قدرته الواضحة على تعبئة الجماهير وإذكاء الروح القتالية فيها. وباستثناء بعض الظروف الخاصة (مثل الغزو العسكري المباشر، كما حدث في الجزائر)، فإن الحوافز لمقاومة التوسع الأوروبي كانت ضعيفة، وقد خفف عنها شعور الأقليات السياسية التي يمثلها البيروقراطيون المستنيرون، من نخب الضباط والمدنيين على السواء، بأن المقاومة ستبوء بالفشل، ما لم يكن ثمة تحديث مسبق لمجتمعاتهم التي كانت تغط في سبات عميق. وقد اكتسب التحديث صفة الاستعجال والإلحاح بفعل تزايد العولمة في عصر الإمبراطورية. وتعاظم ضغوط الأوروبيين الاستعمارية، والأزمة الختامية للإمبراطورية العثمانية. وفي تلك المرحلة، التي تميزت بروح الإسلام المحافظة، وللافتقار إلى الوعي السياسي في أوساط الجماهير الورعة، أخلى دعاة تحديث الإسلام السبيل لدعاة الإصلاح الراديكالي على النهج الغربي من جانب الأقليات المستنيرة التي كانت تتعامل بصورة فوقية مع شعوبها المتشبثة بالتقاليد. ولم يكن من قبيل المصادفة أن أيديولوجيات التحديث الغربية التي تبنتها الطلائع المستنيرة، وفرضتها من أعلى، أصبح لها نفوذها في العالم الإسلامي، مثلما كان لها تأثيرها على أنظمة الحكم غير الأوروبية التي كانت تسعى للتخلص من التخلف الاقتصادي. ومن هذه الأيديولوجيات فلسفة أوجست كونت الوضعية (التي كانت لها أصداء في البرازيل والمكسيك، وكذلك في الإمبراطوريات العثمانية)، وتراث السان سيمونيين في مصر. وقد استبدلت هذه التيارات في العشرينيات بنوع جديد من الأيديولوجيات الطليعية المستوحاة من الثورة الروسية. وقد استحدث القرن العشرون عنصرين أساسيين جديدين في تاريخ العالم الإسلامي هما: انهيار القوى والإمبراطوريات الأوروبية، والتعبئة السياسية للجماهير المسلمة الآخذة بمزيد من التحضر. ويقع هذان العنصران خارج النطاق الزمني لهذه المؤلفات الثلاثة: عصر الثورة، وعصر رأس المال، وعصر الإمبراطورية. وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، لم يكن هذان العنصران ظاهرين للعيان. ■

استحدث القرن العشرون عنصرين أساسيين جديدين في تاريخ العالم الإسلامي هما: انهيار القوى والإمبراطوريات الأوروبية، والتعبئة السياسية للجماهير المسلمة الآخذة بمزيد من التحضر

لم يساوم ولم يتنازل!

هوبزباوم.. المؤرخ



مصطفى الحمارنة

※ ثمة ما يشبه الإجماع فى أوساط الدارسين المعاصرين على اعتبار اريك جون بلير هوبزباوم واحداً من أشهر المؤرخين المعاصرين فى بريطانيا وأوروبا، بل إن الباحثين اليساريين ينزعون إلى اعتباره أبرز مؤرخى هذه الأيام فى العالم أجمع، أو أفضل مؤرخى القرن العشرين. وتميل الفئة الأولى إلى التركيز على جدارته العلمية، ونهجه الموضوعى المعمق الشامل المتعدد الأبعاد فى دراسة التاريخ الحديث، بينما تضيف الفئة الأخيرة من المراقبين سلسلة أخرى من السمات التى تميز منهجه الفكرى، ومن بينها منظوره الماركسى المادى الجدلى فى تحليل الظواهر التاريخية، والتزامه التعايش مع واقع العالم المعاصر السياسى والاجتماعى، واستمراره، حتى وهو على مشارف التسعينيات من عمره، فى التعبير عن مواقفه وآرائه الجريئة إزاء أحداث الساعة.

ولا بأس، فى معرض الحديث عن منظور هوبزباوم ودراسته، من الإشارة إلى أننى تعرفت عليه، فكرياً، منذ بواكير دراساته المنشورة، أيام كنت طالب دراسات عليا فى قسم التاريخ فى جامعة جورجتاون منذ أكثر من خمس وعشرين سنة. ففى خريف عام ١٩٧٩، إذا لم تخنى الذاكرة، كنت أعد دراسة عن الحركات الفلاحية، وكان كتاب هوبزباوم «المتمردون البدائيون» (Primitive Rebels) المنشور عام ١٩٥٩، مصدراً أساسياً للبحث الذى كنت أقوم به. وقد بهرنى ذلك المؤرخ منذ تلك الأيام، وتواصل اطلاعى المعمق ودراستى لمؤلفاته منذ ذلك الحين حتى سيرته الذاتية أزمة لافتة: حياة فى القرن العشرين: (Interesting Times: (2000)) A Twentieth Century Life) وعلى الرغم من أن هوبزباوم كان شيوعياً فى ذلك الوقت. لقد كان ماركسى المنهج، لكنه أنتج دراسات مختلفة عن الكتابات اليسارية المألوفة آنذاك، فهو لم يكن كبعض أقرانه من الماركسيين الذين يحملون كتاباتهم نصوصاً أيديولوجية للتدليل على واقعة أو ظاهرة تاريخية ما، بل إن هوبزباوم كان يستعمل الأدوات والمفاهيم الماركسية فى إطاره النظرى بسهولة ومرونة وذكاء، مما يجعل تأثيره على القارئ عميق الوقع.

وولد هوبزباوم فى الإسكندرية عام ١٩١٧ لأب بريطانى وأم نمساوية، وانتقل إلى فيينا بعد وفاة والده ليعيش مع والدته، ولمتابعة دراسته فى برلين. واضطر للرحيل إلى بريطانيا عام ١٩٣٣، إثر تعاظم النزعة النازية الفاشية فى ألمانيا، والنمسا، وإيطاليا، ومناطق أخرى فى أوروبا الوسطى. وكان لمعاصرته صعود الفاشية، وفشل الليبرالية أثر كبير فى تكوين آرائه السياسية اليسارية واقترابه من الماركسية، كما أن هذه التجربة أثرت فى اهتماماته البحثية لموضوع الهويات وظواهر التعصب العرقى والدينى والإثنى.

وفى لندن، أكمل دراساته الجامعية وحصل على الدكتوراة فى التاريخ من كينغز كوليج فى جامعة كامبريدج، وعمل محاضراً فى جامعة لندن. كلية بيربك، وأصبح أستاذاً للتاريخ الاقتصادى الاجتماعى عام ١٩٧٠، وزميلاً فى الأكاديمية البريطانية عام ١٩٧٨م.

ويعمل هوبزباوم الآن رئيساً لكلية بيربك. جامعة لندن، وأستاذاً زائراً فى عدد من كبريات الجامعات الأوروبية والأمريكية والآسيوية.

منهج هوبزباوم

درج اريك هوبزباوم على التأكيد فى المقدمات التمهيدية لكل أعماله على أنه لا يسرد التاريخ، ولا يعيد صياغته، ولا يؤرخ لوقائعه أو يصف أحداثه كما تفعل جمهرة «المؤرخين» من قدامى ومحدثين على السواء. إنه، كما يقول: إنما يتوجه القارئ والمراقب والباحث الذكى المتعلم فحسب، فيدرس ظواهر التاريخ الأساسية والأحداث الكبرى المؤثرة فى حياة الناس فى المجتمعات البشرية، ويحلل أسبابها ونتائجها المباشرة وغير المباشرة، ويربط بعضها ببعض على نحو متكامل، فى المجالات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية دون استثناء، بحيث تكون الحصيلة النهائية صورة نابضة بالحياة للواقع البشرى فى مرحلة معينة، تتسلسل على نحو جدلى مع ما يسبقها وما يليها فى مراحل.

وفى سياق الإطار الفكرى الجدلى العام الذى يتحرك فيه هوبزباوم، فإنه يستهل أول مؤلفاته المهمة «المتمردون البدائيون» بمقولة أعتقد أن المؤرخين العرب المحدثين هم فى أمس الحاجة إليها لدراسة الماضى والحاضر على حد سواء. فهو يرى فى هذا الكتاب أن الحركات الاجتماعية التى حدثت فى غرب أوروبا وجنوبها فى القرنين التاسع عشر والعشرين، وقام بها فلاحو الأندلس فى إسبانيا، وعمال المناجم فى درهام فى بريطانيا، وحتى المافيا فى صقلية، لم تكن وقائع لا يمكن التكهن بها، أو أحداثاً منبتة الصلة بما قبلها وبعدها وحولها. كما أنها ليست من التفاهة إلى حد دفع أكثر المؤرخين إلى تهميشها أو اعتبارها فورات عرضية وحالات عابرة من التمرد التلقائى الفاشل. (وتلك، فيما أرى، هى المقاربة التى ناقش بها أغلب المؤرخين العرب ظواهر مهمة فى التاريخ العربى الإسلامى قبل حركة القرامطة، وثورة الزنج وغيرهما). ويرى هوبزباوم أن الحركات، سواء ما نشأ منها عن أصول ريفية أو فلاحية أو برز فى المراحل ما قبل الحضرية وقبل الصناعية، تمثل احتجاجاً عنيفاً على القمع، والفقر، إنها صرخة للثأر من الطغاة ومن أصحاب الثروة والجاه، وحلم غامض لتقليم أظافرهم وانتزاع أنيابهم، وإزالة أخطائهم وخطاياهم ضد الناس البسطاء العاديين. وكان طموح هذه الحركات، فى جوهره، غاية فى البساطة، وهو أن يعيش الناس لا فى عالم جديد متكامل، بل فى عالم تسوده روح العدل والإنصاف ويعامل فيه الناس على قدم المساواة. إلا أن هذه الحركات التى تتشابه، من حيث طبيعتها، مع جوانب من حروب العصابات الحديثة، كانت جميعها تفتقر إلى عنصرين جوهريين لازمين هما: أيديولوجية متماسكة تهدد الأهداف والمرامى القريبة والبعيدة، وتنظيم مترابط يضم أطراف الحركة ويحدد مسئوليات الأعضاء فيها ودرجات انتمائهم وأساليب عملهم.

وعلى الرغم من ذلك كله، فإن هذه الحركات تظل مسالك جانبية ومؤشرات

تركز منهجية هوبزباوم في التحليل السياسي الاجتماعي على قاعدة معرفية موسوعية حول جميع مناحي الحياة في أوروبا وبقاع كثيرة من العالم في الفترة الممتدة بين بدايات القرن السابع عشر ومطلع القرن الحادي والعشرين

بارزة على مسيرة المجتمعات في المستقبل، ومكونات رئيسية في القوة الدافعة التي تحرك مسارات التاريخ البشري. والأهم من ذلك كله أن هذه الحركات الاجتماعية «البدائية» على ما بينها من اختلاف، تمثل آخر الأمر روافد مؤثرة تعزز التوجه نحو التغيرات الكبرى التي تتجلى في التاريخ الحديث في سلسلة من المنعطفات والثورات الحاسمة في العالم، ومنها الثورات الصناعية، والفرنسية، والأمريكية، وأخيراً الروسية. ويعتقد إريك هوبزباوم، في هذا السياق، أن ما قاله المفكر الإيطالي اليساري أنطونيو غرامشي عن الحركات الفلاحية في جنوب إيطاليا في العشرينيات من القرن التاسع عشر، يصدق على كثير من الجماعات في عالمنا المعاصر. لقد كانت جماهير الفلاحين، في نظره، «في حالة دائمة من الاختمار، بيد أنها بصفتها كتلة جماعية، كانت تفتقر إلى قوة مركزية تعبر عن تطلعاتها واحتياجاتها».

وقد سلك هوبزباوم هذا النهج الاستقصائي المتكامل نفسه في دراساته اللاحقة التي تناول فيها انتفاضة العمال الزراعيين في جنوب وشرق إنجلترا عام ١٨٣٠ (الكابتن سوينج (Captain Swing) ١٩٦٩)، والسير السياسية والفكرية لعدد من ثوار القرن العشرين (ثوار: مقالات معاصرة (Revolutionaries: Contemporary Essays ١٩٧٣))، وسلسلة من الدراسات عن الحركات العمالية في بريطانيا وأوروبا.

وفي جميع هذه الدراسات التحليلية للحركات والأوضاع والظروف الممهدة للتغيرات الاجتماعية الكبرى في التاريخ الحديث، يكون إريك هوبزباوم قد ارتاد سبيلاً جديداً في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، تبلور بعد ذلك في مقاربات جيل من أبرز العلماء الاجتماعيين في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي لقضايا التغير الاجتماعي والحركات الاجتماعية والتحليل التاريخي المقارن، ومن بين هؤلاء: تشارلز تيلي (Charles Tilly)، وثيدا سكوكبول (Theda Skocpol)، وأنتون بلوك (Anton Blok). وينطلق هؤلاء وغيرهم، على العموم، من عدد من المفاهيم التحليلية التي أرسى هوبزباوم دعائمها في الدراسات التحليلية، ومن بينها مفهوم «العصيان الاجتماعي»، وما كان بموجب التعريف «الرسمي» يدعى «الجريمة الاجتماعية». ويفسر هذان المفهومان كثيراً من الأنماط المختلفة السائدة في التاريخي والاجتماعي والسياسي لمجتمعات متباينة وفي عصور مختلفة. وكانت معظم ظواهر العصيان هذه تعرف، حتى عهد قريب، وفق المنظور التقليدي، حتى في المؤسسات التعليمية، بأنها حركات تمرد تقوم بها جماعات من اللصوص أو المجرمين أو المهمشين من طفيليات المجتمع. وجاءت هذه المدرسة الفكرية الجديدة في العلوم الاجتماعية لتخرج هذه الحركات من نطاق الرؤية التقليدية، وتدخلها في عداد مظاهر الرفض والاحتجاج على جوانب محددة في الواقع الاجتماعي المؤسسي، وفي سياق تاريخي محدد.

تركز منهجية هوبزباوم في التحليل السياسي الاجتماعي على قاعدة معرفية موسوعية حول جميع مناحي الحياة في أوروبا وبقاع كثيرة من العالم في الفترة الممتدة بين بدايات القرن السابع عشر ومطلع القرن الحادي والعشرين في مجالات الاقتصاد، والسياسة، والثقافة، والفنون. وهو يرى أن مهمة المؤرخ هي «اكتشاف الأنماط والآليات التي حولت العالم من حال إلى حال». ولا تقتصر هذه المهمة، في رأيه، على اكتشاف الماضي، «بل تتجاوز ذلك إلى تفسيره، ومن ثم إيجاد رابطة تشده إلى الحاضر».

وفي هذا الإطار الذي يتحاشى السرد الوصفي، ويركز على التفسير الاجتماعي لحركة التاريخ، أي «من الأسفل للأعلى»، تمكن هوبزباوم منذ عقود من وضع سلسلة من الدراسات العلمية في تحليل التاريخ الحضاري لأوروبا. وإلى جانب هذه الدراسات، نشر هوبزباوم مخطوطة كارل ماركس (Karl Marx) التشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية (Formen, die der Kapitalistischen Produktion Vorbergehen) ١٩٦٤، مترجمة إلى الإنجليزية، بعد أن وضع لها مقدمة نظرية وتحليلية موسعة عن أنماط الإنتاج قبل الرأسمالية. وكانت هذه المقدمة وتلك الوثيقة إضافة نوعية متميزة إلى الأدبيات الماركسية لتحليل المشاعات الاجتماعية القديمة وتبيان أثرها على البنية الاجتماعية. كما أنها كانت تمثل خروجاً عن إطار الماركسية السوفيتية التي حولت إلى نماذج جامدة متحجرة أنماط الإنتاج الخمسة المعهودة (وهي: المشاعية البدائية، ونمط الرق والسخرة، والنظام الإقطاعي، والنظام الرأسمالي. وهذه الأنماط هي التي قامت قبل حلول النظام الخامس المنشود: الاشتراكية والشيوعية).

وقد تخللت هذه المؤلفات دراسات مهمة من بينها الصناعة والإمبراطورية (Industry and Empire) (١٩٦٤) عن الثورة الصناعية في بريطانيا، والأمم والقومية منذ العام ١٧٨٠ (١٩٩٠)، وكتب أخرى. إلا أن إنجاز هوبزباوم الأهم والأكثر شهرة وذيوعاً في الأوساط الفكرية والأكاديمية في العالم يتمثل فيما أصبح يسمى «الثلاثية» عن التاريخ الحضاري لأوروبا منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر حتى مطالع القرن العشرين، واشتمل ذلك على ثلاثة مؤلفات مرجعية هي عصر الثورة: أوروبا ١٧٨٩ ـ ١٨٤٨ (١٩٦٢)، وعصر رأس المال ١٨٤٨ ـ ١٨٧٥ (١٩٧٥)، وعصر الإمبراطورية ١٨٧٥ ـ ١٩١٤ (١٩٨٧). وفي عام ١٩٩٤ استكمل هوبزباوم هذه السلسلة، التي تحولت إلى «رباعية» بإصدار عصر التطرف: القرن العشرون القصير ١٩١٤ ـ ١٩٩١، عن تاريخ العالم منذ الحرب العالمية الأولى حتى انهيار الاتحاد السوفيتي وأنظمة الكتلة الشرقية في أوروبا، وتغول الهيمنة الأمريكية على الساحة الدولية.

وفي كتابه عصر الثورة، يتتبع هوبزباوم التحولات التاريخية الجسيمة البعيدة الخطر التي طرأت على أوروبا بخاصة والعالم عموماً بين العام ١٧٨٩ والعام ١٨٤٨، في أعقاب ما يطلق عليه اسم «الثورة المزدوجة»، أي الفرنسية التي تستهل بها هذه الفترة ومعاصرتها الثورة الصناعية في بريطانيا. وانسجاماً مع منهجه التحليلي الذي أشرنا إليه يتطرق هوبزباوم في الجزء الأول من الكتاب إلى التطورات الاساسية التي شهدتها هذه الفترة على الصعيدين الأوروبي والدولي. ثم يتحول في القسم الثاني إلى مناقشة المعالم البارزة لطبيعة المجتمع الذي أنتجته تلك الثورة المزدوجة، مع ربط كل واحد من أبعادها وجوانبها بالآخر. وبعد أن يتحدث عن الخطوط العريضة لهاتين الثورتين، وما تلاهما من حروب، بما فيها الحروب النابليونية، وثورات وحركات سياسية في مختلف أنحاء أوروبا، ينتقل إلى تضاريس مجتمع ما بعد الثورة الجديدة، ويتحدث، بأسلوب موسوعي شامل، عن التغيرات الجذرية التي طرأت بعد الثورة المزدوجة على البنية الطبقية والتنظيم السياسي في أوروبا، والتحولات التي تجاوزت مجالات الصناعة والاقتصاد والسياسة لتشمل الجوانب الأيديولوجية (بما فيه الدين والنزعة العلمانية)، ثم العلوم والآداب والفنون. ويمضي بنا هذا الكتاب ليضعنا على أعتاب النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عندما كان هدير الموجة الثانية من الثورات يتصاعد من أعمق أعماق الأرض في الممالك الأوروبية كافة، توطئة للانفجار العظيم عام ١٨٤٨م.

وعصر الثورة، شأنه شأن عصر رأس المال وعصر الإمبراطورية، له جدارته وأهميته، كما أن له قيمة معرفية لا حدود لها. بيد أن له لدى القارئ والباحث والدارس العربي قيمة متميزة، لسببين على الأقل.

يتجلى الأول في حرص المؤلف على استعراض الآثار والتداعيات التي انداحت على بقاع العالم الأخرى، وبخاصة على المنطقتين العربية والإسلامية، جراء الثورة الفرنسية، والثورة الصناعية، وحملات نابليون، والتوسع الاستعماري الأوروبي، وبدايات التفاعل

ولد هوبزباوم في الإسكندرية عام ١٩١٧ لأب بريطاني وأم نمساوية. وانتقل إلى فيينا بعد وفاة والده ليعيش مع والدته، ولمتابعة دراسته في برلين. واضطر للرحيل إلى بريطانيا عام ١٩٣٣

كتاب الزاوية

فى العبودية المختارة

كفى سيد واحد، ملك واحد

بهذه الكلمات خطب أوليس القوم فى هوميروس. ولو أنه وقف عند قوله: كثرة الأمراء سوء، لأحسن القول بما لا مزيد عليه. لكنه حيث وجب تعليل ذلك بالقول بأن سيطرة الكثيرين لا يمكن أن يأتى منها الخير مادامت القوة المسندة إلى واحد، متى تسمى باسم السيد، صعبة الاحتمال منافية للمعقول راح يعكس الكلام، فأضاف: كفى سيد واحد، ملك واحد.

بيد أن أوليس ربما وجبت معذرته إذ لم يكن له مفر من استخدام هذه اللغة حتى يهدئ ثورة الجيش مطابقًا بمقاله المقام بدل مطابقة الحقيقة. فإن وجب الحديث عن وعى صادق فإنه لبؤس ما بعده بؤس أن يخضع المرء لسيد واحد يستحيل الوثوق بطبيعته أبدًا مادام السوء فى مقدوره متى أراد. فإن تعدد الأسياد تعدد البؤس الذى ما بعده بؤس بقدر ما نملك منهم. وما أريد فى هذه الساعة طرق هذه المسألة التى كثر الجدل فيها: إذا ما كانت أشكال الجماعة الأخرى تفضل حكم الواحد.

فأما الآن فلست أبتغى شيئًا إلا أن أفهم كيف أمكن هذا العدد من الناس، من البلدان، من المدن، من الأمم أن يحتملوا أحيانًا طاغية واحدًا لا يملك من السلطان إلا ما أعطوه ولا من القدرة على الأذى إلا بقدر احتمالهم الأذى منه، ولا كان يستطيع إنزال الشر بهم لولا إيثارهم الصبر عليه بدل مواجهته. إنه لأمر جلل حقًا وإن انتشر انتشارًا أدعى إلى الألم منه إلى العجب أن نرى الملايين من البشر يخدمون فى بؤس وقد غلت أعناقهم دون أن ترغمهم على ذلك قوة أكبر بل هم «فيما يبدو قد سحرهم مجرد الاسم الذى ينفرد به البعض».

الثقافى والعلمى والسياسى الحديث بين العرب وأوروبا.

أما السبب الثانى، فهو ما يؤكد هوبزباوم فى المقدمة التى وضعها خصيصًا لهذه الترجمة العربية لكتاب عصر الثورة وللسفرين الآخرين اللذين سيصدران بالعربية تباعًا فى هذه السلسلة. فمنذ القرن السابع للميلاد، وعلى مدى ألف عام، كان «الغزاة» يداهمون أوروبا من الشرق لا من الغرب. وعلى الرغم من أن التبادل التجارى كان موصولاً بين الطرفين، إلا أن التحولات المثيرة فى أوروبا منذ اندلاع الثورتين الفرنسية والصناعية قد عكست اتجاه الغزو. فمع توسع الأوروبيين الاقتصادى والعسكرى، تصاعدت فى أرجاء العالم الإسلامى دعوات تذكى روح المقاومة للغزو الأجنبى، وتحض على الإصلاح الداخلى والتحديث فى آن معًا، وذلك ما سيتطرق له هوبزباوم بمزيد من التفصيل فى كتابيه الآخرين: عصر رأس المال وعصر الإمبراطورية.

تزك إريك هوبزباوم بصماته الفكرية والمنهجية على علم التاريخ الحديث، وأسهم إسهامًا كبيرًا فى تطوير أساليبه وتوسيع آفاقه. وقد حقق إنجازاته فى هذا المجال فى أجواء أكاديمية أوروبية لا ترحب، بالضرورة، بأمثاله من المفكرين، بل تواجههم بالعزوف أحيانًا، بل بما يشبه العداء فى أحيان أخرى. إلا أن هوبزباوم، على الصعيدين المنهجى والموضوعى فى كتابة التاريخ، كان ولا يزال موضع احترام وتقدير كبيرين فى الأوساط العلمية كافة.

ومقابل هذا الاحترام والتقدير لإنجازه العلمى، عانى هوبزباوم الكثير بسبب آرائه السياسية، فعلى سبيل المثال، تأخرت ترقيته الأكاديمية إلى رتبة أستاذ حتى العام ١٩٧٠، على الرغم من إنتاجه العلمى الرصين وقيامه بالتدريس لمستويات جامعية متقدمة أكثر من عقدين.

ولايزال هوبزباوم يواجه حتى اليوم صنوفًا شتى من النقد لا شأن لها بالنزاهة الأكاديمية أو الأمانة العلمية. وتصدر هذه الانتقادات لأسباب واعتبارات سياسية فى التحليل الأخير، ومن مصدرين قد يبدوان متعارضين فى الظاهر، إلا أنهما يتقاطعان ويلتقيان فى أكثر من ناحية.

المصدر الأول هو بعض الأوساط الفكرية اليمينية والليبرالية التى تأخذ على هوبزباوم اعتناقه للشيوعية منذ شبابه ورفضه الانسحاب من الحزب الشيوعى رغم شجبه للمواقف السوفيتية أكثر من مرة. ويأخذ عليه البعض كذلك أنه لم يندد «بما فيه الكفاية» بفظائع ستالين فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضى. وتتلخص حجة هوبزباوم ضد هذه الانتقادات بأن الحركة التى انتمى إليها هى التى أدت، فى المقام الأول، إلى اندحار الفاشية والنازية فى أوروبا. ويضيف أنه لا يستطيع، على الصعيدين الشخصى والإنسانى، أن يتنكر لماضيه النضالى، لأن كثيرًا من رفاقه ضحوا بأنفسهم وقضوا نحبهم - وعلى أيدى رفاقهم أحيانًا - فى سبيل قضية شريفة ومثل عليا. وهو لا يستطيع أن يضرب عرض الحائط بما قدموا من تضحيات. وقد اتسعت الفجوة بين هوبزباوم وهذا الفريق من النقاد بعد انهيار نظم الحكم الشيوعية فى روسيا وأواسط أوروبا، وتزايد معارضته للسياسة والهيمنة الأمريكية فى الساحة الدولية.

أما المصدر الآخر للنقد الموجه إلى هوبزباوم فإن دوافعه السياسية لا تخفى على أحد، فهو، باعتباره مفكرًا علمانيًا وتقدميًا بالدرجة الأولى، يحمل منذ زمن موقفًا معروفًا ومشهودًا من إسرائيل والصهيونية؛ وخلال السنوات الأخيرة، أدى تشدده فى موقفه من إسرائيل إلى تعاظم الحملات الصهيونية ضده. ففى لقاء مطول أجرته معه صحيفة «الأوبزرفر (observer) البريطانية فى سبتمبر/ أيلول عام ٢٠٠٢، يقول هوبزباوم بمنتهى الصراحة والوضوح: «لم أكن صهيونيًا قط، ولكن بعد أن قامت إسرائيل واستقر فيها اليهود، لم تعد فكرة إزالتها وإزالتهم واردة. ولم أكن أبدًا من الداعين إلى تدمير إسرائيل أو إذلالها. نعم، إننى يهودى، ولكن ذلك لا يعنى أن على أن أكون صهيونيًا ولا مؤيدًا بأى شكل من الأشكال للسياسات التى تنتهجها الآن حكومة إسرائيل. وهى سياسات كارثية شريرة؛ إنها سياسات ستؤدى بطبيعتها إلى التطهير العرقى فى أراض محتلة، والسياسات الرسمية للأحزاب اليهودية التى تحكم إسرائيل الآن تعتبر منطقتى اليهودية والسامرة جزءًا مما أعطاه الله للإسرائيليين، وأعتقد اعتقادًا جازمًا أن على اليهود أن يقولوا إن بوسع المرء أن يكون يهوديًا دون أن يكون مؤيدًا لإسرائيل».

وبين هذا الفريق من النقاد وذاك، يمضى إريك هوبزباوم قدمًا فيما تبقى من أيامه الحافلة بالإنجازات العلمية والفكرية والمواقف السياسية. ويظل، فى كل وقت، يردد عبارته المشهورة: «لقد أنجزت ما أنجزت دون أن أقدم أية تنازلات أو أساوم على الإطلاق». ■

فى البحث عن مصر

أنور عبد الملك

البحث عن مصر فى مطلع هذا القرن الجديد، ستون عاماً بعد أيام الثورة المصرية عام ١٩٤٦، يصطدم بجو غامض يطرح بعناد سؤالاً ملحاً: لماذا الضياع؟ من نحن؟ وإلى أين؟ إن التنقيب عن الظاهرة المصرية فى عالم اليوم، يتم فى مطلع مرحلة تغيير العالم وبدايات صياغة عالم جديد، بدأنا نستشعر خطاه بقوة وإيقاع يتزايدان بشكل لافت، من آسيا الشرقية إلى أمريكا اللاتينية، مروراً ببزوغ حماس، وإصرار المقاومة فى العراق وفلسطين على كسر العدوان، وكذا وقفة إيران الشامخة المصرة على السيادة والعزة.

لسنا وحدنا فى القرية الواحدة، التى يقولون إنها حلت محل الأمم والقوميات والثقافات والحضارات فى عصر «نهاية التاريخ». لسنا وحدنا - بطبيعة الأمر - ولكننا، معشر الناس اللى تحت - المطحونين - وكذا الناس اللى فوق أدعياء الريادة، نستشعر شيئاً غامضاً وكأننا وحدنا، أو لعلنا فى متاهة. وفى هذا الجو، تتصاعد مفاهيم وعبارات هذه المرحلة المظلمة المعاصرة من تاريخ الوطن، ومن بينها «الضياع» و«التوهان» و«فقدان الاتجاه». الحزن يعم، يجمع قلوب الشعب. بينما قالوا إن الشعب مفكك لا يجتمع على شىء اللهم إلا الانتفاع. ثم، تأتى ساعات الفوز فى كأس الأمم الأفريقية ٢٠٠٦، وإذا بنفس الشعور العارم يجمع قلوب المصريين. عب الأمة إذن بخيره لم يفرط فى صدق مشاعره، رغم تباين الأحداث، ما زال يتجاوب بشكل جماعى بكل ما يصيب الأمة أو يفرج عنها، مؤكداً بذلك أنه حقيقة، كما كان دوماً «بيت من لحم»، وهى العبارة التى وصف بها مصرنا رائد القصة المصرية فى القرن العشرين يوسف إدريس، فى كلمات لا نذكر أنها وردت فى وصف الشعوب الأخرى. وكأنها وقف على سلالة بناة الأهرام والكرنك حتى السد العالى.

موجات التوهان - أو بعبارة أدق: التتويه - أغرقت جريمة العبارة السلام ٩٨ بعد سلسلة العبارات وعلى متنها ألف من المصريين الضحايا. ومن قبلها مسلسل احتراق قطار الصعيد؛ ومسرح بنى سويف - ضحايا الفوضى المجتمعية العارمة الناتجة عن تفكيك المجتمع المصرى، وانصراف الدولة عن مسئولياتها المركزية فى كافة مجالات حياة الشعب منذ ١٩٧٣ لا سؤال عنها ولا إدانة ولا عقاب، دعنا من المحاسبة السياسية - بينما يتحول انتصارنا فى كأس أفريقيا إلى ما يشبه الملحمة، يحتفل بها الإعلام، بل وحتى مجلس الشعب، كما لو كان حقيقة عبوراً ثانياً بعد عبور أكتوبر.

العالم يتغير على عدة محاور، وكلها تتشابك فى اتجاه رفع شأن الأمم والشعوب المهمشة منذ نظام القطبية الثنائية الغربية عام ١٩٩٠؛ بينما تضعف مكانة دولة الهيمنة التى فقدت القسط الأكبر من تأثيرها المعنوى واحترام العالم فى مسلسل التعذيب والعجز العسكرى والتراجع الاقتصادى تحت وطأة الديون.

مصر فى قلب العاصفة. ما دام التحول عملية جدلية تاريخية حائلة لا تعرف السكون ولا السكينة. ورغم هذا يسود فقدان الاتجاه ويعم التوهان، بل وتعود السلبية السياسية إذ يشتد الحصار بغية إجهاض الحراك الشعبى الوطنى الذى هز أركان الظلم والطغيان فى مصر عام ٢٠٠٥، ولفت أنظار العالم أجمع إلى طاقات شعب مصر الهائلة من أجل الاستقلال والحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والشعوب.

كيف يكون البحث عن مصر - إذن - فى قلب هذه الأوضاع الغامضة المتردية؟ أفلا يجدر بنا - أولاً وقبل كل شىء - أن نسعى إلى البحث عن أسباب هذا الركود، بل والتردى الذى كاد يصل إلى درجة الاختناق؟ وإن كان الأمر كذلك من حيث المنهج العقلانى المعمول به فى الديار، وكذا بين الأمم، يصبح لزاماً علينا أن نتساءل بإصرار، الموجة تلو الموجة من مستويات التساؤل: كيف يمكن الوصول إلى الجذور بوصفها الأسباب التكوينية لما تحياه مصر اليوم؟ المنهج العقلانى المعروف بين الناس إنما هو: الرجوع إلى تاريخ تطور مجموعة العوامل التى صاغت الموقف الحاضر؛ إذ تكشف لنا المسيرة التاريخية كيف تمت صياغة هذه العوامل التكوينية، وعبر أية قنوات حفرت مسيرتها، بحيث أصبحت قاعدة واقعية مؤثرة لما نشهده ونحياه اليوم.

المسيرة التاريخية، وكذا الصياغة التاريخية تقتضى أن يعى الباحث - ومن حوله عموم الناس - كيف كانت الأمور، وأين كانت بؤر التلاحم، وكذا أسباب التفجير؟ ثم ما هى القوى والعناصر الفاعلة عبر المسيرة التاريخية المعاصرة؟ أسئلة واجبة، ومنهج قويم دون جدال، وإذا به يقودنا إلى ساحة واسعة من بهتان المعالم، وضياع ذاكرة التاريخ، وتقطع المسيرة الجدلية للمجتمع والأمة منذ عدة عقود. وكأننا - إذ نبحث عن التوهان والضياع - نصل إلى ساحة متقطعة تكاد كبرى معالمها أن تنزوى، بينما تظل عوامل تكوينية أخرى مهمشة أحياناً إلى حد التغييب.

البحث عن مصر فى هذه المرحلة القاسية يجعل لزاماً علينا إذن - أولاً وقبل كل شىء - أن نعى من وكيف كنا؟ وكيف ولماذا تم التحول إلى ما نحن عليه؟ أى الإجابة على السؤال الذى طرحه المفكر الوطنى الرائد الدكتور جلال أمين فى كتابه الفاتح عام ١٩٩٨: «ماذا حدث للمصريين؟».

من هنا - إذن - نبدأ تدوين هذا المدخل المتواضع لمسألة الوطنية فى وطننا المصرى فى مطلع القرن الواحد والعشرين، وعلى وجه التحديد فى بداية شتاء عام ٢٠٠٦.

مصر فى قلب العاصفة.
ورغم هذا يسود فقدان الاتجاه
ويعم التوهان. بل وتعود السلبية السياسية
إذ يشتد الحصار بغية إجهاض
الحراك الشعبى

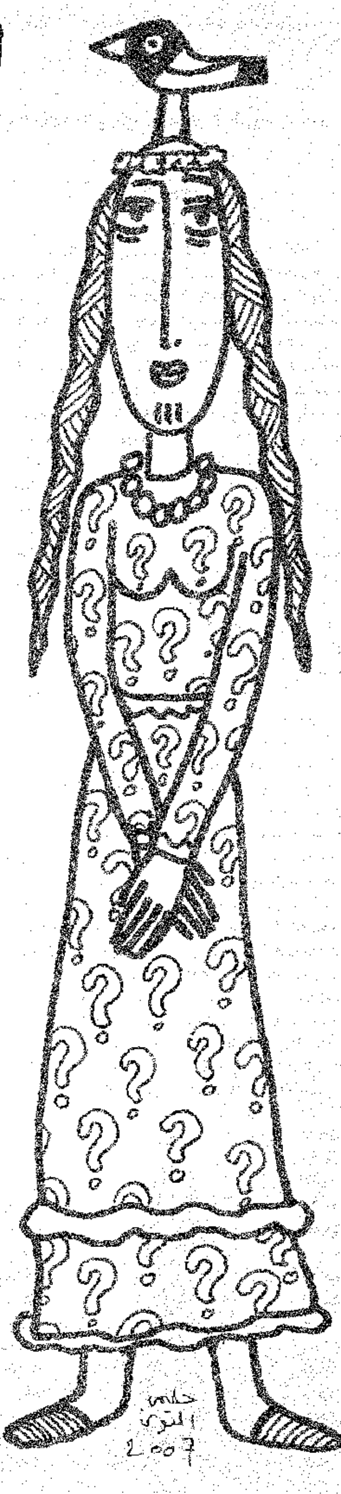
فبراير ١٩٤٦ - ستون عاماً

ستون عاماً مضت على وقفة شباب مصر يوم ٢١ فبراير عام ١٩٤٦ يعلن الثورة الوطنية الشعبية ضد الاحتلال والتبعية والانكسار. ستون عاماً مضت على علامة سنة ١٩٤٦، تجمعت فيها خيوط الفكر والعمل على اتساع الحركة الوطنية كلها أو تكاد، متخذة شكل الجبهة الوطنية المتحدة بقيادة شباب مصر من الطلبة والعمال، وفى مقدمتهم طلائع مختلف فصائل الحركة التقدمية المصرية، حول الحركة الشيوعية المصرية، وشباب الوفد، واتحادات نقابات عمال مصر.

ستون عاماً مضت على بدء ثورة مصر التى استطاعت أن تشل سياسات حكومات الأقلية والتبعية فى عصر الاحتلال، وفتح الطريق أمام قيادة شعبية وطنية تقدمية كان فى مقدورها أن تحقق برنامج «أهدافنا الوطنية» الذى وضعه شهدى عطية الشافعى، وعبد المعبود الجبيلى من قاعدة «دار الأبحاث العلمية»، وهى المبادئ التى ألهمت حركة «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» من انتخابها فى فبراير سنة ١٩٤٦، حتى حلها مع جملة الصحف ودور النشر والنوادى الثقافية والسياسية الوطنية يوم ١٠ يوليو ١٩٤٦ بقرار إسماعيل صدقى باشا رئيس الوزراء، رئيس اتحاد الصناعات آنذاك، الذى رأى فيها ما أسماه «المؤامرة الشيوعية الكبرى»؛ وهو الاتهام الذى رفضه قضاء مصر بشكل حاسم.

من ١٠ يوليو ١٩٤٦ الذى استهدف الطليعة الثورية للحركة الوطنية إلى حريق القاهرة على أيدى تنظيمات ظلامية، وفى غياب المسئولين المتعمد فى ذلك اليوم الأسود، يوم الجمعة ٢٦ يناير ١٩٥٢، تم تقسيم فلسطين العربية بقرار الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة فى ديسمبر ١٩٤٧، واندلعت حرب فلسطين الأولى التى مكنت العصابات الصهيونية المسلحة المدعومة من الغرب من إقامة الدولة اليهودية على أرض فلسطين بعد طرد معظم سكانها الأصليين. هكذا اكتمل مخطط تقويض أركان الحركة الوطنية المصرية وطليعتها الثورية على أيدى الإمبريالية

لماذا التوهان؟



والصهيونية مع الرجعية المحلية بعد الحرب العالمية الثانية - ضربة وجهت إلى قلب العالم العربى والشرق الأوسط ودائرة المتوسط من المغرب إلى جنوب غرب آسيا على حدود إيران - الهند.

وقد تلا هذه الضربة الاستباقية الكبرى بعد الحرب العالمية الثانية اندلاع موجة من الانقلابات أدت إلى قيام أنظمة بقيادة قطاعات ثائرة من القوات المسلحة فى مصر وسوريا والعراق والأردن واليمن والسودان، مصحوبة بظهور موجة الوحدة العربية خاصة بقيادة حزب «البعث» وحركة «القوميين العرب»، بينما اتسع انتشار الإسلام السياسى - بدءاً من حركة الإخوان المسلمين فى مصر - بين القطاعات الشعبية على اتساع ساحة العالم العربى.

حريق القاهرة، عاصمة المحروسة أم الدنيا، كان فى حقيقة الأمر إحراق الثورة المصرية فى الصميم. استمرت مصر، وكذا استمرت محاولات فتح الثغرات وشق قنوات تواصل الثورة رغم تردى الأوضاع بشكل جذرى. وبالفعل - ورغم شهور الأحكام العرفية بدءاً من حريق القاهرة - استطاع تنظيم «الضباط الأحرار» أن يحقق انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢، معلناً بدء الثورة، ثم - وعلى التوالى - إلغاء أو تغييب تاريخ الثورة المصرية قبل حريق القاهرة، ثم تغييب تاريخ مصر منذ تولى محمد على منذ ١٨٠٥، حتى يوليو ١٩٥٢، واصفاً هذه المرحلة بأنها «العهد البائد» ثم تتالت موجات إقصاء تاريخ مصر بدءاً من بهتان التاريخ الحديث منذ الفتح الإسلامى حتى محمد على، ثم إلغاء مرحلة مصر القبطية إلى حد تغييب ٥٠ قرناً من حضارة مصر الفرعونية الشامخة، إلى أن تصاعدت مفاهيم العروبة والأمة العربية والقومية العربية حتى زال اسم «مصر» منذ الوحدة مع سوريا عام ١٩٥٨ حتى نهايتها عام ١٩٦١، وقد تحولت أم الدنيا إلى «الإقليم الجنوبى».

عملية تاريخية شديدة التناقض جمعت بين القضاء على الطبقة الوسطى المصرية بكافة أجنحتها السياسية ومدارسها الفكرية، وكذا كبرى المؤسسات الوطنية، بل وإعدام القياديين النقابيين الشهيدين الخميسى والبقرى دون ذنب فى خريف ١٩٥٢ من ناحية، مع إنجازات وطنية كبرى بدءاً من تأميم قناة السويس حتى إقامة صرح صناعة شامخة وقوات مسلحة استطاعت أن تتخطى نكسة ١٩٦٧، حتى جاء يوم عبور أكتوبر عام ١٩٧٣، وفى قلب هذا كله بناء السد العالى الذى ضمن استمرار حياة المصريين صيفاً شتاء، وأتاح لمصر الطاقة والكهرباء وانتظام الزراعة - عملية هائلة اتسمت بالجمع بين الإنجازات الشامخة وتفتيت طاقات الثورة المصرية المتقدة قبل حريق القاهرة، خاصة فى مجالات العلم والتعليم وتكوين الكادر رفيع المستوى. المجتمع المصرى كان من حقه أن يصبو إلى النهضة. وفى قلب هذا كله ترتفع قامة جمال عبد الناصر الذى شهدنا له يوم وفاته بأنه «الباعث المطعون لمصر الناهضة»، والذى كان وسيظل رمز ثانى كبرى محاولات إقامة معانى القوة والتحديث لوطننا المصرى بعد المحاولة الكبرى الرئيسة الأولى التى قادها محمد على لتحقيق نهضة حضارية شاملة فى مطلع القرن التاسع عشر، أكثر من نصف قرن قبل صحوة كبرى دول الشرق الحضارى فى اليابان والصين وإيران وتركيا، والهند، وهو ما غيبته ثقافة الأمية وإعلام احتفاليات العلاقات العامة عن وجدان شعبنا المصرى.

إذن: من أين التوهان؟ كيف نفسر حالة الركود، الجمود، هذا المزيج المحبط من العجز والضياع وانعدام الرؤية؟ فى محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات الحيوية المصيرية بالنسبة للوطن الجريح المحاصر تحتاج إلى جهد جماعى لطلائع الفكر والعمل المنغمسة فى إيقاع الشارع المصرى، والمستشعرة بالتالى لمعاناته وأحلامه الدفينة. ولعل واجب الانضباط وكذا التواضع يجعل لزاماً علينا أن نركز أضواء التحليل الكاشفة على عدد من المحاور - الداخل - بحيث يمكن أن نتقدم بخطى حثيثة دون تردد وكذا دون مصادرة من جوهر المسألة المصرية فى هذا القرن الجديد الذى نحياه، والذى هو أيضاً اللحظة التاريخية لانتقال نظام العالم من أجيال المركزة الغربية منذ القرن السادس عشر حتى منتصف القرن العشرين إلى نظام عالمى جديد بدأ يمسك فيه الشرق الحضارى بمفاتيح المبادرة التاريخية، وقد كاد الإجماع يتحقق حول إدراك أن مركز هذه المبادرة التاريخية بدأ من دائرة الأطلنطى إلى دائرة الصين - المحيط الهادى.

من أين التوهان؟ كيف نفسّر حالة الركود، الجمود، هذا المزيج المحبط من العجز والضياع وانعدام الرؤية؟

المكان، ثم اللحظة التاريخيّة

المكان مألوف. ما دام هو الذى يحيا شعب مصر فى رحابه منذ القدم. ولكنّما تحديد خصوصيته تجلى بشكل ساطع على أيدى أجيال متعاقبة من مفكرى مصر وعلمائها منذ صحوة مصر فى عصر محمد على حتى عبور أكتوبر ١٩٧٣: يذكر الوطنيون فى بلادنا سجلا حافلا: إبراهيم باشا، سليم حسن، حسين فوزى، صبحى وحيدة، إبراهيم عامر، حتى جمال حمدان، الذى توج المسيرة بعمله الموسوعى «شخصية مصر، دراسة فى عبقرية المكان». «مصر هبة النيل» كما أدركها كبير مؤرخى اليونان هيرودوتس فى القرن الخامس قبل الميلاد. ولكنّها - وفى الوقت نفسه - تتواجه فى تقاطع قارات ثلاث (أفريقيا، أوروبا، آسيا) وتلاقى دائرة المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط مع المحيط الهندى والمحيط الهادئ عبر البحر الأحمر. ثمّ فوق هذا أو ذاك كانت مهد فلسفة التوحيد والإيمان بالحياة البعدية منذ أخناتون وكتاب الموتى، ومن أرضها وفى دائرتها انطلقت الأديان السماوية الثلاثة منذ موسى وإبراهيم على أرض سيناء، ثمّ عيسى المسيح من أرض فلسطين، ثم محمد رسول الإسلام من قلب الجزيرة، عليهم جميعا السلام.

وهكذا أصبحت مصر - من حيث عبقريّة المكان. تقع اليوم فى قلب منطقة تلاقى المسيحية فى الغرب أساسا، والإسلام من المغرب إلى جنوب آسيا، حيث تلتقى الدائرة الإسلامية بدائرة الحضارة الصينيّة الكونفوشيّة.

ما قبل «النظام العالمى» - وما بعده

ما قبل وما بعد هذا النظام العالمى غير واضح فى أذهان شعوب العالم العربى. خمسون قرنا قبل الميلاد قامت حضارة مصر الفرعونيّة الكبرى من ناحية فى توازٍ مع الحضارة الفارسية العظيمة على جوار حضارة ما بين الرافدين. هذا بينما احتلت الحضارة الصينيّة نفس المقام فى دائرة شرق آسيا. ضعفت حضارة مصر الفرعونية، وتشعبت حضارة ما بين النهرين، بينما انطوت الحضارة الفارسيّة مؤقتا. هذا بينما برزت حضارة يونان فى القرن الخامس قبل الميلاد، ثم تلتها إمبراطورية روما العظيمة على الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط. وانطلقت جيوش الإسكندر وقيصر إلى مصر والشام وبلاد الفرس والهند والسند. وقد تلتها موجة توسع إمبراطوريّة روما المسيحيّة الكاثوليكية فى أوروبا الغربية، حتى دخلت القارة الأوروبية فى «العصور السوداء» بين انحدار إمبراطوريّة روما حتى عصر النهضة (من القرن الخامس حتى بداية القرن السادس عشر)، بينما انطلقت الرسالة المحمدية كالبرق منذ القرن السابع الميلادى حتى أصبحت ثانى أكبر دوائر الشرق جنبا إلى جنب مع حضارة الصين، وأقامت نهضة مشرقة فى الأندلس، واتجهت إلى قلب فرنسا حتى انكسار بواتييه عام ١٤٩٢ .

إلى هنا وهذه الأمور - أو بعضها - مألوف.

ولكنما الغموض يحيط ببزوغ بوادر قوى جديدة على الساحة العالمية منذ نهاية الحرب العالميّة الثانية. موجة الحركات والثورات والحروب التحريرية والوطنية فى الشرق، التى كان لمصر مكانة مرموقة فى ريادتها، جنبا إلى جنب مع الصين وإندونيسيا وبورما والهند وكمبوديا وغانا خاصة وهى الحركة التى أعلنت معالم العالم الجديد فى مؤتمر باندونج الأفروآسيوى التاريخى فى أبريل ١٩٥٥، رافعة شعار المبادئ الخمسة التاريخية التى أعلنها شوانلاى رئيس وزراء الصين لأول مرة عام ١٩٥٤: مبادئ التعايش السلمى والاحترام التبادل لكل الدول فى حدودها، عدم التدخل فى شئون الدول الأخرى، عدم الاعتداء، التعايش السلمى خاصة..



لم تكن دائرة العالم الإسلامى والعربى فى منأى: قامت الثورات والحروب التحررية فى مصر والشام والجزائر والعراق واليمن، ثم إيران حول وجود جمال عبد الناصر وأحمد بن بيلا، وزعماء القوميين العرب والبعثيين فى سوريا والعراق، وكذا محمد مصدق، وآية الله روح الله الخمينى، وفى قلب الساحة القومية الثائرة كلّها انتفاضة شعب فلسطين الباسلة بقيادة ياسر عرفات. ساحة واسعة جمعت بين الطبقات الوسطى الوطنيّة وطبقات الفلاحين والعمّال يدا فى يد مع الجيوش الوطنيّة وطلائع الإسلام السياسى. أقام الغرب الدولة الصهيونية عام ١٩٤٨ فى قلب العالم العربى والإسلامى لتكون القاعدة الإستراتيجية والتكنولوجيّة لتكسر هذه الموجة التحريريّة الثوريّة تهددها ليل نهار بالسلاح النووى والاستراتيجى التكتيكى المتأهب. وما أن عبرت جيوش مصر وسوريا فى أكتوبر عام ١٩٧٣، حتّى انفرد الغرب باستمالة القيادة المصريّة إلى اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨، بداية انكسار الثورة فى عقر دارها، ومحاولة تغييب الدولة العربيّة الرئيسية لإضعاف التحرّك فى القلب، وقد تلا ذلك إثارة الحرب بين العراق وإيران، ثمّ الحرب العدوانيّة الأولى ضد العراق عام ١٩٩١، ثم - وبعد فرض الحصار الخانق على شعب العراق سنوات - انطلاق «حرب التدمير والترويع» الأمريكية، بإيعاز القوى الصهيونية المتمركزة فى قلبها، ومشاركة بريطانيا وبعض الحلفاء لتدمير قوى العراق الحيّة فى كافّة المجالات السياسيّة والعسكريّة والاقتصادية والثقافية، وتفتيت وحدته إلى دويلات عرقيّة مرتقبة - المخطّط الذى بدأ ينتقل اليوم إلى لبنان لمحاصرة سوريا الشقيقة، بهدف إجهاض قوة إيران الطالعة، بشكل مباشر. هذا بينما حدد المخطّط الإستراتيجى الأمريكى بالاستناد إلى منظمة حلف شمال الأطلنطى هدفا تاريخيا حضاريا بعيد المدى، ألا وهو: القضاء على بوادر صعود أى مركز عالمى جديد، بعد تفكيك الاتّحاد السوفيتى الأسبق، وذلك على ساحة «الكتلة الأرضيّة» الآسيوية تجاه أوروبا، وفى قلبها وفى طليعتها الصين الجديدة، ومن حولها دائرة آسيا الشرقيّة من سيبيريا وكوريا واليابان شمالا حتى إندونيسيا جنوباً.

مدخل إلى تغيير العالم

اللحظة التاريخيّة التى يحياها العالم فى مطلع القرن الواحد والعشرين الميلادى إنّما هى على وجه التحديد لحظة تغيير العالم، أى بداية تفكّك النظام العالمى القائم حتّى الحرب العالميّة الثانية منذ القرن السادس عشر، عصر المركزة الغربيّة حول أوروبا أولا، حتّى اتّساع الدائرة وانتقال مركز القيادة إلى الولايات المتّحدة من نهاية القرن الثامن عشر حتّى بداية القرن العشرين. وفى مقابل ذلك، وفى تداخل جدلى معه يزداد تشابكا وتوترا منذ سنوات صعود الصين - أو على حدّ تعبيرها «الصعود السلمى» لمجتمعها المتناسق - نصف قرن بعد صعود اليابان، وكذا صعود دائرة آسيا الشرقيّة وامتدادها إلى جنوب ووسط آسيا حيث يحيا ثلثا البشريّة، بشكل مطرد وبإيقاع متزايد لنسبة التنمية السنة بعد السنة، هذا بينما عمّت الصحوة القوميّة التوجه الاشتراكى الغالبية العظمى من ساحة وبلدان أمريكا الوسطى والجنوبية اللاتينية. وكذا تحاول أوروبا الغربيّة أن تحقّق صيغة من الوحدة تمتدّ من السوق المشتركة، إلى سياسة خارجية متميّزة إلى حد ما. وقد برزت روسيا القومية العريقة وريثة الاتحاد السوفيتى بقيادة بوتين بعد تفكك الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١، حتى بدأت تستعيد مكانة الدولة الكبرى مستندة إلى صحوة قومية عارمة، وإعمال ما تمتلك من موارد هائلة من النفط والغاز، وكذا الصناعات العسكرية، بينما تصاعدت أهمية دول وسطى فى الساحة الآسيوية. الأوروبية، وخاصة الهند وإيران وتركيا وألمانيا. هذا بينما انغمست القوى الضاربة العسكرية الأمريكية فى مستنقع العراق الدامى بفضل مقاومة شعبها وكوادر جيشها الباسل.

فهل يعقل - مثلاً - فى «أم الدنيا» أن يتساءل إنسان، وكذا الملايين من الناس: من نحن؟ وما هى شخصيّتنا؟ هذا السؤال المذهل يؤكد أن هنالك شيئا ما أصابه بالزلزال فى داخل النفوس.

أركان الشخصية، دوائر التحرك

ومن هنا يصبح لزاما علينا أن نسلط الأضواء الكاشفة على الثنائية المغمورة منذ عقود، ألا وهى: الشخصيّة من

فى البحـــث عـن مصـــر..

هل يعقل ـ مثلاً ـ فى «أم الدنيا» أن يتساءل إنسان، وكذا الملايين من الناس: من نحن؟ وما هى شخصيتنا؟

ناحية، والتحرك من ناحية أخرى؛ أى بوجه أدق: دوائر الشخصية المصرية، ودوائر التحرك المصرى.

الثنائية القائمة الآن بين الشخصية والتحرك ـ أو بالأحرى الخلط بين الشخصية والتحرك ـ تعود إلى عاملين يجب أن نواجههما بصدق وبدون مواربة.

العامل الأول هو: قرار قيادة الضباط الأحرار بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بتحديد هوية مصر بأنها عربية، وبأن الوطن إنما هو الوطن العربى، وكذا الأمة، بحيث اختلطت المفاهيم الثلاثة: الوطن، أى المجتمع القومى بوصفه الأمة المصرية؛ الدائرة الثقافية، وهى الدائرة العربية؛ والإطار الحضارى الأعم الذى يمكن أن يجمع بين أفريقيا والإسلام والدائرة الحضارية الشرقية الكبرى. وقد تأكد معنى مصر الوطن ـ الأمة من نهضة محمد على، وخاصة على أيدى عبد الرحمن الجبرتى، ورفاعة رافع الطهطاوى، ثم تأكد وتعمق بشكل مطرد، حتى حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢، فى عروة وثقى جمعت بين ولاة مصر، دون انقطاع، وخاصة إسماعيل وفؤاد وفاروق من ناحية، وقيادات الحركة الوطنية لثورات أحمد عرابى وصحبه عام ١٨٨١، ثم الحزب الوطنى فى مطلع القرن العشرين، ثم ـ وعلى وجه التخصيص ـ ثورة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ومصطفى النحاس، ثم الحركات الثورية فى منتصف الثلاثينيات بقيادة مصر الفتاة وطلائع الحزب الوطنى الجديد حتى الثورة الوطنية التحريرية فى الأربعينيات حول «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة». وقد التفت الأجيال المتتالية لشعب مصر حول هذا المعنى الرفيع، الذى لم يسمح أحد لنفسه أن يتشكك فيه على أرض الأهرامات والكرنك والدير البحرى، أرض النيل الخالدة، إذ تعرفت جماهير شعبنا على عمق أصالتها القومية الحضارية فى تمثال «نهضة مصر» الذى نحته الفنان العظيم محمود مختار بقلبه ووجدانه، فأقامته الدولة ـ رمزًا للوطن والأمة والحضارة ـ أمام مدخل جامعة فؤاد الأول ـ القاهرة، الأم.

كان ـ وما زال ـ من واجب مصر الأمة أن تحدد موقفها من العالم المحيط، ثم سلم أولوياتها فى دوائره المختلفة ـ أى فى كلمة ـ دوائر تحركها فى العالم، التى تتميز من حيث الطبيعة عن دوائر شخصيتها الحضارية كما صاغها تاريخها السبع ألفى المتفرد بين الأمم.

وبالفعل، حدد محمد على لدولة نهضة مصر أن تكون قاعدة بعث الحياة فى أركان دولة الخلافة العثمانية المتهالكة بغية تحقيق إحياء للحضارة الإسلامية فى مطلع القرن التاسع عشر، بينما أضاف إبراهيم باشا نجله وقائد جيوشنا بعد اللغة والثقافة العربية بعد أن أدرك أنه من واجب هيئة ضباط الجيش ـ ومعظمهم من سلالة الأتراك والشراكسة آنذاك ـ أن يتعلموا العربية لو أرادوا أن يستمروا فى مراكزهم ما دام جنود مصر وصف ضباطها من الفلاحين لا يعرفون إلا اللغة العربية كما تبين إبراهيم باشا فى حروبه على ساحة الشام الكبرى المتجهة صوب إسطنبول. وفى هذه الملحمة التى هزت أركان النظام العالمى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر لم يهتز مفهوم مصر الوطن ـ الأمة ـ بينما تأكدت دوائر تحركها إلى الساحة العربية والدائرة الإسلامية، وكذا الأفريقية التى عادت إليها تحركات الجيش المصرى.

واستمر الأمر على هذا النحو، من حيث التمييز بين أركان الشخصية ودوائر التحرك، أو بوجه أدق بين الشخصية من ناحية ودوائر التحرك من ناحية أخرى فى عصر ولاة وملوك مصر بعد محمد على.

وقد اختار سعيد ثم إسماعيل مثلاً دائرة البحر المتوسط وأفريقيا ثم أوروبا لتحتل مكانة الأولوية لتحرك مصر، بينما أعاد إليها كل من حكام مصر فى عهدى فؤاد وفاروق البعد الإسلامى الأوسع، إلى أن اتجه قادة حزب الوفد فى منتصف الثلاثينيات ـ محمد طلعت حرب باشا رئيس بنك مصر ومجموعة شركاته الكبرى، ثم مكرم عبيد باشا السكرتير العام آنذاك للحزب ـ إلى بعد الدائرة العربية الذى بلغ ذروته بإنشاء جامعة الدول العربية فى عهد مصطفى النحاس فى القاهرة عام ١٩٤٥.

دوائر ومحاور التحرك ـ إذن ـ تنوعت حسب خطط سياسة مصر الخارجية فى تعاملها مع المراحل المتتالية للنظامين الإقليمى والعالمى من ١٩٠٥ حتى ١٩٥٢.



ولكننا أحد لم يجرؤ فى طرح ازدواجية ـ أيًا كانت ـ لتعريف شخصية مصر، دعنا من تهميشها حتى التغييب.

ألم يلتفت الغافلون إلى المثل الرائع الذى ضربه مفكر مصر العبقرى فى موسوعته عن «شخصية مصر: دراسة فى عبقرية المكان»، وهو المعروف بتمسكه بالوحدة العربية ومكانة الحضارة الإسلامية فى عصرنا؟

ثم لماذا لم يتساءل عقلاء الناس عما يدور حولنا فى العالم المتحضر المعترف به؟ ماذا لو أطلق أنصار الوحدة الأوروبية فى فرنسا على وطنهم ـ حاشاهم الله ـ تسمية «جمهورية فرنسا الأوروبية» أو «الإقليم الغربى لجمهورية فرنسا الأوروبية»؛ أو مثلاً وبالإشارة إلى الجذور اللاتينية لعدد من لغات أوروبا (إيطاليا، فرنسا، إسبانيا، البرتغال، وكذا جزئيًا سويسرا... وبلجيكا وبريطانيا، وكذا مقاطعة كيبك فى كندا، بل وجميع دول أمريكا الوسطى والجنوبية اللاتينية) «جمهورية فرنسا اللاتينية» أو غير ذلك من التسميات التى قد تستفز ثورة الجماهير فى المدن والقرى الفرنسية بشكل كاسح؟ أو ـ مثلاً ـ: ماذا لو أطلق أنصار التحرك تجاه آسيا فى الصين لقب «جمهورية الصين الآسيوية» أو «الإقليم الشرقى لجمهورية آسيا المتحدة»؟

ومن دواعى التساؤل الجاد بعد أن انضبطت الأمور إلى حد ما أن يتساءل الناس اللى تحت، وكذا الناس اللى فوق: ماذا حدث فى قيادة ثورة مصر الوطنية بعد السويس والسد العالى، إذ تغلب بعد دوائر التحرك المصرى ـ وأولها العربية، ثم الأفريقية فالإسلامية ـ على حتمية تأكيد شخصية مصر بقبول تسميتها المتعارف عليها بين الأمم منذ بداية التاريخ بأنها «مصر» (كما هو الحال مثلاً فى اليابان) أو «جمهورية مصر الديمقراطية أو الشعبية أو الاشتراكية» كما هو الحال فى الصين وفيتنام. أو ـ وفى تعبير سلس لا غبار عليه ـ «جمهورية مصر» كما فى دستور (١٩٥٦) ما دام أن الذى تغير فى وصف مصر إنما هو انتقالها من النظام الملكى إلى النظام الجمهورى (وهل يذكر الآن أحد أن تسمية مصر الرسمية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت «مملكة مصر» كما هو الحال فى بريطانيا إلى اليوم.. إلخ؟). وقد يذكر أبناء الجيلين السابقين ـ وكذا المؤرخون ـ تلك المعارك المفتعلة التى أقامها بعض فقهاء الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين باسم ضرورة إقامة «إيديولوجية عربية» إلى حد إطلاق تسمية «الإقليم الجنوبى» على مصرنا المحروسة أيام «الجمهورية العربية المتحدة» بينما كان من الممكن الاحتفاظ بهذه التسمية لأعمال الدولة الاتحادية المركزية (مثل تسمية الاتحاد الأوروبى) فى حدود اختصاصاتها حسب دستور الوحدة مع الاحتفاظ بتسمية «مصر» أو «جمهورية مصر» جنبًا إلى جنب مع تسمية «سوريا» أو «جمهورية سوريا». وقد تناسى المسئولون عن هذا الخلط أنهم دفعوا بالآلاف من صفوة الوطنيين إلى المعتقلات لأنهم تمسكوا بشخصية مصر يدًا فى يد مع حتمية الوحدة العربية لمواجهة الاستعمار والصهيونية. ثم: هل نسينا ـ أو تناسينا ـ باسم من عبرت جيوش شباب مصر القنال فى أكتوبر ١٩٧٣؟ أفلم يكن اسم «أم الدنيا» المحروسة بإذنه تعالى هو الذى ألهم الأبطال المظفرين ـ أم ماذا؟

تفكيك القاعدة

الاقتصادية التاريخية

الموجات المتتالية لعملية ـ بل وما يمكن أن نسميه إستراتيجية ـ تهميش مصر إلى حد التغييب تحقيقًا لهدف تغلغل التوهان والضياع إلى نفوس المصريين لم تتحرك فى فراغ، بل تمت ـ وما زالت تدار ـ على أساس اهتزاز القاعدة الاقتصادية لحياة المصريين إلى حد التفكيك.

من تريف مصر..

حياة المصريين ـ عبر تاريخهم السبع ألفى ـ تمحورت حول النيل؛ ذلك أن النيل كان دومًا ـ وما زال ـ شريان الحياة بكل معانى الكلمة.

☞

انتقلت مصر من الاقتصاد الوطنى، إلى عصر السماسرة عملاء العدو، والاعتماد على المساعدات والمنح الأجنبية

النيل يروى أراضى الصعيد المحاصرة بين الصحارى والصخور، وكذا يتدفق لإثراء أراضى الدلتا الخضراء التى يجنى الفلاح حصادها ثلاث مرات كل عام، وهو رقم قياسى بكل المعايير. الأرض الزراعية تقيم حياة المصرى بشكل كريم، احتفلت به مصر الفرعونية، وما زال شعبنا حتى القرن الحادى والعشرين فى يوم شم النسيم رمز الثراء والسعادة والإشراق والتآخى لبنات وأبناء الوطن أجمعين.

ثم يتحول جزء من محاصيل الأرض - وخاصة القطن - إلى الصناعة التى تشعبت منتجاتها على أوسع ساحة من المأكولات الشعبية. استطاعت هذه القاعدة الصناعية التى بلغت أوجها فى عصر الأسر الفرعونية عبر عهود أسرها الثلاث - ثم محمد على، حتى مجموعة شركات بنك مصر، فالسد العالى والقطاع العام - أن تقدم سيلاً من الصادرات المعروفة بجودتها للأسواق العالمية. هكذا كانت ثلاثية الاقتصاد الوطنى المصرى عبر تاريخنا السبع الغنى، ترتفع قامته أو تتأزم حسب الضغوط الخارجية ونظم الحكم فى الداخل، ولكنها على الدوام أساس متين مترابط يؤمن فى آن واحد حياة المصريين وسيادة قرار دولتهم، أى مكانة مصر بين الأمم.

إلى أن تم عبور أكتوبر ١٩٧٣ يتحدى الإمبريالية العالمية وصنيعتها وقاعدتها العنصرية: الدولة الصهيونية فى منطقتنا. كان لا بد من ترقب الهجوم المضاد، وقد تم بالفعل فى اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨.

لم تتمركز، كما صورها الإعلام المنافق فى مجرد زيارة الرئيس السادات إلى القدس، ثم الاعتراف بالدولة الصهيونية التى يرفرف علمها على سفارتها فى القاهرة، بينما لا يمثل إيران وكذا العراق - حتى وقت قريب - إلا مكتبا تمثيل المصالح، وإنما كان جوهرها ومركزها العميق الدفين الإجرامى فى حق مصر إنما هو وقف الإنتاج المصرى، باستثناء الصناعات الخفيفة، تمهيدا لتفكيك القطاع العام واستبدال الإنتاج بالاستيراد، أى نقل السلطة المجتمعية من رأسمالية الدولة إلى جماعات رأسمالية رجال الأعمال السمسارية وكلاء الاحتكارات الإمبريالية والصهيونية.

هكذا انتقلت مصر من الاقتصاد الوطنى، قاعدة السيادة، إلى عصر السماسرة عملاء العدو، وانتقلت فجأة - إلى مصاف الدول المعتمدة على المساعدات والمنح الأجنبية السنة تلو السنة، حيث ارتفع الدين العام إلى أرقام خرافية، بينما تم تهريب عشرات البلايين من الدولارات إلى الخارج، وتصاعدت أبراج السماسرة الأثرياء الجدد، وازدادت معاناة الشعب العامل، بل والطبقة الوسطى، حتى بلغت الضيق والفقر بشكل لم تشهده مصر منذ عقود.

... إلى التصحير

وليت مأساة كامب ديفيد توقفت عند هذا الحد، وإن كان التحول لا يصلح قاعدة لاستقلال القرار والسيادة الوطنية. ولكنما علامة ١٩٧٨ السوداء جاءت بعد خمس سنوات مما أحدثه عبور أكتوبر ١٩٧٣ من زلزال فى الاقتصاد العالمى. ذلك أن دماء شهداء مصر وسوريا الأبطال فى حرب التحرير دفعت بالدول العربية المنتجة للنفط إلى رفع ثمن البرميل من ثلاثة ثم عشرين ثم ثمانية وعشرين دولارا بعد ١٨ أكتوبر عام ١٩٧٣، بينما تحول البترول العربى من سلعة راكدة تحت الصحارى إلى سلاح يتحدى استقرار فائض القيمة التاريخى بين أيدى دول الغرب الصناعية الكبرى، وهو الأمر الذى يتناساه بعماء لافت ملاك الآبار - ولو شكليا - بشكل يستفز العقلانية، مرة أخرى يهدف تغييب مكانة مصر مركزا للعالم العربى، وقطبا رئيسيا فى دائرة الحضارة الإسلامية إلى جانب إيران الشقيقة. تراكمت الثروات بشكل مباغت، وارتفعت إلى قمم قياسية فى الجزيرة والخليج، بينما انحسر الاقتصاد المصرى، وارتفعت البطالة إلى أرقام قياسية، ومن هنا جاء تدفق ملايين شباب مصر لكسب العيش فى دول البترول الثرية حتى بلغ عددهم أكثر من أربعة ملايين ونصف مليون فى السنوات الأخيرة. ارتفع دخل قوة العمل المهاجرة إلى أرقام ثم يغرقها أشقاؤهم على أرض الوطن من قبل، تدفقت تحويلات المصريين من دول البترول إلى مصر، بحيث لم يعد هناك منزل مصرى واحد لم يصله رافد كبير أو متواضع، أو أكثر من رافد من عوائد البترول، حسب قول المفكر الاشتراكى الكبير الراحل الأستاذ الدكتور فؤاد مرسى.



مرة أخرى جاء اعتماد قطاع واسع من المصريين فى قوت يومهم على تحويلات ملايين المهاجرين العاملين فى دائرة البترول العربى، مدخلاً يتسع يوما بعد يوم لنشر الأيديولوجية - السائدة فى صحارى الجزيرة والدول البنر إلى أرض مصر العطشى الزراعية - المدنية بعد أن دفعت بها شروط اتفاقية كامب ديفيد إلى الانحسار الاقتصادى وانتشار الفقر فى المدن والقرى من النوبة إلى ساحل المتوسط. هكذا دخلت أفكار وعادات الفكر السلفى إلى قلب المجتمع المصرى وانتشرت كانتشار النار فى الهشيم، وقد رحبت بها بادئ ذى بدء شخصية مصر المؤمنة، وطبيعة شعبها المضياف. وإن جاز التعبير، لم يعد المحمل يتحرك من ديار المحروسة كما فى شبابنا إلى أرض الحرمين، بل أصبحت تحويلات العمالة المهاجرة تنتقل من هنالك، ومعها منظومة متكاملة من الأفكار والتقاليد والمعاملات السلفية مثلت فى جوهرها ما يمكن تسميته بتصحير مصر، التى كانت وطن معان وقيم وعادات وتقاليد وممارسات المجتمع الريفى النيلى والحضارة المدينية من الإسكندرية إلى أسوان حول القاهرة المضيئة.

تداخلت إذن أمواج الأيديولوجية الاستهلاكية العدمية للعولمة الأمريكية الصهيونية وسادت قيم السوق محل قيم الوطنية. هذا من ناحية، بينما تغلغلت الأيديولوجية ومعها سلوك السلفية الرجعية إلى أعماق نسيج المجتمع المصرى تشارك فى محاولة خرف وجدان المصريين عن الوطنية المشتعلة دوما فى قلوبهم قاعدة للمواطنة والولاء الأوحد للوطن، لاستبدالها بمرجعية ولاء لدائرة حضارية أوسع تجتمع فى رحابها شعوب وأمم ودول متنوعة.

اهتزت القاعدة الاقتصادية بفعل تفكيك كوكبة الاقتصاد الوطنى. وتغلغلت أمواج الأيديولوجية العدمية وقد تشابكت بالسلفية الرجعية. هكذا اجتمع نسيج التوهان والضياع والانغلاق ينشر جو الإحباط واليأس والعجز على أرجاء وفى أعماق المجتمع المصرى، وتسوق ملايين الناس فى بلادنا إلى قبول العجز والتبعية والانبطاح إلى حد الخروج من التاريخ.

هكذا كانت - وما زالت - إستراتيجية العدو الحضارى لضرب أركان نهضة مصر بعد عصر الثورات والحروب، مستندة إلى تناقضات وثغرات والخطايا التاريخية لما تم ضد العقل المصرى وطلائعه منذ ١٩٤٥.

أهل الكفاءة، وأهل الثقة

إن كان تراكم هذا الزحف من موجات التفكيك والتغيير التى يشعر بها الناس فى أعماق قلوبهم قد بلغت هذا المدى المشين، يرتفع إلى الأفق تساؤل صارخ: أين الصفوة الفكرية قبل السياسية من هذه الأزمة الكبرى؟ كيف يمكن تفسير السكوت على التوهان والتغاضى عن التغييب؟ لماذا لم نر صفوف المثقفين والمفكرين، دعنا ممن يتصورون أنهم فى مقام المشاركة فى صياغة القرار، يمتثلون بالمفكر الرائد الدكتور جلال أمين - يكثفون الجهد لتعميق المدخل الذى حضره بلباقة نادرة سعياً لفهم «ماذا حدث للمصريين؟»، توهان؟ أو تشتت أفكار؟ أو تراض باسم الواقعية؟

إنصافاً للمثقفين المصريين وتاريخهم المشرف فى طليعة الحركة الوطنية المصرية على الدوام وحتى كامب ديفيد يجب إرجاع الأمور إلى نصابها. حريق القاهرة يوم الجمعة الحزينة ٢٦ يناير ١٩٥٢ على أيدى عصابات مجهولة - أو متجاهلة حتى الآن - فتح الطريق إلى انهيار النظام الملكى ومعه منظومة أحزاب الطبقة الوسطى المدينية، وكذا ملاك الأرض المتمتعين بالحكم منذ ثورة ١٩١٩ وبعد دستور ١٩٢٣. القيادة الجديدة بعد استيلاء «الضباط الأحرار» على الحكم صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ أعلنت منذ البداية أنها - وحدها - صاحبة القرار والسيادة والسطوة منذ الإقدام على إعدام الزعيمين النقابيين الخميسى والبقرى شنقا فى دمنهور دون أدنى جريمة اللهم

إلا قيادتهم لمطالب عمال مصر العادلة من قيادة جديدة أعلنت أنها جاءت لخدمة الشعب ضد الطغيان، حتى تقويض أركان الحركة الديمقراطية فى ربيع ١٩٥٤ وما صاحبها من حل جميع الأحزاب والمنظمات السياسية، والقضاء على جميع الصحف الحزبية والمستقلة، وحل مجلس الدولة العريق، ثم طرد أكثر من سبعين من كبار أساتذة جامعات مصر لإرهاب هيئات التدريس الجامعى وكسر شوكتها الاستقلالية. ثم بدء الحملة ضد الأحزاب والمنظمات السياسية من الشيوعيين إلى الإخوان المسلمين، والعمل المتصل لاستعمال التعذيب فى المعتقلات والسجون للقضاء على كوادرها. صفحة متصلة سوداء حققت الهدف المطلوب، ألا وهو القضاء على الطبقة الوسطى المصرية المتحضرة بكافة أجنحتها وتنظيماتها، وإحلال جماعات موالية للنظام الجديد. وقد تم ذلك فى جو محتقن ألهبته دعوة كتبة النظام الجديد الذين أعلنوا «أزمة المثقفين» بين ١٩٥٤ و١٩٦١، معلنين ضرورة الخيار بين «أهل الكفاءة» و«أهل الثقة»، مؤكدين أن على «أهل الكفاءة» ـ أى فئة المثقفين المصريين ـ أن يلحقوا بركب أدوات الحكم الجديد باسم الثورة.

هكذا بدأ عصر سيادة الجهالة والطغيان على الكفاءة وحرية الرأى والريادة الفكرية والسياسية. هكذا بدأ الطريق إلى تقدم آلاف مؤلفة من أنصاف المتعلمين وأدعياء ثقافة النقل وفكر التبعية إلى الصفوف الأولى بوصفهم «أهل الثقة»، يطردون إلى خارج دائرة المشاركة فى قيادة البلاد وإدارة شئونها كافة مدارس الفكر والعمل التى تخرجت من الجامعة المصرية الجريحة قبل ١٩٥٤، عندما كانت جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) إحدى الجامعات العشر الأولى بين ترتيب جامعات العالم، بينما تدحرجت جامعات مصر والعالم العربى إلى حد أنها خرجت جميعاً من قائمة الجامعات الخمسمائة الأولى فى العالم عام ٢٠٠٥. الطغيان، القضاء على أهل «الكفاءة» باسم العهد الجديد، أتاحا لفئة «أهل الثقة»، من أنصاف المتعلمين فى الريف والمدن على السواء يداً فى يد مع عصابات الأجهزة التنفيذية تملك مفاتيح القرار والإدارة، بل والثقافة والفكر. فى مجتمع كان يتحرك تجاه ثورة تحريرية ديمقراطية شعبية، وتنمية وطنية امتدت ـ رغم القمع ـ بعد ١٩٥٢، وخاصة بعد أن عادت قيادة جمال عبد الناصر إلى الجبهة الوطنية والتوجه الاشتراكى عام ١٩٦٥، ودخلت بذلك مرحلة الثورة الوطنية والاجتماعية بكل معانى الكلمة، ومن هنا كان لا بد من توقع ضربة مضادة جاءتنا على صورة حرب الأيام الستة الغادرة فى يونيو ١٩٦٧. والنكسة الكبرى بعد أن اتضحت خيانة وعجز قطاع كبير من القيادة التى استولت على مصائر البلاد. استمرت المسيرة الوطنية والاجتماعية الجادة، خاصة فى مرحلة حرب الاستنزاف بفضل كوكبة من قادة جيوش الشمس، وعلى رأسهم عبد المنعم رياض، حتى استطاع شباب مصر المحارب أن يعبر قناة السويس فى الساعة ١٤٠٠ من يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣، ويرفع ألوية الشرف المخضبة بدمائه العزيزة فوق خط بارليف المهدم على الضفة الشرقية من القنال تجاه تحرير سيناء.

ولكن تضحيات شباب مصر وجيشنا الوطنى، ما كان لها أن تلغى فى أسابيع قلائل من البطولة والذكاء الإستراتيجى والتكتيكى الخارق ربع قرن من تدمير الطبقة الوسطى المصرية ومؤسساتها. قاعدة تكوين الكادر السياسى والفكرى، الذى يمثل على الدوام وفى كل المجتمعات والعصور عصب المجتمع المؤهل لتحقيق مهام التعبئة الوطنية وحشد تراكم ميراث الأمة وقدرات المجتمع من «أزمة المثقفين» إلى انكسار كامب ديفيد عام ١٩٧٨. الطريق واحد وواضح، وحلت على جانبيه الدفوع محل الورود، بينما ارتفع شأن المنافقين حملة شعار «أنا المشروع، والمشروع هو أنا».

من أين إذن التوهان؟ وهل يمكن حقيقة كسر الانكسار والعودة إلى النور والأمل والعمل؟

هل انتهى المطاف؟ مطاف الاقتراب من حقيقة أسباب التغييب والتوهان: التوهان الذى يؤدى إلى التغييب، أو تغييب العالم الذى تسبب فى التوهان؟ هل وصلنا إلى جوهر الموضوع ونهاية المطاف؟ ■

فصل من كتاب:
الوطنية هى الحل
أنور عبد الملك
القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٧

كتـــاب الـزاويـــة

فى العبودية المختارة

قتال الأحرار والعبيد

ضع خمسين ألف رجل مدججين بالسلاح. وضع مثلهم بالجانب الآخر. دعهم يصطفون للمعركة ثم يلتحمون. بعضهم أحرار يقاتلون دفاعًا عن حريتهم والبعض الآخر بغية سلبهم إياها. ترى من تظنك تعد بالنصر؟ من تظن أنهم ذاهبون إلى ساحة القتال بخطى مقدامة؟ من يأملون الاحتفاظ بحريتهم جزاء على عنائهم أم أولئك الذين سواء كالوا الضربات أو تلقوها لم ينتظروا أجرًا عليها سوى استعباد الغير؟ الأولون يضعون دائمًا نصب أعينهم سعادة الحياة الماضية وتوقع نعيم يماثلها فى المستقبل ولا يفكرون فى القليل الذى تلزم مكابدته زمن المعركة بقدر ما يفكرون فيما سيفرض عليهم أبد الدهر، هم وأولادهم وجميع ذريتهم. فأما الآخرون فلا حافز لهم إلا وخز من الطمع لا يلبث أن يسكن أمام الخطر ولا يمكن أن يبلغ التهابه حدًا لا تطفئه أول قطرة من الدم تنض بها جروحهم. خذ المعارك المشهودة والتى مازالت تحيا فى صفحات الكتب وذاكرة البشر حتى اليوم كأن رحاها لم تدر إلا بالأمس على أرض الإغريق، من أجل الإغريق ومن أجل أن تكون مثلاً للدنيا قاطبة: ما الذى فى زعمك أعطى فئة قليلة قلة الإغريق إذ ذاك لا أقول القوة بل الجرأة على الصمود فى وجه أساطيل بلغ من حشدها أن ناء بثقلها البحر وعلى أن يدحروا أممًا بلغ من كثرتها أن كتيبة الإغريق بأسرها ما كان يكفى جنودها تزويد أعدائها ولو بالقواد ليس غير؟ ماذا سوى أن المعركة لم تكن فى هذه الأيام المجيدة معركة الإغريق ضد الفرس بقدر ما كانت تعنى انتصار الحرية على السيادة وانتصار العتق على جشع الاسترقاق؟

يبدأ المونتاج مع كتابة السيناريو حيث ينتقل الكاتب فى المكان والزمان وفى ذهنه إيقاع متخيل على الورق يتعامل معه المخرج.

قطع ولصق

أصابع نسائية سينمائية

صفاء الليثى

هل المونتاج مهنة تابعة أم إبداع خلاق؟

يعمل الدماغ البشرى عملا كبيرا فى تلقى المعلومات والتعامل معها، فبالنسبة لمركز الذاكرة يقوم بتخزين وحفظ وإعادة ترتيب المدخلات من خلال عدد كبير من العمليات الكهربية والكيميائية . وجدانيا فى الجانب المتعلق بالمشاعر والأفكار يشبه عمل المخ عمل المونتاج السينمائى إذ يقوم بإلغاء أجزاء وحفظ أجزاء أخرى وإخراج أشياء ثالثة. إنه يؤلف طبقا لمصالحه، احتياجاته، رغباته ودبلوماسيته، مخاوفه وحساباته، مرونته ومحاولاته للتوافق ... ولنتأمل أى فكرة تدور فى الرأس، تُقلب، يُعاد ترتيبها، يتم البوح بجزء منها، ويحتفظ أو يلغى أو يؤجل جزء آخر .. وهكذا، المخ يعمل بالفطرة والخبرة المكتسبة . وعن الإبداع يقول أحد العلماء أفوستيه Fustier « (يعمل الدماغ كآلة معطوبة قياسا على «الكومبيوتر» الدقيق جدا فى عمله، لكنه فى هذا العطب والذى هو نتاج التعقيد الكبير الناتج عن التراكم التاريخى للوظائف اللا متجانسة، يمتلك كل قوته الإبداعية أو المجددة ... فهو يعمل على أساس المحاولة والخطأ .وقدراته مبدعة - فهو قادر على إيجاد حل، واستراتيجية فهو قادر على دمج مجموعة من القرارات فى ضوء غاية أو هدف - ومجددة فهو قادر على القيام بتركيبات جديدة، وباختصار قادر على خلق النظام انطلاقا من الفوضى) .

وهذه الأعمال تحديدا تشبه إلى حد بعيد عمل المونتاج:

١ - المحاولة والخطأ وتشبه خاصية القطع واللصق ثم التراجع عنها «Undo».

٢ - القدرة على إيجاد حل بإعادة ترتيب المواد للخروج بمعان متنوعة .

٣ - القدرة على دمج مجموعة من القرارات فى ضوء غاية أو هدف لتحقيق المعنى الذى قصده المخرج والمؤلف ولتحقيق الفكرة الأساسية التى يهدف إليها العمل .

٤ - إمكانية التجديد بمعنى أن المونتاج يمكن من الإتيان بتركيبات جديدة وخلق معنى مختلف كل مرة .

القدرة على خلق النظام انطلاقا من الفوضى التى تمت بها عملية التصوير.

والمخ أو العقل فى وعينا التلقائى وفى اللغة العربية مذكر وفى أغلب اللغات التى تؤنث وتذكر مثل الفرنسية فهو مذكر أيضا Le Brain ، وإذا كنا سنتفق على عظمة وإبداع عمل المخ فيما يخص الذاكرة فيمكننا القول بثقة إن أعظم مونتير فى العالم ذكر .

الإبداع لا علاقة له بنوع صاحبه ذكر أو أنثى ولا بكل الفوارق الاجتماعية الأخرى- الدرجة العلمية كمثال -الفن لا يفرق بين حاملى الشهادات الذين درسوا أكاديميا وبين من تتلمذوا فى حقل العمل وتشربوا المهنة من فنانين أكبر من «أسطوات» أو من أساتذة، الفن إبداع حر غير مقيد بقواعد صنعها المحافظون من البشر .



المونتاج يعطى الشخصية حقها فى الانتقالات التى تكشف عن ملامحها وظروفها بالصورة أولا دون الحاجة لجمل حوارية.

هيبة المونتاج

بدأت السينما بتسجيل ما يحدث أمامها دون تدخل - تصوير الواقع - ثم استمر الرواد فى تطوير عملهم لكى تحكى السينما حكاية تنتقل فى الزمان والمكان وتستغرق مدة أطول من خزانة الكاميرا ٤٠ دقائق فى المعتاد - فظهرت الحاجة للمونتاج لأسباب ميكانيكية تطورت إلى أسباب درامية ثم ظهرت مدارس المونتاج الروسية والأمريكية وتحول المونتاج إلى فن خلاق أرسى قواعد الفن السابع وحدد له مقومات تختلف عن غيره من الفنون الستة السابقة. وفى مرحلة السينما الصامتة كانت محاولات التعبير فى تطور مستمر وظهرت إبداعات رائعة مازلنا نتمتع بمشاهدتها . والمونتاج كمهنة مكملة لعملية الإخراج ولنرباط العضوى مع السيناريو الذى يكتب لجمهور - عايز كده - يقوم بترسيخ هذه الأساليب ويتحرك طبقا لمفاهيم تقليدية تفرض تصورها وإيقاعها ومن هنا فأغلب الأعمال التى سنتناولها تعكس المفاهيم الفنية السائدة باستثناء تجربة «رحمة منتصر» مع «شحاذون ونبلاء» الفيلم الأول لأسماء البكرى .

من هنا فإن الحديث عن مونتاج خلاق لا يمكن فصله عن سيناريو مبتكر وإخراج بديع، وكلما كانت المادة المصورة ثرية ومتنوعة كلما ازداد دور المونتاج وبرز عمل المونتير الموهوب، ولكن مع فقر المادة المصورة وضعف مكوناتها، لا يمكن الحديث عن دور للمونتاج إلا فى البراعة - الشطارة - لتلافى العيوب وتغطيتها قدر الإمكان .

المونتاج لا يبدأ لحظة وصول المادة المصورة إلى طاولة المونتاج (الموفيولا، أو الكومبيوتر) بل يبدأ مع كتابة السيناريو الذى ينص على وسيلة الانتقال - القطع أو المزج - الكاتب ينتقل فى المكان والزمان وفى ذهنه إيقاع متخيل على الورق يتعامل معه المخرج وينفذه بعد تحليله وتفريغه إلى مواقع ومشاهد ولقطات وفريق تمثيل وفريق فنيين يضم مصورا ومهندس ديكور وآخرين يساعدون على تحقيق رؤية الكاتب والمخرج . وعادة يستغرق التصوير عدة أسابيع بينما تستغرق أعمال المونتاج والمكساج وطبع النسخ أى مرحلة التشطيب عدة شهور قد تمتد إلى عامين، مما يوضح دور المونتاج كحرفة تهدف لتجويد المنتج وأحيانا كفن خلاق يشعر به كل المشاهدين دون أن يتمكن غالبيتهم من تصنيف دور المونتاج أو الإخراج أو التأليف

والتى تتضافر جميعها لكى يصبح لدينا عمل جيد .

المقومات التى ينبغى توفرها لدى من يقوم بعمل المونتاج - رجلا كان أم امرأة - يمكن تلخيصها فى الآتى:

اولا: الفهم القائم على منطق الدراما المصورة وفن السينما .

ثانيا: الحس النقدى ليتمكن من اختيار أفضل الإعادات من بين المادة المصورة .

ثالثا: الإحساس بالإيقاع الذى يناسب وظيفة اللقطة ودورها مع غيرها من اللقطات للمحافظة على الإيقاع العام للفيلم . فلكل فيلم زمنه المتخيل فى ذهن صاحبه - المخرج - ويحققه المونتير بفنه وحرفته .

ذكورية المناخ

عند الحديث عن فن السينما يرشح الرجال المرأة للعمل فى المونتاج متحدثين عن الحساسية والقدرة على الصبر المعروفة لدى النساء بشكل أكبر فالمونتاج كما يرددون يتطلب صبرا وحساسية وقدرة على الابتكار . عمليا، كل هذه الملكات ليست حكرا على نوع دون آخر، فليس سعيد الشيخ بأقل حساسية من رشيدة عبد السلام وليست رحمة منتصر أقل إبداعا من عادل منير، ولا تتسم انتقالات منى ربيع بالنعومة بينما تتسم انتقالات خالد مرعى بالحدة وقد يكون العكس صحيحا، وسنتناول بالتحليل أسلوب عدد من فنانات المونتاج ذات اللمسات القوية والانتقالات الحادة الفتية جدا فى الحقيقة، فليس المونتاج الخلاق ناعما بالضرورة ويتطلب بالضرورة لمسة أنثوية . والأمثلة كثيرة على تفوق الرجال فى حقل المونتاج على مستوى مصر والعالم مثلما نسمع عن أساتذة طهى الطعام من الرجال على مستوى العالم .

والقول بأن المونتاج عمل يناسب الإناث أكثر يندرج تحت مفهوم النوع والقيم المجتمعية التى درجت على تقسيم العمل بحيث تحصر المرأة فى القيام ببعض الأعمال فى مقابل الحديث عن كفاءة الرجل فى كل المجالات . والمعنى أن فن المونتاج لا يرتبط بالضرورة بالمرأة ككائن بل يتطلب مهارات توجد عند البعض وتمتنع على البعض الآخر بصرف النظر عن نوعه ذكرا كان أم أنثى.

نعود لسؤال آخر هل المونتاج مهنة تابعة أم أنها إبداع خلاق؟ وهل بالمونتاج ملامح فنية خاصة بالمرأة؟ .. هذا ما تحاول هذه الورقة الإجابة عليه أخذاً فى الاعتبار أن هناك حاليا ١٠ نساء يعملن فى المونتاج، بينما لا تعمل فى الإخراج سوى ثلاث أو أربع على الأكثر .

المرة الأولى التى التقيت فيها «رشيدة» كانت تحتضن الموفيولا بجرمها الكبير، يمكنها كرسيها العالى من إحكام السيطرة على جهاز المونتاج وترويضه لتفرض إيقاعها على شريط الفيلم، كان الكرسى الذى تجلس عليه قد أعد خصيصا لها وهى حامل حيث أضاف لها عمال الاستديو قاعدة ترفعه ليستريح بطنها المنتفخ بالحمل على حديد الموفيولا. هذا المشهد بالإضافة لجلستها كما المعلم أمام الدكان تشرب قهوتها الصباحية قبل أن يهل الزبائن ويبدأ العمل . كان المشهد أكثر سحرا بالنسبة لى كطالبة مونتاج من كثير مما أدرسه فى المعهد من نظريات المونتاج الخلاق عند جريفث وايزنشتين ومدرسته بوتمكين .

كانت بكرات الفيلم تخرج إلى الصالة لمشاهدة نسخة العمل، أو ترسل لحجرة النيجاتيف ليتم تقطيع النيجاتيف أو توضع الشرائط فى صالة المكساج لعمل مزج الأصوات، والعمل دائر كما الفرن البلدى لا يتوقف ليل نهار مع أفلام يوسف شاهين، وحسين كمال ثم محمد عبد العزيز ومرة واحدة مع المخرجة «إيناس الدغيدى» فى ثالث عمل لها «قضية سميحة بدران».

وتبدو المخضرمة رشيدة عبد السلام بعد تاريخ حافل مع كبار المخرجين، مع مخرجة مازالت تخطو خطواتها الأولى متفقتين فى أسلوب العمل وهما معا تمثلان نموذجا صارخا للسينما السائدة كما أرسى قواعدها الرجال بإيقاع يلهث ليسرد قضية من ملفات صفحات الحوادث مع إلباسها ثوباً من تورية زائفة تحاول أن تبدو مع أنوثتها مشاركة فى قضايا المجتمع وتحارب الفاسدين من الرجال والنساء، وتنتصر فى النهاية بمساندة ضابط الشرطة المتخفى على الرجل الجذاب الشرير والمرأة اللعوب الشريرة، العالم مقسم إلى أخيار وأشرار ملائكة وشياطين والمخرجة تساعدها المونتيرة يصرخان بكل هذا فى وجوهنا .

حركة كاميرا مستمرة، حدة فى الأداء التمثيلى، فجاجة فى الحوار ورسم الشخصيات، الحدة مشتركة ومتفق عليها بين المخرجة والمونتيرة، موسيقى زاعقة مستمرة لفترات طويلة، وعادة تكون هذه الجزئية مسئولية المونتاج والمكساج.

لم تكن تجربة ناجحة لكلتيهما وستعود المخرجة للعمل مع سلوى بكير وتستمر رشيدة عبد السلام مع باقة المخرجين الرجال، كبارا وصغارا تعطيهم من فنها وخبرتها حتى يومنا هذا .

اخر اعمالها كان فيلم يوسف شاهين «سكوت حنصور» حصلت عنه على جائزة أفضل مونتاج من مهرجان جمعية الفيلم، وفيلم الساحر للراحل «رضوان الكاشف» .

أما أستاذة المونتاج فى معهد السينما، فهى سيدة هادئة جدا صوتها يكاد لا يسمع، مختلفة تماما عن «شوشو» التقيتها فى ورشة عمل أخرى فى استديو نحاس «النيل» حيث أستاذ الكرسى المتصوف «شادى عبد السلام» ونحن طلبة معهد السينما نحج إليه كالمريدين نستمع منبهرين لمشاغبته لنا عن غيره من المخرجين، أساتذتنا الذين لا تنقطع أعمالهم . بينما هنا فى مركز الفيلم التجريبى يسير العمل فى إيقاع هادئ يشبه صاحبه وتلامذته ومنهم رحمة منتصر المونتير الساعد فى فيلمه «المومياء» .

كانت مع الأستاذ - وكان هذا لقبا كافيا لشادى عبد السلام - يعملان فى «جيوش الشمس» ويجريان طرقا فنية باستخدام وسائل معملية تعمل مؤثرات حربية بالصورة، تجارب شادى لم تكن تتوقف فى المونتاج وكانت «رحمة منتصر» يهدونها نموذجا للصورة التى حدثنا عنها أستاذنا سعيد الشيخ عن المونتير الهادئ الصبور، وخاصة عند التعامل مع مخرج من نوعية شادى عبد السلام، قد يفكر عدة أيام فى لقطة تستغرق ثوانى على الشاشة ليقرر المكان المناسب للقطع.

بعد حياة «شادى عبد السلام» القصيرة نسبيا مع فن السينما انتقل عدد كبير من تلامذته للعمل مع أستاذ آخر وهو يوسف شاهين والتقت «رحمة منتصر» مع المخرجة أسماء البكرى فى عملها الأول والمختلف عن السينما السائدة «شحاذون ونبلاء» بأسلوبه المختلف وذوقه الخاص والذى ناسبه مونتاج «رحمة منتصر» بإيقاعه الذى يعطى اللقطة زمنها المطلوب فيكون متمهلا عند الرغبة فى التأمل، حادا وسريعاً لإحداث معنى المفاجأة وتحقيق التأثير المطلوب .

شحاذون ونبلاء

هو العمل الأول لمخرجته أسماء البكرى به طزاجة الأعمال الأولى، وبدائية الحرفة أحيانا ومع جمال الموضوع المعتمد على قصة لأديب مصرى يكتب بالفرنسية، تمكنت من صياغة سيناريو بمشاهد

تشبه فصول كتاب . المشاهد في فيلم «شحاذون ونبلاء» قليلة ومكثفة تعكس على بساطتها فكرة عميقة عن أثر الحرب العالمية على مدينة القاهرة. مركزا على موقع واحد لمنطقة شعبية - حي الجمالية -: الحارة بشخوصها المتنوعة والمرسومة بشكل لم نعهده في السينما السائدة. الفيلم مصاغ في بناء موسيقي بوحدات مشهدية يمكن تقسيمها إلى ثلاث وحدات رئيسية: الافتتاحية، الأزمة، ثم الحل .

يبدأ الفيلم بعد دقة موسيقية تبدأ بها موسيقى كلاسيك مع العناوين المكتوبة بخط عربي جميل باللون الأحمر على خلفية سوداء مترجمة في لوحة واحدة: اللقطة الأولى لورقة من جريدة تقرأ بوضوح، هواء خفيف يبعد الورقة بعد وقت كاف يسمح باستيعاب المكتوب «الحلفاء ... يتسع الكادر ليكشف عن المكان، شارع هادئ ومبنى إسلامي - جامع- وعربة كارو تتقدم من العمق، اللقطة الثانية بائع الفول في حارة ضيقة ينادي على بضاعته يسير في عمق الكادر وتأتي عربة الزبال من المشهد السابق، قطع إلى بلكونة في حجم متوسط، المرأة تلقي بشيء يسقط على الزبال تشاهده من زاوية علوية - تمثل وجهة نظر المرأة - عدة لقطات يداعب فيها الزبال المرأة، الحوار والأداء يكشف عن طبيعة عملها «رايحين للست الطاهرة». وتبقى بنت في البيت «أرنبة» هل هي سندريلا ؟ الموقف يشي باحتمال حدوث أمر ما .

- المشهد الأول الافتتاحي يقدم مواقع الأحداث: الحارة، وبيت العالمة - منزل الحدث فيما بعد - الإيقاع هادئ يناسب بداية الفيلم، الانتقالات تتمهل أو تتأخر بعض الشيء، بالعامية اللقطة مريحة. عندما تنادي المرأة على الفتاة «يا أرنبة بت يا أرنبة» لا تقطع رحمة منتصر جزءا من النداء على اللقطة الثانية التي تبدأ بالباب ثم تظهر الفتاة «أرنبة» التي تتحرك ببطء «حاضر يا معلمة» الإيقاع يشبه الشخصية. الكادرات التي توجد قبل الحركة وبعدها، يختلف طولها من مونتير إلى آخر، رحمة متمهلة غالبا، المشهد مستمر بعد انصراف النساء، الزبال و يؤديه محمد هنيدي نجم السنوات الأخيرة في دور ثانوي ظريف يجمع القمامة وهو يغني أغنية من أغنيات الفترة.

المشهد الثاني يبدأ بلقطة عامة متوسطة لشخص نائم على الأرض، ينهض وقد أحس بعياء تعرفه، يقول: «فيضان بصابون» اللقطة الثانية ينهض فيها ويعلو صراخ تسوق، لقطة قريبة لوجه غير حليق «صلاح السعدني» يعلو معها الصراخ، المياه كثيفة من عقب الباب، قطع إليه يمسك برأسه، لقطة عامة من الخلف نجده جالسا على الكرسي الوحيد في الحجرة، يفتح الباب في لقطة متوسطة ضوء الشمس يزعجه. اللقطة التالية من وجهة نظره نساء في السواد. تتحرك الكاميرا من وجهة نظره، قطع إليه يسير في ممر المكان بيت من الطراز القديم عدة حجرات مطلة على ممر مثل مباني المدارس: قدم المتوفي وغسيل الميت، الأمر أصبح واضحا مات جار للبطل، يعود إلى حجرته يتأمل الجرائد المبتلة في الأرض، مع ارتفاع تدريجي للموسيقى واختفاء للأصوات العديدة. الكاميرا تتمهل بما يسمح بقراءة المكتوب، بالإنجليزية الجندي الجيد، ثم بالعربية قوات الحلفاء ... الوقت كاف للقراءة - يلبس الجاكيت والطربوش ويحمل عصاه ثم نشاهده في موقع آخر أصوات المكان أكثر حيوية وحركة الشخصية أيضا، يتوقف ويمسك برأسه تختفي الموسيقى وتسيطر مؤثرات المكان، نداء باعة وضجيج سوق، الشخصية في حركتها تكشف الأمكنة وأجواءها . المخرجة لا تضيع الوقت في تفصيلات فرعية والمونتاج يحقق إيقاعه بتركيبات الصوت المعبرة عن العالمين العالم المحلي بالحوار والمؤثرات والخلفية العالمية بالموسيقى الكلاسيكية حيث تعبر عن أجواء الحرب.

المونتاج يعطي الشخصية حقها في الانتقالات التي تكشف عن ملامحها وظروفها بالصورة أولا دون الحاجة لجمل حوارية فنحن لا نسمع «هوه أنت نايم على الأرض، ما عندكش سرير» إلا في النهاية من الضابط كتعبير عن اندهاشه من نبذ الشخصية لكل الراحة التقليدية، المونتاج يسمح بتأمل الصورة وتفسيرها .

مع المشهد الثالث يتم تقديم شخصية أخرى للثوري «الكردي / محمود الجندي» حيث يقابله البطل «الأستاذ جوهر / صلاح السعدني» والمشهد الذي يليه يقدم الصديق الثالث يقوم به «يكن / أحمد آدم» في كاركتر ظريف أيضا «أربعة مشاهد فقط تم فيها تقديم الشخصيات والجو العام في بناء يشبه السلسلة كل حلقة تؤدي إلى الحلقة التالية، الانتقالات مخدومة منذ مرحلة الكتابة والمونتاج يقوم بعملية التضفير والتشبيك بالقطع واستخدامات الموسيقى والمؤثرات .القاعدة التي تقول بأن المونتاج يبدأ من السيناريو متحققة بشكل واضح .

الحـــدث / الـــذروة

الأستاذ جوهر «صلاح السعدني» بعد أن تشكلت بوضوح معالم شخصيته ينتظر صديقه يكن «أحمد آدم» في بيت العالمة: يبدو الأمر كحجة تستشعرها وتقول بها «أرنبة» التي بقيت في المنزل بمفردها، تمارس دلالها على الرجل تطلب منه كتابة خطاب «وحادفعلك» رغم احتقارها لها ينساق إليها وهي تجره للداخل: «تعالى جوه أحسن» حيث حجرة النوم والسرير النحاسي، الأستاذ جوهر يخشى ضوء الشمس، يزعجه النور - كما حدث في المشهد الثاني - يطلب منها أن تغلق النافذة «اقفلي الشيش» الملمح الخاص بشخصيته يتأكد «عيشه في الظلام وانزعاجه من ضوء النهار الساطع» البنت تحدثه بينما تمشط شعرها المبتل وتسأل «يكن بيكتب شعر بصحيح؟ هما الشعراء بياخدوا فلوس من النسوان؟ جوهر يبتسم وكأنه يعرف ألاعيب صديقه، أحجام اللقطات يتسع لكليهما والجو العام يهيئنا لأمر ما سيحدث دون ما حاجة لاستخدام موسيقى توتر مثلا كما يحدث في بعض الأفلام . يقاطعها: عايزة تقولي إيه في الجواب «تتحدث بما تريد بالعامية: يكتب وهو يستند على مجلة «الاثنين» - مجلة شهيرة لفترة الحرب العالمية الثانية - عليها وجه امرأة جميلة بالأبيض وأسود، اعتناء الجميع بالتفاصيل عمل المدير الفني ومهندس الديكور «أنسي أبو سيف» واضح وأكثر من ممتاز . ثم يبدأ مشهد خام جدا في المونتاج يؤسس إيقاعه اللقطات القريبة مع الأصوات الحية التي تدخل الموسيقى في طياتها ثم تسيطر على المشهد كالتالي: لقطة ليد الفتاة تحرك غوايشها في رتابة ودلال، لقطة مكبرة لعين جوهر، عودة للذراع والغوايش «وقوله كمان ..» قطع متبادل بين لقطة مكبرة جدا لعينيه وذراعها الذي تلعب بغوايشها بيدها الأخرى، لقطة واسعة تضمهما وهي تتحرش به تضع يدها في صدره: تعالى امضي، ما أعرفش، ما دخلتيش مدرسة؟، هي المدرسة كانت حتوظفني هنا!: «تعالى» تجذبه للسرير، يسقط الطربوش على الأرض لا نرى في اللقطة سوى الطربوش، بينما نسمع صوتيهما دون أن نشاهدهما يمضي وقت والأصوات ملتبسة، قد تعكس العنف أو ممارسة الحب، مازال الطربوش على الأرض تمتد يد وتأخذه تتحرك الكاميرا لتتسع الرؤية فنشاهد رأس الفتاة «أرنبة» متدلية من حافة السرير الموسيقى التي وصلت لذروتها، قطع حاد مع أقدام ضابط بلباسه الأبيض يعبر الكادر عرضيا .

«رحمة منتصر» وجدت لديها مادة للعب بها من أحجام اللقطات وزواياها أداء صامت معبر، وجمل حوارية دالة، عناصر الصورة مخدومة فنيا، الموسيقى موجودة طوال الوقت ولكن درجة علوها وانخفاضها تأليفا وأثناء عملية المكساج قدمتها في أروع أشكالها، الأسلوب الذي أخرجت به المخرجة مشهد القتل مؤثر دون عنف فج بعد أن أعدت له مسرح الحدث جيدا .

التحقيق يتم في صالة البيت «بيت الدعارة» يمد عليه الزبائن وكلهم موضع شك ماعدا الفاعل «الأستاذ جوهر / صلاح السعدني» مؤديا دوره باامتياز ومعه «الضابط/ عبدالعزيز مخيون» الذي سيقاسمه البطولة منذ ظهوره المتأخر بعض الشيء حتى نهاية الفيلم التي يحدث فيها تحول في شخصيته لينضم إلى مجموعة أبطال الفيلم «الشحاذون النبلاء».

وبعد أن يفشل «الضابط / عبد العزيز مخيون» في الوصول إلى الجاني - الذي يعرفه المشاهدون - يمارس عنفا من اليأس مع «يكن / آدم» بواسطة عساكره يسبه ويلقي بطربوشه فتأتي المسية على وجه الملك «غور من وشي يا ابن الكلب» في لقطة واحدة تتابع الكاميرا الطربوش الطائر الذي يسقط فوق لقطة لصورة الملك على حائط حجرة المكتب. المشهد السابق سريع الإيقاع في لقطات قصيرة وموسيقى عالية تعكس الحالة المنهارة للضابط الذي فشل في عمله - الوصول للأدلة على ارتكاب الجناية - ثم لقطات



أرشيفية وصوت إذاعى يتحدث عن القنبلة النووية والرئيس «ترومان» الإذاعة مستمرة على شارع مزدحم ومبنى عليه لافتة قسم بوليس الجمالية، والبشر فى رواحهم وغدوهم فجأة يظهر مخيون من عمق الكادر، وقد أصبح فى هيئة تشبه «الأستاذ جوهر / صلاح السعدنى» بذقن غير حليقة وبدلة مهترئة، بلا طربوش أو زيه الرسمى. جوهر جالسا على المقهى فى لقطة عامة، قطع للقطة مكبرة لمخيون يبتسم، قطع مماثل للسعدنى يبتسم ويشير بيده على المقعد أمامه بما يعنى «مكانك ينتظرك» الابتسامة مفتاحها واضح ألم يقل فى بداية الفيلم للثورى المتحمس «محمود الجندى» العالم كله بينتحر... لم لا تنتحر أنت أيضا».

الموسيقى مستمرة منذ التحقيق مع يكن وإعلان أنباء الحرب والقنابل حتى النهاية وعناوين الفيلم.

رحمة منتصر فى انتقالاتها ولحظة القطع داخل المشهد، وانسيابية المشاهد وترابطها عبر الفيلم كله تحافظ على أسلوب محدد على مدى الفيلم كله يعكس فهما لقضية الفيلم المركبة التى تتحدث عن أثر الحرب العالمية على قاع المجتمع المصرى من خلال شخوص لا تملك إلا الانتحار الصامت فى انتظار انفراج الأزمة.

الحل لا يبدو ورديا ولكنه حل منطقى لكل ما نسجته المبدعتان من وضع يعكس أزمة عالمية ومحلية وأزمات البشر الشخصية اختاروا الاستغناء عن الثروات والبقاء كشحاذين يملكون نبلا داخليا رغم اليأس.

الذوق الخاص للفيلم، النبرة الهادئة وعدم الصراخ، الموسيقى فى مكانها فقط، الممثلون من غير النجوم، التركيز على أبطال غير مزيفين، لا توجد قصور فخمة وبدل ومعارك سينمائية، الجمال ينبع من الذوق حتى فى بيت الدعارة، لا سوقية فى الألفاظ ولا جنس مباشر ولكن تعبير مكتوم وقوى عن كافة الأشياء: السياسة والكبت الجنسى وكراهية الشر فى العالم والنفس الإنسانية، كل هذا غريب على المشاهد الذى تربى على أسلوب زاعق وثنائيات الخير والشر. كافة الأنماط، غريب على من تعود على أفلام كلها صراخ وحدة وضجيج وصخب يشترك فيه عادة الكتابة مع الأداء التمثيلى والإخراج، وهو غير موجود فى «شحاذون ونبلاء» للسيدتين المبدعتين «رحمة منتصر» وأسماء البكرى».

ظلم فيلم «شحاذون ونبلاء» ليس من الجماهير فقط ولكن أيضا من بعض من يدعون فهمهم لسينما خاصة حيث اتهمه البعض بالإساءة لسمعة مصر والبعض الآخر لم يتفاعل وجدانيا مع هدوئه...

وما يهمنا فى هذا البحث التأكيد على كون المرأة تبدع أحيانا بعيدا عن مشاكل قضايا الأحوال الشخصية وغيرها من القضايا النسوية.

المرأة المبدعة مخرجة ومونتيرة مهمومة بمشاكل العالم والبشر، هنا بالتحديد فى فيلم «شحاذون ونبلاء» تتناول المخرجة شخصيات الفيلم الرئيسية من الرجال ممن يرفضون السياسة التدميرية، لم تتناول بطلا مغوارا أو شخصية تاريخية، بل أناسا ضائعين رفضا لما يحدث من بطولة مزيفة تسبب الحروب. وكم يبدو الفيلم هاما هذه الأونة والرجال يشعلون حروبا فى العالم تحت كثير من الدعاوى.

ثلاث جبهات

تخرجت رحمة منتصر من قسم مونتاج معهد السينما الدفعة الثانية بعد من تخرج من الدفعة الأولى «عادل منير وأحمد متولى» حصلت على دبلوم فى السينما من لندن وعادت لتشارك فى تأسيس قسم المونتاج مع المونتير الكبير «سعيد الشيخ» والآن تعمل مدرسا فى قسم المونتاج بالمعهد العالى للسينما.

تقول رحمة: «تكنيكيا استفدت من سعيد الشيخ ومساعده الأول محيى عبد الجواد، لم أستمر طويلا فى مهنة المساعد الثانى، هو «مرمطون» بالفعل، كان سمير عوف ويحيى عزمى أصدقائى قد بدءوا التحضير للعمل كمساعدين مع شادى عبد السلام فى المومياء، شعرت بالغيرة منهم «وكنت حتجنن» أريد أن أعمل معهم، كان يحيى عزمى قد اضطر لدخول الجيش ولم يكمل، عملت سلاحظ سيناريو «سكريبت جيرل» فى «المومياء» ثم عملت فى المونتاج، كنت موجودة فى فريق الفيلم قبل المونتير «كمال أبو العلا» استفدت منه كثيرا وعملت معه مساعد مونتاج أول، صدره رحب وترك لى مساحة كبيرة للعمل.

اكتسبت مهارات تركيب شريط الصوت منه، وللأسف حرمت من المراحل الأخيرة حيث سافر شادى ومعه «كمال أبو العلا» لعمل مراحل تشطيب الفيلم فى الخارج. كان فهم كمال أبو العلا لمخرج جديد إنجازا عظيما، تمت بينى وبينه صداقة وعملت معه مساعدة فى ثلاثة أفلام حيث أكملت معه «الفلاح الفصيح» ثم «آفاق» الذى كان دورى به أكبر لانشغال «كمال أبو العلا» فى أعمال أخرى. حدثت مشكلة وضاعت شرائط الصوت فأعيد الصوت بالكامل وأنهيت الفيلم. انفردت بعمل «جيوش الشمس» وكان لتجربة صعبة جدا، ثقافة شادى عبد السلام وخبرته لهما نوعية خاصة، ليس لديه ترتيب مراحل، قد يبدأ فى العمل فى الصوت فى البداية.

عملت معه بعد ذلك كل أفلام الآثار باستثناء فيلم واحد قام به «عادل منير» الذى تربطنى به زمالة قوية، نتبادل الآراء بشكل هائل، فى أحد الأفلام لم أكن راضية عن النتيجة النهائية، استشرته قال لى «التعديل بعد النسخة الاستاندارد يهزك فى السوق»، ولكنى كنت متخلصة من المخاوف التقليدية، وجودى فى المعهد حمانى من التكالب على السوق، تعلمت من شادى عبد السلام عدم التنازل عن المستوى، أعدل حتى آخر لحظة، أمضيت حياتى مستمتعة منذ ١٩٦٩ حتى وفاته فى ١٩٨٦، تعلمت منه الكثير، وفى المعهد أشعر بالحرية، آخذ قراراتى ليس لى رئيس، أصحابى فى العمل كلهم رجال «مجدى كامل، عادل منير، سمير عوف، يحيى عزمى، كامل القليوبى وداود» العمل مع الستات أصعب، كانت لى تجربة مع مخرجة ولم نتآلف فى العمل، أرتاح أكثر فى التعامل مع الرجال. أسماء لا تتعامل على أنها ست، لديها ثقافة رفيعة وذوق حلو، حضرت شغلها كويس بنسبة تصوير أكبر قليلا من المعتاد فى السينما المصرية، لديها تكنيك بسيط، امرأة راقية كانت تخاطبنى رسميا «يا مدام رحمة» مشكلتى معها كانت فى وصولى متأخرة عن مواعيدى نظرا لمسئولية المعهد وأمور البيت. أسماء أحيانا تصر على رأيها، أنا لا أنفذ «القطعة» التى لا تعجبنى أجعل المساعد ينفذها، وتظل تضايقنى كلما شاهدتها.

أحمد داود عمل معى مساعدا وله دور قوى، هو أمهر تقنيا منى. أمنتج وأفسد التزامن «السنكرون» وهو يصلح ما افسده، وهو شاطر جدا فى تركيب المؤثرات الصوتية، حتى لو لدى شغل ولا يعمل معى كنت أستعين به وخاصة فى مرحلة شريط الصوت النيجاتيف إذا تطلب تصليحات.

محمد مصطفى المخرج المساعد فى «شحاذون ونبلاء» لديه خبرات عملية كبيرة، كان معنا أنا وأسماء أثناء المونتاج وكان وجوده مساعدا جدا.

فيلم «شحاذون ونبلاء» لم ينجح تجاريا، وحتى فى الجو السينمائى، كانت هناك عيوب بالسيناريو ينبغى دراستها اولا. عدم وجود نجوم بالفيلم أعطاه مذاقا خاصا وأنا أحب ذلك، وهو ما حدث أيضا فى فيلمى التالى مع يسرى نصر الله «سرقات صيفية» الممثلين غير المحترفين يفيدون العمل ويعطونه مذاقا خاصا.

عندما لا أحب المادة المصورة قد أعتذر عنها، خوفى من أن أوضع محل نقد من طلبتى جعلنى أحرص على مستوى شغل جيد. وقتى مقسم بين المعهد والبيت ومهنة المونتاج أوزع طاقتى بين المسئوليات الثلاث، المعهد قضيتى الأولى، أرسى مناهج أعلم طلبة، تجرى الدموع فى عينى مع كل دفعة تتخرج، ومنهم خالد مرعى ومنى ربيع وداليا الناصر وغادة جبارة، لدى ما عوضنى عندما لا يوجد فيلم أعمل به. وعملى فى الأفلام أخر تقدمى فى المعهد، توزعى بين الجهات الثلاث أرهقنى. لم ألتفت إلى النقود والآن أعتقد أنه خطأ، أحن لعمل الأفلام الطويلة فالمونتاج هو جبهتى المفضلة.

سلوى بكير

الصورة التى تلح على عند ذكر اسم «سلوى بكير» هو مشهدها وهى تجر وعاء المخلفات «سبت الديشاهات» الذى يضم قصاصات شرائط الصورة والصوت من نسخة العمل التى يتم قصها أثناء عمليات المونتاج، كانت تجر السبت من حجرة التقطيع إلى حجرة المونتاج ودموعها تنهمر فقد أضاعت جزءا من المخلفات ووبخها أستاذها سعيد الشيخ على ذلك، وعلى الموفيولا أخذت تسمع القصاصات التى تملأ السبت لتصلح خطأها ويرضى عنها «الأستاذ» الذى ارتبطت



بالعمل معه وهى شابة صغيرة تكاد تكون طفلة قبل الالتحاق بمعهد السينما وقبل أن تعمل مساعدة معه فى عدد لا يحصى من الأفلام . عشقت سلوى مهنة المونتاج وكانت تقضى كل أوقاتها فى الاستديو حتى أنها كانت تحضر معها الطعام البيتى «صنع ماما» فى علب وتدعو كل من حولها لمشاركتها الطعام اللذيذ، لا أنسى «سعاد حسنى» وهى تلتهم قرنا من الفلفل الحار من بين طعام سلوى وتلتهم بالخبز «وتغمس بالعيش» السبانخ المسبكة وهى تقوم بعمل الدوبلاج لفيلم «أميرة حبى أنا» الذى تدربت فى العمل به مع سلوى بكير، كان المتدرب يتعامل مع المساعد وبالكاد يرى المونتير القدير سعيد الشيخ وهو يصيد الكادرات حتى لا تهرب وتسبب خللا فى الإيقاع .

تتلمذت سلوى بكير على يد أستاذ المونتاج سعيد الشيخ ومساعده «محيى عبد الجواد» حتى امتلكت حرفة المونتاج تماما بالإضافة للدراسة الأكاديمية فى معهد السينما الذى تخرجت منه عام ١٩٧٠ بتفوق وعملت كمعيدة مع الأستاذ سعيد الشيخ واستمر مشوارها فى تقدم لتقوم بعمل المونتاج لعدد كبير من الأفلام وتتقدم أيضا فى سلك التدريس الجامعى لتحصل على الدكتوراه وتثبت أقدامها فى المعهد .

عائق واحد وقف أمام تقدمها هو مونتاج الكومبيوتر فهى مثل كثيرين ممن عملوا فى المونتاج بالطريقة القديمة ارتبطوا بحميمية مع معدات المونتاج التقليدية من الموفيولا، وجهاز التزامن ومنضدة التقطيع والبرس «اللاصق الاسبليسر» .

وما يهمنا فى مقام الحديث عن عمل سلوى فى مونتاج أفلام المرأة المخرجة نجد الكثير مما يمكن قوله، فقد قامت سلوى بكير بعمل مونتاج كل أفلام «إيناس الدغيدى» حتى عام ٢٠٠٠، ويبدو أن هجمة الكومبيوتر على أجهزة المونتاج كانت وراء عدم استمرارهما فى العمل معا رغم ما سنوضحه من اتفاقهما الفنى وتفاهم كلتيهما، ليس فقط مع أول فيلم تخرجه «إيناس» ولكن قبل ذلك عندما كانت تعمل كمساعدة إخراج فى أفلام عملت فيها سلوى بالإضافة لكون سلوى معيدة بينما كانت إيناس طالبة تدرس فى المعهد قسم إخراج حيث تخرجت بعد «سلوى بكير» بخمس سنوات عام ١٩٧٥ .

عفوا ... أيها القانون

العمل الأول الذى جمع «سلوى بكير» مع «إيناس الدغيدى» «عفوا ... أيها القانون» الذى أعدته المخرجة قبل العمل بشكل جيد وساعدها فيه الكثيرون طبقا لرواية المونتيرة «سلوى بكير» . كتب لها السيناريو المخرج والسيناريست «إبراهيم الموجى» خريج المعهد دفعة ١٩٦٨ وهو أحد تلامذة «شادى عبد السلام» طبقا لعناوين الفيلم القصة اشترك فيها مع المخرجة وكتب هو السيناريو والحوار كاملا، وفكرة الفيلم هم نسوى بالدرجة الأولى قضيته الأساسية والتى تتفق مع عنوان الفيلم تناقش أحد القوانين التى تفرق بين الرجل والمرأة، وإن كان الفيلم قد بدأ بقضية تخص العجز الجنسى لعريس شاب يحب زوجته، ثم اتجه لقضية أخرى وهى الخيانة الزوجية التى أدت إلى حادثة قتل الزوجة لزوجها متلبسا فى سريرها مع امرأة لعوب يحكم على الزوجة - التى قامت بدورها نجلاء فتحى - بخمس عشرة سنة سجنا، بينما حكم على والد الزوج - الممثل الكبير فريد شوقى - فى قضية مماثلة بشهر واحد دون نفاذ .

الفيلم بهذا الطرح ضل الطريق لمناقشة قضية أهم وهى العلاقة الزوجية الخاصة بقدر من العمق بعيدا عن جو الحوادث وملفات القضايا، ذلك القالب الجماهيرى الذى يلجأ إليه من يرغب فى جذب الجمهور ومتابعة أحداث غير عادية، والمشكلة ليست فى جريمتى الزنى ثم القتل ولكن فى تصوير الأمر وكأنها تطالب بالمساواة مع الرجل فى أمر جرى العرف عليه «القتل دفاعا عن العرض» رغم مخالفته للقانون .

بدأت المخرجة أول أعمالها فى مناقشة قضايا ساخنة واستعانت بفريق عمل من المحترفين أمام الكاميرا ووراءها فقدمت عملا على مستوى جيد من الحرفة فى إطار السينما السائدة التى تعتمد على تنميط الشخصيات وجمل الحوار المباشرة والإلحاح على الفكرة بالتزيد فى التفاصيل الخاصة بالمشاكل الثلاث المعروضة، وتفاصيل خاصة أيضا بالشخصيات التى تساند الأبطال الثلاثة الزوج والزوجة والعشيقة . يقال عنهم المثلث التقليدى - والشخصيات الثانية وهى زوج العشيقة، والد الزوج، الطبيب والمحامية .

هناك توازن فى مساحة الاهتمام بدور كل من الزوج «محمود عبد العزيز» والزوجة «نجلاء فتحى» حتى فى السيدة، شخصان لكل منهما وهو توازن يناسب النجمين ويسمح لهما ببطولة متكافئة .

دائما يقال عن عيوب العمل الأول تشعب الموضوعات وهذا موجود فى العمل الأول للمخرجة، ولكنه ليس العمل الأول للمونتيرة التى بذلت جهدا حرفيا ملحوظا لعمل الترابط «وشد الفيلم» أى ضبط إيقاعه .

كان لابد من هذه المقدمة التى تخص السيناريو والإخراج حتى نتفرغ لمناقشة أسلوب المونتاج بتناوله عبر المشكلات الثلاث التى يمكن التعامل معها كبديل للبداية والوسط والنهاية أو كتعبير عن المقدمة، ثم التفاعل، ثم النتيجة، الفيلم يبدو كمعادلة رياضية تؤدى فيه المقدمات إلى نتائج محددة ويقينية .

مونتاج المرأة فى مصر

يستريح المخرج أكثر فى العمل مع المرأة مونتيرة والسمة الغالبة لمونتيرات عملن بالخبرة إتقانهن الحرفة بشكل عال جدا ومعرفتهن لأسرار وتفاصيل العمل السينمائى ككل، الرائدات المعاصرات «نادية شكرى» و«رشيدة عبد السلام» يتعاملن بالإحساس والخبرة المكتسبة ومعهن «عنايات السايس» التى تزوجت المهنة وأخلصت لها تمتلك من الخبرة والكفاءة ما يجعلها - دون أن تكون قادرة على الشرح - على عمل مونتاج جيد ومن أعمالها الهامة فيلم «آى آى» للمخرج سعيد مرزوق ودون أن تلتحق بالمعهد لن تفرق بين عملها وعمل سلوى بكير لأنهما يعملان فى نفس النوع من السينما الجماهيرية ولكنهما تختلفان عن رحمة منتصر التى لا تشارك إلا فى سينما ذات توجه مختلف .

الخلاصة أن الحديث عن إبداع المرأة فى المونتاج لترسيخ فن سينمائى يختلف عن إبداع الرجال يفترض شروطا غير موجودة فى مصر، حيث لا يتحمس المنتجون، ولا يسمحون أيضا بسينما حقيقية ذات توجه نسوى ، تعبر عن الحياة كما تراها النساء وتقدم نماذج فاعلة وإيجابية للبطلة المرأة . قد يوجد هذا فى التليفزيون مع أعمال تكتبها نساء مثل «فتحية العسال» أو تخرجها نساء عن سيدات مختلفات . مثل «إنعام محمد على» وعملها عن أم كلثوم .

والنموذج الحقيقى لسينما المرأة فى فيلم التونسية «مفيدة تلاتلى» «صمت القصور» بداية من كتابته وأسلوب إخراجه واختيار بطلاته وأبطاله وبشكل خاص التعامل مع جسد المرأة الذى يتضح فى مشهد هام بالفيلم وهى ترقص كذبيحة رقصا شرقيا نعم ولكنه بعيد عن هز البطن والإثارة الرخيصة وصلت فيه المخرجة بزوايا الكاميرا وتوجيهها لبطلتها إلى مستوى راق فى التعامل مع جسد المرأة لا أعتقد أنه موجود حتى فى سينما تحاول أن تبعد عن السائد ولكنها تتفق مع السينما التجارية فى تناول صورة المرأة ولا أستثنى الفيلم الهام لسيد سعيد «القبطان» ولا أفلام داود عبد السيد مع قدر قليل من الاستثناء مع محمد خان ومجدى أحمد على .

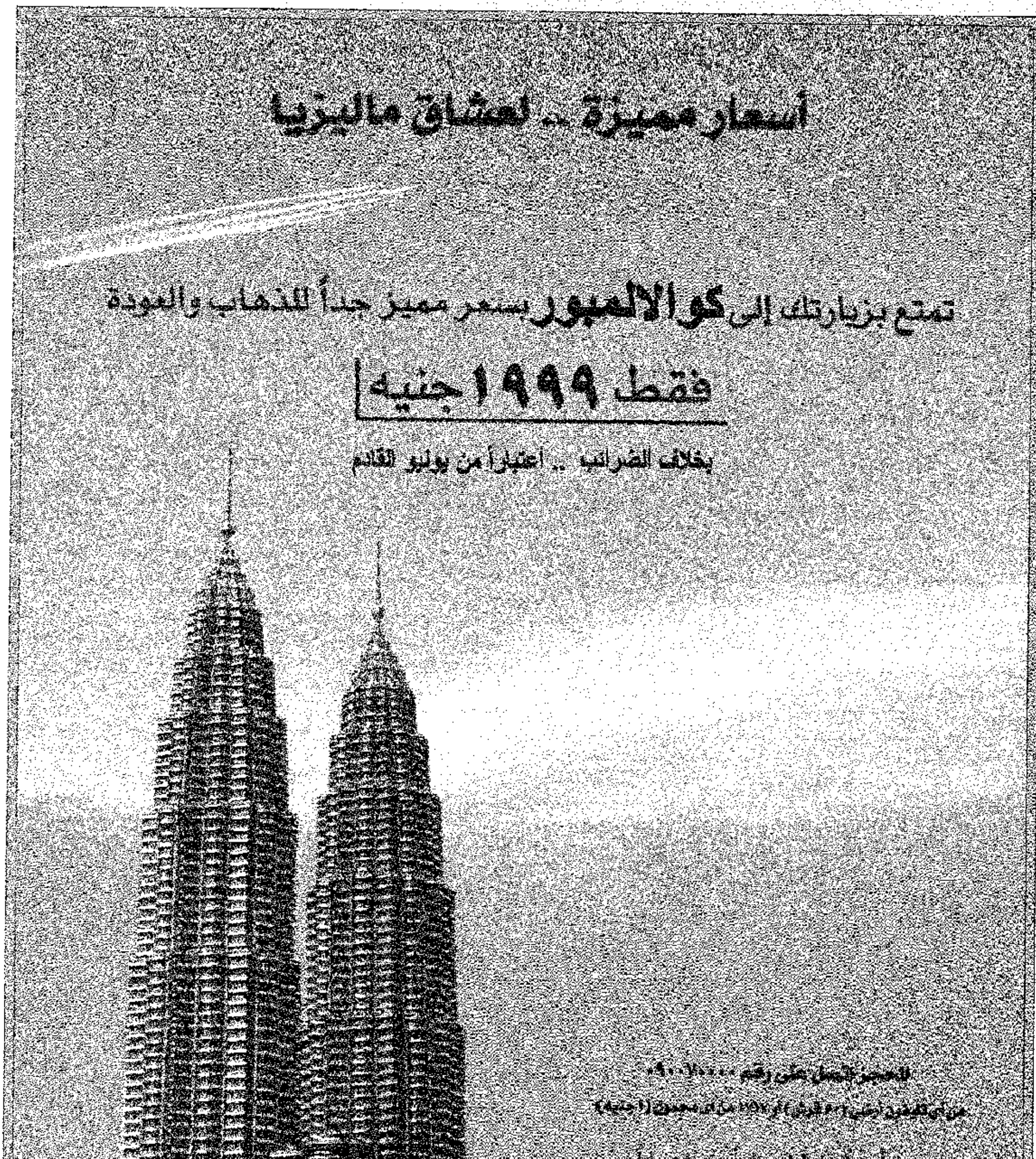
لكى تكون لدينا سينما للمرأة لابد من البدء مع الموضوعات المكتوبة التى تفرض شكل إخراجها وأتوقع لو سمح المنتجون لمخرجاتنا الشابات هالة خليل ورشا الكردى ونادين خان ونوارة مراد من شابات التسعينيات والألفية الثالثة وغيرهن أن يكون لدينا سينما حقيقية للمرأة يسانده مونتاج المبدعات وكتابة المبدعات الموجودات دون أن يقبل المنتجون أعمالهن وهم يرددون بتأكيد أن جمهور السينما غالبيته العظمى من الشباب الذكور، ولو أضفنا المناخ الذكورى السائد الذى عادت فيه المرأة لارتداء غطاء الشعر المسمى بالحجاب لأدركنا أنها ليست مسئولية المنتجين فقط بل المجتمع ككل والنساء فيه بشكل أكثر تحديدا . ■



الـــهـــوامـــش

(١) المعاصرات فى حقل المونتاج هن: رشيدة عبد السلام، نادية شكرى، رحمة منتصر، سلوى بكير، عنايات السايس، نفيسة نصر، داليا الناصر، مها رشدى، منى ربيع، رباب عبد اللطيف، وداليا علال، ودينا فاروق .

(٢) عملت رحمة مع «أسماء البكرى» فيلمها التسجيلى الهام «المتحف اليونانى» بالإضافة لفيلمها «شحاذون ونبلاء» .



أسعار مميزة .. لعشاق ماليزيا
تمتع بزيارتك إلى كوالالمبور بسعر مميز جداً للذهاب والعودة
فقط ١٩٩٩ جنيه
بخلاف الضرائب .. اعتباراً من يوليو القادم
مصر للطيران
EGYPTAIR
أول شركة طيران في الشرق الأوسط وأفريقيا وسابع شركة عالمية
www.egyptair.com
75

ماس . كاجنا

هناك وعى شعبى من قبل المصريين عن النوبة كمكون ثقافى تابع من إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى

في جمعية أرمينا في حي عابدين، أحد أحياء القاهرة، يوجد السيد على سالم[1] وهو محاسب متقاعد يبلغ من العمر ثمانين عاماً يتكلم اللغات اليونانية والفرنسية والإنجليزية والعربية بالإضافة إلى الفدكا لغته الأساسية التى أشرف على تعليمها لمن استخدموها شفاهياً كى يتمكنوا منها كتابة باستخدام الحروف الهجائية للأبجدية النوبية التى استخدمت منذ العصور الوسطى.

عندما وصلت إلى مقر الجمعية فى مساء أحد أيام الأسبوع قبل نهاية شهر رمضان ديسمبر/كانون الأول عام ٢٠٠١، حدث أن تكلم السيد على مع فؤاد وهو أيضاً محاسب ويدرس لغة الفدكا قائلاً: إذا كان بإمكانه فتح جمعية التراث النوبى الواقعة فى الشقة المجاورة على أن تكون مقراً لاجتماع خاص مساء الأربعاء. دعا السيد على الكاتب والمثقف المصرى المعروف خيرى شلبى وكذلك أربعة من روائيى النوبة[2] لجلسة ودية لتسوية خلاف. فما الذى أدى إلى جلسة الصلح تلك التى أطلق عليها «ونسة» وقد ضمت الزملاء من المثقفين الأصدقاء لحل النزاع فى جلسة لاحتساء الشاى؟ حيث ظل السيد على منتظراً نحو عدة أسابيع لعقد تلك الجلسة. منذ أن كتب المثقف خيرى شلبى فى عموده الأسبوعى بجريدة الأسبوع المصرية مقالاً عن الإرهاب فى مصر حيث ذكر حادث التفجير الذى وقع فى عام ١٩٩٣ فى ساحة القاهرة المركزية التى يطلق عليها ميدان التحرير. استرجع شلبى ما وقع فى مقهى «وادى النيل» التى تلقب بـ«قهوة البرابرة». «حدث أن زل قلم كاتبنا خيرى شلبى وكتب قهوة البرابرة، هكذا قال الروائى حجاج أدول ثم استطرد».. فغضب الكثير من النوبيين ولهم أن يغضبوا» (أدول ٢٠٠١)[3].

استخدام خيرى شلبى لكنية البرابرة المعلن أشعل كثيرا من ردود الأفعال المتباينة الغاضبة من عدة كُتّاب نوبيين عارضوا ذكر تلك الكنية. على الرغم من اعتذار شلبى ونهاية تلك الحادثة بالصلح بعد جهود أدول فى الكتابة بما أنهى الأمر بجلسة صلح بعد الاجتماع فى جمعية التراث النوبى.

نشأ كُتّاب النوبة أساساً فى منطقة تمتد عبر جنوب مصر وشمال السودان مما أُطر اعتراضاتهم على تعبير البرابرة (مفردها بربرى) الذى يجنح عنصرياً إلى اللون وحقوق المواطنة التى تجلب فى أغلب الأحيان اعتراضات النوبيين المتصورة عامة. استخدم وصف بربرى تعبيراً عن الازدراء ويستخدم فيما يسقط على نوع من الإهانة تحيل إلى اللون لكنه يمكن تطبيقه أيضاً على اى شخص - نوبى أو غيره - كإحالة إلى الهمجية أو الحماقة. وتاريخيا استخدم وصف البربرى للشخص النوبى أو السودانى الأجوف النازح للعمل فى العاصمة، ممن يعملون كمجموعة عمال مهاجرين فى العاصمة المصرية.

النوبيون ذوو بشرة قاتمة أكثر من المصريين، وقد تكون إحدى لهجات لغتهم النوبية نابعة من لغتهم الرئيسية الأم. وقد تمت لهم الهجرة من النوبة إلى مدن مصر الشمالية للعمل بداية فى الخدمات العادية لقرون بينما ظلت النساء فى الجنوب يسكنّ بيوت القرية (جيزر١٩٨٦). على أية حال، أثناء بناء السد العالى بأسوان رحلت الحكومة المصرية أربعا وأربعين قرية من قرى النوبة القديمة لقرى جديدة شمال مدينة أسوان فى عامى ١٩٦٣-١٩٦٤ أثناء القرن العشرين. وقد ربح النوبيون اقتصادياً ونالوا الحظوة التعليمية عبر النقلة الحضرية الكبيرة إلى المدينة، ومن ثم الارتحال إلى مكان جديد بينما، فى الوقت نفسه، حدثت مأساة تتمثل فى نقص الزراعة المثمرة فى النوبة، فضلاً عن الفقد المحقق لبيوتهم وقراهم كمحصلة نهائية لفيضان السد العالى.

كانت المناقشة عن مقهى البرابرة - تحديداً - وكذلك المناقشات التى تماثلها ضمن سياق المواطنة والحقوق، جزء من النوبيين المتحضرين المثقفين يعارضون دمج اللون والطبقة والأصول الجغرافية وهيمنة ذلك التأثير المضطهد المزدوج لهم الذى يجعلهم فى انتظار «تأشيرة تبيح لك أن تكون مصرياً».

أولاً: تُظهر الأفكار السائدة عن النوبيين - خاصة - وجودهم كطبقة أدنى أو كجنس تابع ووضعهم داخل الأمة فى موقع يجعلهم يمارسون الأعمال الخدمية خاصة حراسة المنازل.

ستستمر دراستى فى طرح بعض الأفكار العنصرية الشائعة التى تقدم تصورات عن النوبيين ناتجة عن عدم الاعتراف بهويتهم المصرية حيث ارتباطهم بتاريخ العبيد فى جنوب الصحراء الأفريقية الكبرى. وفى مصر هناك وعى شعبى من قبل المصريين عن النوبة كمكون ثقافى تابع من إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. على الرغم من الموقع الجغرافى فى القارة يتصل بالمناقشات التى تدور حول النوبيين المعاصرين من حيث منزلتهم الاجتماعية وذلك ليس بمنأى عن عملهم فى الأعمال الخدمية (كما سلف) كما أن اقتران العبودية بهم كأفارقة وضعت النوبيين آنياً ضمن أمة متكاملة وحددت مكانتهم فى وضع التابع.

قضيت عامين من العمل الميدانى الأثنوجرافى[4] لتصوير حالة النوبيين فزرت متحف النوبة وكذلك قمت ببعض الجولات السياحية بين أعوام ١٩٩٧-٢٠٠٢. وفى أغلب الأحيان كنت أصادف المناقشات فى مثل هذه الأمور وأعلم أننى سأجد بعض التصورات العنصرية التى تعترض وجود النوبيين بصورة حسنة فى وسائل الإعلام مما يعيد صياغة وفهم واقع النوبيين وفق شروطهم الخاصة دون التوقف أمام المزاعم التى تؤكد أو ربما ترفض وجود التمييز العنصرى الذى يهمش النوبيين على الرغم من الملاحظة اليومية التى تظهر فى الصحف شبه الرسمية المصرية التى تؤكد وحدة الوطن وأن مصر ليست دولة عنصرية وليس لديها انتماءات عرقية أو أقليات. فى مثل تلك الظروف تبرز المناقشات العالمية حول الجنوسة[5]، الانتماء العرقى، والأقليات ومثل الديمقراطية التى تفرض مبدأ المساواة بين المواطنين. فى مثل تلك المناقشات تبرز مصر من بين الأمم - على سبيل المثال - مجسدة تاريخ التمييز العنصرى الحقيقى (كالولايات المتحدة وجنوب أفريقيا)، وخطر العرقية، والحركات الانفصالية (مثل المقاومة الكردية فى الولايات المتعددة) أو الفعلية مثل الحرب الأهلية فى السودان. عامة، تلك النماذج - بكل تأكيد - تطغى على كل المناقشات حول موضوع العنصرية الذى يمارس ويتكرس تجاه النوبيين فى مصر. على الأرجح: أتمنى إمعان النظر فى الأمور المعقدة آنياً وعدم غض الطرف عن التطور التاريخى الذى تمثل فى تجسيد المناقشات العنصرية التى استندت أساساً على التلازم التاريخى الاجتماعى بين النمط النوبى الظاهرى واللغة والثقافة التى زاوجت بين الطبقة الاجتماعية والجنس.

للمزيد من التوضيح، لون البشرة المصرية يمثل أساس الكشف عن الهوية الشخصية الجماعية مثل «الأسود» - «الأبيض» أو أى لون آخر. والأكثر أهمية الطبقة الاجتماعية، الإقليم، الدين ثم الأصول العائلية العريقة. والكثافة السكانية أصلا فى منطقة النوبة تحوى اختلافا شاسعا فى لون البشرة وقسمات الوجه، مثل كثير من الملامح التى تسم بقية سكان أقاليم مصر. بدءا من بهتان اللون حتى توسطه سمار (ما يطلق عليه اللون القمحى) مروراً بالاسم وانتهاء باللون الأسود، وتلك الاختلافات تجعل بعض النوبيين يمتعضون من أن ينعتوا بالأسود عوضا عن الأسمر أو أى لون آخر.

النوبيون على امتداد مصر من القاهرة حتى أسوان لا ينظر إليهم إلا كحاملى البشرة السوداء بما ينسب إلى من يقال عنه زنجى أو إفريقى الملامح، على سبيل الذلة أو المبالغة أو الابتذال أو الأفكار الشائعة التى تدل - ضمنا - على أنهم أفارقة غير مصريين مع دوام التجاهل لوجودهم وحجب الأصول النوبية عن التعريف بها. فضلاً عن أنهم يرفضون التسليم جدلاً بأن اللون القاتم يكشف عن البدايات الأفريقية. ومفهومهم هنا يندرج تحت الانتساب إلى الصحراء الأفريقية الكبرى وليس إلى مصر.

فصل من كتاب:

Cairo Cosmopolitan
Politics, Culture, and Urban Space in the New Globalized Middle East
(القاهرة الكوزموبوليتانية)
Edited by: Diane Singerman and Paul Amar
AUC Press, Cairo- New York

ترجمة: عفاف عبد المعطى

.. لعلك بخير .. أحزان نوبية!!

اليزابيث أ. سميث



زلة قلم

تعد منطقة عابدين بوسط مدينة القاهرة محور التواجد الاجتماعي للجيل الأول من النوبيين مثل السيد على الذي ولد وترعرع في إحدى القرى النوبية العتيقة التي وجدت قبل عام ١٩٦٠ ثم انتقل كثير من النوبيين إلى الإقامة في القاهرة منذ النصف الأول من القرن العشرين عندما هاجر آباؤهم وأجدادهم من النوبة سعياً إلى مدن الشمال الوثيرة.

عادة عمل المهاجرون النوبيون الأولون في الوظائف الخدمية كأن يكونوا حراس عقارات أو طهاة في قصور الأحياء الراقية أو في العمارات السكنية الفارهة أو في الفنادق في المدينة التي كان معقلها آنذاك في يد السلطة السياسية. أما الآن فيجتمع النوبيون في عابدين حيث التجمعات الثقافية النوبية. وكذلك جمعية قرية أرمينا الأهلية التي نشأت بمبدأ الاعتماد على الجهود الذاتية فضلا عن تقديم مساعدات خدمية مادية للنوبيين مثل المساعدة في إخراج جنازة أو تقديم بعض الأشياء الترفيهية أو المساعدات التربوية مثل تعليم دروس العربية والإنجليزية. فهو مكان للتجمع الاجتماعي والسعي للتعاون المتبادل بين أبناء النوبة.

الجمعيتان(أرمينا والتراث النوبي) كانتا - لمدة طويلة - معقلا لإيواء الجماعات النوبية المنشقة التي لا تحمل هوية رسمية والتي فرت من النوبة هرباً من فيضان السد وكتعويض مناسب لها ومن العمل في الأعمال الخدمية مثل المدارس النوبية - رويداً - منذ العشرينيات من القرن الماضي (صالح - ٢٠٠ - ص٢٥٩ - ٢٦٠).

تأسست الجمعيتان كمركزين مستقلين قبل أن توجد وزارة الشئون الاجتماعية الحالية التي تسجل كل الجمعيات الأهلية الآن بوساطة مراقب منها مع تقديم إشعار رسمي بدعم مالي بسيط من قبل الوزارة. تقع الجمعيتان بين منطقتين رئيسيتين ارتبطتا إبان عهد الخديو إسماعيل في القرن التاسع عشر في منطقة قصر عابدين ومنطقة ميدان

التحرير بوسط مدينة القاهرة. فى مبنى سكنى بعد عدد من المقاهى المزدحمة والمتاجر وكذلك المسجد[7].

حدث اللقاء الذى دعا إليه السيد على جميع المتخاصمين (خيرى شلبى والكتّاب النوبيين) فى جمعية التراث النوبى وكان أحد الحضور الروائى النوبى عضو الجمعية حجاج أدول الذى اعتذر لخيرى بشكل شخصى فى مقال تحت عنوان (خيرى الجميل .. لعلك بخير) أو بالنوبية (خيرى آشرى.. ماس - كاجنا) (أدول ٢٠٠١). دافع أدول فى مقاله عن خيرى شلبى كأحد المثقفين المصريين القلائل الذين يحظون باحترام النوبيين عندما كتب أوائل عام ١٩٩٠ عن الأدب النوبى[7] ومن ثم كان أول من استخدم هذا الاصطلاح مشيرا إلى نصوصهم، بينما لم يذكرهم نقاد الأدب المصريون سوى بشكل عدائى ومن هنا قُمت هذا الأدب بالعنصرى والانفصالى (أدول ١٩٩٣) وقد اعتذر عن شلبى الذى نعت قهوة النوبيين بقهوة البرابرة ، وقد اعتبر ذلك الخطأ مجرد زلة قلم ذلك لأن خيرى شلبى نفسه على خلاف آخرين من المثقفين لم يكن عنصرياً ، وعلى ذلك لم يقصد -خطلا- أن يؤذى مشاعر النوبيين.

على أية حال، استطاع أدول أن يرى شلبى كما جعل أدول ذلك الحدث فرصة لإثارة الانتباه إلى ثلاث قضايا طالما ظلت مؤرقة باستمرار للنوبيين. الأولى: استنكاره للاستعباد لأى بشر يحملون البشرة الداكنة (سمراء كانت أم سوداء) خاصة فى وسائل الإعلام المصرية. الثانية، ناقش اتهام النوبيين بالانفصالية لأنهم يتكلمون وينمون إحياء إنعاش اللغة النوبية. الثالثة: انتقد أدول إخفاق الحكومة فى تعويض النوبيين الذين فقدوا مأواهم فى القرى النوبية ومن ثم بدأ ترحيلهم منذ ١٩٦٠.

خلال مقالته انتقل حجاج أدول للحديث عن ثلاث قضايا فى لغة معبرة تحمل قدرا من الانفعال بالقضية التى يطرحها عن حقوق المواطنة للنوبيين ذلك الحق الذى تجسد - على حد سواء - مع التحكم الرسمى الإعلامى الذى يتغافل عن لون البشرة ، وحقوق اللغة النوبية على سبيل الاعتراف بها كجزء من التراث الوطنى وحقوق النوبيين المدنية وكذلك التعويضات التى كان يجب أن تمنح لهم من قبل الحكومة المصرية نظراً لفقد مأواهم.

أولا أشار مقال أدول فى استهلاله إلى أوائل الستينيات حيث كان التلفزيون المصرى يقع تحت سلطة وزارة الإعلام قائلاً: هل شاهدت مذيعاً أو مذيعة سوداء فى تليفزيون مصر؟ منذ نشأة تليفزيون ماسبيرو الفاضل وحتى الآن لم يقبل أى من أصحاب البشرة السوداء ليعمل كمذيع أو مذيعة. ربما من هو أسمر خفيف، لكن السود، لا . وكأن اللون الأسود عورة تجلب العار على مصر وتفضح افريقيتها. (أدول ٢٠٠١) . لقد انصب جداله على أن لون البشرة الداكن إنما يدل ضمنا على الانتساب لأفريقيا ، مما يؤول إلى خلل اجتماعى مُخز يجلب العار على مصر وكأن اللون الأسود يجلب الخزى لها ويفضح افريقيتها ثم يستمر أدول قائلاً «علينا أن نصمت وكأننا لسنا مواطنين مصريين. علينا فقط أن نضحى من أجل الوطن الكبير مصر ونؤدى ما علينا من واجبات لكن ليس من حقنا أن نأخذ مالنا من حقوق؟ أو أننا لسنا من نفس المستوى الذى عليه أصحاب اللون القمحى أو الأقرب إلى البياض؟» (أدول ٢٠٠١).

استمر أدول معربا عن قلقه لأن بقاء اللغة النوبية مرهون بالترجمة وكأن فى ذلك ميولا انفصالية تؤدى إلى الهجوم على اللغة العربية وتقسيم وعزل النوبة إيذاناً باستقلالها. لكن ذلك - حقيقة - نوع من «الكلام المُرسل» وفى النهاية شدّد على أن الحكومة المصرية يجب أن تلتزم بوعدها الذى يبلغ من العمر أربعين عاما متمثلاً فى تعويض أولئك الضحايا الذين رحلوا عن مأواهم بالنوبة جراء بناء السد العالى بعد أن انهال عليهم الفيضان مما حال دون استقرارهم آنئذ. ومن ثم، عرفوا بالمغتربين أو المهاجرين الرحل، ثم لم يتسلموا مأويهم ويرتحلوا الى النوبة الجديدة على الرغم من الوعود الأولية التى آلت بها الدولة على نفسها.

قرر أدول أن إلصاق صفة البرابرة بالمقهى (قهوة البرابرة) إجحاف مشابه لعدم ظهور ذوات البشرة الداكنة فى وسائل الإعلام التى لم تكن بمنأى عن حقوق المواطنة ووطنية النوبيين الذين ضحوا ببيوتهم ووطنهم من أجل الأمة : ولم يكن جزاؤهم سوى الاتهام بالانفصالية[8].

يقع المقهى[9] الذى حدده خيرى شلبى فى مقاله بميدان التحرير الذى يرتبط بشارع ممتد حتى ميدان عابدين وأيضاً يقع فى منطقة مركزية إلى جوار أحياء مهمة منها قصر النيل والأزبكية وكذلك بولاق حيث يذكر التاريخ نزوح معظم النوبيين إليها من أجل العمل والإقامة (جيزر١٩٨٦) . عامة أطلق على هذا المقهى «مقهى البرابرة» نظرا لتردد العمال النوبيين والسودانيين عليه. إضافة الى قربه من أماكن عملهم بوسط المدينة وكذلك بأماكن إقامتهم. هكذا تم تداول مسمى «قهوة البرابرة» وقد دعمه استقرار مجموعة من النوبيين مكانياً وعنصرياً فى الطريق المؤدية إليه. بما يجعل التنافس -حتى اليوم- علنياً لإثبات وجودهم ومن ثم تجاوز تلك الفكرة.

على الرغم من أن الرجال النوبيين المهاجرين كانوا يعملون كأجريين[10] فى الأحياء المصرية المتمدنة وذلك بعد أن انتهى[11] زمن الرقيق/ الاستعباد مع نهاية القرن التاسع عشر ، ثم حل النوبيون محلهم فى أماكن الخدمة كأجريين حيث حافظت الطبقة الأرستقراطية نفسها على أن يكون لديها النظام الخدمى السابق لكن بوساطة النوبيين. ثم أن شغل النوبيين لتلك الوظائف والظهور عبرها ارتبط فى الوعى الشعبى العام أو فى العقلية المصرية السائدة بالعبودية أو بما يشبه الرقيق. لذلك، بات طبيعيا «التلازم» بين الاستعباد والأشغال الشاقة فى الذهن العام بما يتناسب بشكل خاص مع ذلك العمل (فيرنا وجيرسير ١٩٧٣-ص٣٦-٣٧).

إن تسمية «البرابرة» ترتبط ليس طبقاً للموقع الجغرافى الحضرى للقاهرة فحسب؛ بل أيضا فى الإسكندرية ومدن القناة كعلامة على وضع الطبقة الدنيا فى موقع الخدم لدى الأغنياء والشغل لدى الأرستقراطيين والمحتلين الأجانب.

صورة النوبيين التى أناقشها هم الذين تبعوا نهج البرابرة ، العبيد، الأفارقة أو السود وقد استفحل إنتاج تلك الصورة خاصة فى الأماكن المتحضرة التى ترتكز فى القاهرة، وتكرسها وسائل الإعلام والجرائد الرسمية وكذلك المتاحف. وفيها يتم مناقشة الحيز الأساسى الذى يحتله هؤلاء النوبيون فى المدن وكذلك فى الجمعيات الثقافية، على أية حال: فما سأراه هو الذى سيبين إن كان النوبيون مع أو ضد أوضاعهم مفاضلة حسب شغر أماكن إقامتهم وكذلك الطبقة الاجتماعية والجنس.

لا يعزف النوبى على لحن العبودية

هناك لغتان يتحدثهما النوبيون عموماً هما الكنوز والفدكا وهى التى تمثل العلامة البارزة للاختلاف النوبى فى مصر، بالإضافة إلى بشرتهم القاتمة وتجربتهم المشتركة فى الهجرة والترحال.

حجم الكثافة السكانية فى مصر كان أساسيا فى صعوبة تقدير عدد النوبيين المجاثر ولا يوجد مصدر إحصائى يشير بوضوح إلى أن النوبيين معدودون حسب الإحصاءات السكانية المصرية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، بينما مثلوا نصفا فى المائة من عدد السكان الكلى فى مصر عام ١٩٦٠ وقد خمن جيسر أن العدد التقريبى للنوبيين المصريين كان ١٥٠ ألف نسمة عام ١٩٧٠ (جيسر١٩٧٣-ص٨٦-٥٩) بينما يمكن أن يقدر عددهم عام ١٩٩٣ ثلاثمائة ألف نسمة.

ولأنهم يتكلمون لغتى الكنوز والفدكا لذلك فاللغتان لا قيمة لهما من حيث التداول القواعدى والتاريخى بين النوبيين وغير النوبيين. مقابل تداول اللغة العربية فى مصر. على الرغم من أن بعض النوبيين قد يتكلمون بهما منذ دخول الإسلام إلى النوبة خلا الثلاثة عشر أو الخمسة عشر قرناً الماضيين. بينما استبدلت الأبجدية النوبية بأسلوب الكتابة بالعربية فى عام ١٩٨٠، على الرغم من أن أستاذة العلوم الإنسانية عالية رشدى قد وجدت السواد الأعظم من النوبيين يتحدثون بشكل ثنائى اللغة (نوبى/عربى) إلا أنها لاحظت تغيرا شديدا فى أسلوب نطق اللغة العربية الفصحى لديهم (رشدى١٩٩١).

إن مجموع الذين يعرفون اللغتين النوبيتين (الكنوز/ الفدكا) قراءة وكتابة قضوا طفولتهم المبكرة فى النوبة القديمة فنشأوا طليقى اللسان فى إجادة الكلام بلغتهم الأصلية. أغلب هؤلاء الرجال - الذين يعملون فى وظائف منهم المحاسبون ورجال الأعمال والروائيون - جاءوا إلى القاهرة أساساً للدراسة فى المرحلة الثانوية أو للتعليم الجامعى. ربما يكون قبل أو أثناء عامى ١٩٦٣، ١٩٦٤ ، ارتحلوا ، تزوجوا من النساء النوبيات ثم استقر لهم المقام كأسر فى القاهرة. لذا، بات قلقهم شديداً لأن لغتهم الشفوية مُحيت لأنها لا تستخدم سوى فى المنازل، كما أن الأجيال الصاعدة منهم لا تتعلمها. لذلك تعلم الكتابة النوبية لا يحتفظ بوجودها فحسب بل يثبت بالفعل أنها كانت دارجة فى الاستخدام وليست مجرد لهجة عارضة.

تعلم اللغة النوبية هو المشروع الأول من نوعه فى مصر الذى بلغ ذروته لمدة خمس سنوات من قبل اثنى عشر متحدثا من مصر والسودان وقد انتعش استخدام اللغة كمستند دال على النوبة فى العصور الوسطى أساساً عند الأقباط واليونانيين

، والكتاب الذي ذكر ذلك انتهى عام ١٩٩٩ تحت عنوان «تعلم اللغة النوبية بالدكا والتكنوز على التوالي». وكان فى الأصل أطروحة لنيل رسالة الدكتوراه للدكتور مختار خليل كبارة. وفى الأساس كانت أطروحة كبارة عن المصريات ونالها من مدينة بون بألمانيا ومصادره التى استخدمها كانت المخطوطات المسيحية التى ظهرت فى العصور الوسطى ومن ثم تناولت النصوص النوبية كى تكشف عن أن الأبجدية يمكن أن تتاح للكتابة بكل اللهجات المعاصرة.

دعانى بهجت يوسف -يعمل محاسبا- وبشير عبد الغنى وهو الآن موظف حكومة متقاعد إلى جمعية أبو سمبل حيث تحدثنا واحتسينا الشاى. ضم معبد أبو سمبل جدارية عملاقة تغطى الحائط فى الغرفة الرئيسية وكانت تصور الفرعون رمسيس الثانى صاحب المعبدين فى أبو سمبل.

فى عام ١٩٦٠ نقلت هيئة اليونسكو المعابد القارة فوق المياه المتدفقة خلف سد أسوان ، وفى الآن نفسه ارتحل النوبيون المصريون لقرى جديدة فى شمال أسوان على مرأى من حملقة رمسيس لجمعية أبو سمبل التى تحوى أعضاء وأصدقاء يجتمعون على تدخين الرجيلة ولعب الطاولة أثناء مشاهدة التليفزيون القابع أمامهم. وفى إحدى ليالى رمضان فى ديسمبر ٢٠٠١ جلسنا فى غرفة الاستقبال فى المكتب مستمتعين باحتساء الشاى أنا وبهجت وبشير وأخذت أشرح لهما طبيعة ما أقوم به من بحث ثم جاء أحد أعضاء الجمعية ليرحب بى ثم ذكر عضواً آخر من أعضاء الجمعية أنه أرسل مؤخراً خطابا يحوى شكوى لمحطة التلفزيون المصرى الأولى مدارها حول إذاعة إحدى مسلسلات رمضان التلفزيونية فى رمضان وكانت قصة المسلسل إحدى مؤلفات الروائى المصرى نجيب محفوظ الذى فاز بجائزة نوبل وكانت تحت عنوان «حديث الصباح والمساء» قصتها تدور زمنيا فى القرن التاسع عشر، بطل المسلسل ارستقراطى فاسق تزوج آخر حياته من خادمته السمراء المسماة «جواهر» بينما تركت زوجته الأرستقراطية وأولاده. وعلى ما يبدو كان احتجاج نادى النوبيين المقدم إلى قناة التلفزيون نظراً لظهور شخصية جواهر على الشاشة بشكل غير لائق، كما كانت الخلفية الموسيقية للمسلسل موسيقى من التراتيم النوبية . طبيعة اعتراض الجمعية هو حقيقة أن النوبيين لم يستعبدوا هكذا، فضلاً عن أن شخصية جواهر لم تكن نوبية. لذا، فقد تصرف مبدعو المسلسل بشكل غير لائق إثر بثهم للموسيقى النوبية كخلفية للمسلسل المعروض على الشاشة.

مثل حجاج أدول وبعض المثقفين النوبيين الذين حضروا إلى جمعية التراث النوبى وأعربوا عن قلقهم الكبير لعرض صورة النوبيين وتكريسها بشكل سيئ فى وسائل الإعلام التى تظهرهم فى أعمال مهنية أدنى كحراس منازل أو خدم بما يعكس تأدب ذوى الياقات البيضاء الشديد كيف يكون؟. ولتقدير درجة قابلية طبقة النوبيين للهجرة مثل الكثير من الريفيين وخلال مرحلة التعليم دخل ذوو الياقات البيضاء إلى المهن المختلفة مثل غيرهم من المهاجرين وفى داخلهم إيمان بتصحيح الصورة المشوشة عن النوبيين كأحد أبناء صحراء افريقيا الكبرى و/ أو باعتبارهم فى الأصل عبيدا بدلا من كونهم أبناء وادى النيل، وفى موازاة ذلك يأتى اعتراضهم على إلصاق صفة البرابرة بهم.

يريد النوبيون -أيضاً- أن يمحوا الأفكار الإعلامية التى تتكرر دوما عنهم فى الأفلام المصرية القديمة التى تصور الفترة ما قبل ثورة ١٩٥٢، كما يعاد الأمر نفسه دوليا أكثر عبر تلفزيونات القمر الصناعى. تجسد هذه الأفلام تاريخ النوبيين على أنهم فى المنزلة الأدنى خلال الحرف التى يعملون بها فى الأعمال الخدمية داخل سياق حياة المدينة. إن ارتباط فعل الاستعباد بالنوبيين أنفسهم كخدم مرفوض على مستويات عدة كما سبق أن أسلفنا، فقد اعتبر النوبيون مناسبين أكثر للعمل فى الأعمال الخدمية بسبب الاقتران التاريخى بالمحو (أى إلغاء وجودهم) وأيضاً نظرا للمهن التى يعملون بها فى المدن.

شارك النوبيون أنفسهم فى تجارة العبيد كمالكين لهم، وقد أدى ذلك النور كبار السن من أجيال النوبة الأولى فى أواخر القرن التاسع عشر، اثنان من البرابرة من قرية «أبريم» فى النوبة كانوا المسئولين عن توريد العبيد إلى الشمال حيث مدينة القاهرة، كما كونا سوقاً للعبيد فى الإسكندرية (واليز-١٩٧٨- ص٢٤٧).

استجلب النوبيون العبيد بشكل خاص من مناطق النوبة الجنوبية من بين «الكشاف» وقبائل ملاك الأراضى التى تؤرخ أصولهم إلى الاحتلال العثمانى للنوبة الذى كان فى القرن السادس عشر، مما سمح بالتزاوج بينهم



قرر أدول
أن إلصاق صفة
البرابرة
بالمقهى (قهوة
البرابرة)
إجحاف مشابه
لعدم
ظهور ذوات
البشرة
الداكنة فى وسائل
الإعلام

وبين سكان الأرض الأصليين (فراز وجاريسترز١٩٧٣، ص١١ ـ ١٢).

العائلات المستعبدة وكذلك سلالاتهم شكلوا جزءا من صغار المزارعين الأجريين بلا أرض (حامد ١٩٩٤) حتى مرحلة الانتقال فى عام ١٩٦٠ كانت التجمعات النوبية تمثل مصالح الأسر من ملاك الأرض فى المدن (حامد ١٩٩٤- ص١٣٩) هكذا كان مجتمع امتلاك العبيد لديه نفسه إجحاف تاريخى عميق حيث حدد أماكن العبيد الحاليين والمزارعين السابقين ذوات الأصول الإفريقية فى وضع اجتماعى أدنى(للمزيد عن موضوع العبودية فى النوبة انظر فرنانند وجاستر ١٩٧٣ ص ٣٦، واند «كانشا» ١٩٧٨- وكينيدى ١٩٧٧- ١٩٧٨ ووالز ١٩٧٨) .

أيضاً كان الاعتراض النوبى على المسلسل التليفزيونى الرمضانى هدفه المعنى غير الدقيق الذى يجعل النوبيين أنفسهم كانوا مستعبدين مثل الآخرين، كما أن استخدام الموسيقى النوبية قد سهل للمشاهدين إدراك ذلك الأمر فى حد ذاته بما أحدث إساءة للنوبيين فى صورتهم المقدمة عبر شخصية الخادمة.

إن ترسيخ صفة الخدم للنوبيين فكرة شاعت فى الأفلام القديمة ، وقد ساعد وجود وجهة النظر نفسها فى وسائل الإعلام كعامل مهم ومؤثر فى تشكيل صورة عامة عن النوبيين فى المجتمع المصرى بينما تستنهض الجمعيات الأهلية النوبية نفسها عبر الزمن والجهد لمواجهة التصورات الإعلامية التى يرسخها الإعلام المصرى. لذلك يستقرون على مقربة من مبنى الإذاعة والتلفزيون المصرى فى قلب مدينة القاهرة. وهناك -أيضاً- مقار عدة صحف رئيسية مصرية. الأحاديث الإعلامية والمناقشات حول صورة النوبيين كلها تأخذ موضع النقاش فى الجمعيات الأهلية ، والعدد القليل من الأعضاء قد يظهر أو يساهم فى التليفزيون والبرامج الإذاعية كلما أتيح له الحديث فى ذلك. وللمزيد من المساعدة يوفرون لمعدى البرامج الإعلامية مجالا يسيراً للاتصال بالعائلات النوبية والأصدقاء فى أسوان وكذلك فى مواطنهم ببعض القرى.

فضلاً عن تنظيم المقابلات والعمل كمستشارين عندما يسألون عن العادات والتقاليد واللغة النوبية إلى جانب تنظيم الزيارات والأعمال المنزلية.

ليست مناقشات الأعضاء المستمرة -بشكل ثابت- الوحيدة المعبرة عن جهودهم الخاصة، لكن الصورة الإعلامية المنتجة عنهم تحدث دونما يتدخلون . ففى الزيارات

التى شهدتها على مدار صيفين فى ١٩٩٧-١٩٩٩. وكذلك أثناء عملى ٢٠٠١-٢٠٠٢ ناقش الأعضاء قاعدة يرسخونها أسبوعياً لمناقشة ما يُقدم من برامج إذاعية دقيقة وموثوق بها. لذلك فى الروايات والأفلام وأداء الرقصات الشعبية والمسرح والمقالات الصحفية المتعددة فى الجرائد التى تعرض لصورة النوبيين أو موضوعات عن النوبة فى أغلب الأحيان يتذمر النوبيون من عملية البث الإعلامى.

لذا استحث اعضاء الجمعيات الأهلية النوبية بعضهم البعض على استنهاض المسئولية دائماً لتصوير تراث النوبة بدقة لمنتجى الأعمال الدرامية عن النوبة، هذا وإلا يمكن أن يبحثوا عن أى رجل أسمر كبير السن يتلو تاريخهم[٢٢].

ظهور الافريقيين فى التليفزيون

تؤثر جماليات لون البشرة ليس فقط على الأزواج النوبيين لكن ايضاً على جنسيتهم فى مصر. الجمعيات النوبية الأهلية مقصورة بشكل خاص على الحيز الاجتماعى الذى شغله الرجال ومكان العمل. بينما تحضر النساء اجتماعات الجمعيات أحياناً لكن العضوية تُحسب أساساً بقدر الرجال المعيلين (جيزر ١٩٨٦) على أية حال، فى الاجتماعات المنتظمة لجمعية التراث النوبى يركز الأعضاء على تعلم اللغة النوبية على أن يكون الرجل فى الجمعية سفيراً فى العضوية- لكل من السيدة والأسرة. وعلى الأغلب لا توجد زوجات ولا أمهات ولتجسيد صورة بنات القرية النوبية الجديدة عموماً والقرى النوبية فيها الواقعة عند مدينة أسوان. فقد ظلت مصادر للعادات والتقاليد النوبية التى من الضرورى أن تُحمى. وفى ظل غياب البؤرة الجغرافية منذ عاش أهل النوبة كبار السن الأصليون فى المكان ظهر الحنين إلى الأصالة النوبية الريفية التى تشعر بها نساء القرى أنفسهن اللاتى يمثلن صورة مجسدة للتقاليد واللغة وطريقة الحياة النوبية القديمة، بينما الرجال -وهم يخوضون غمار الحياة المدنية المتسارعة. يشعرون بالحنين إلى الحياة النوبية الأصيلة فى الريف التى تجسدها نساء القرية أنفسهن.

كانت زينة إحدى المصادر الحقيقية للعادات والتقاليد النوبية التى يتعلم عنها أعضاء الجمعية بالقاهرة بشكل مُغرم بها. كانت رقيقة يبدو عليها امارات الذكاء على الرغم من أنها تبدو صغيرة فى بدايات العشرينيات تعيش فى مدينة أسوان، تدرس زينة فى جامعة جنوب الوادى[٢٣] التى تقع فى منطقة وسطى بين القاهرة وأسوان لأبوين من كنزى وفدكا وذلك نادر، غادرت زينة أسوان ولم تستقر نهائياً فى قرية نوبية، ولم يكن لديها رغبة لتعلم قدر من اللغة النوبية الدارجة.

أثناء عيد الأضحى فى فبراير ٢٠٠٢ الذى يأتى بعد شهر رمضان بشهرين تكلمت زينة عن الاحتجاج الذى قام به النوبيون نتيجة للخلفية الموسيقية التى وضعت فى المسلسل التلفزيونى الذى أذيع فى رمضان مترافقاً مع شخصية جواهر الجارية فى المسلسل.

سافرتُ من القاهرة إلى أسوان لقضاء عطلة نهاية الأسبوع مع زينة وأسرتها. بينما كنا نستمتع بمشاهدة التلفزيون فى اليوم الثانى من العطلة إذا بعرض إعلان جديد عن مسحوق منظف يُدعى «إريال» تمثل فى الإعلان امرأة نوبية تعمل خادمة فى أحد فنادق أسوان السياحية. وبأسلوب عمل الشركات متعددة الجنسيات لابد أن يرسخ وجود مسحوق «إريال» وأن لا يكون هناك بديل عنه كمنظف أوحد. وتليفزيون توشيبا يعرض الإعلانات التى ترسخ تلك الأفكار التى يجب ان تشيع فى كل أقاليم مصر. فى إعلان مسحوق «إريال» التجارى عبرت الخادمة النوبية عن النظافة الهائلة التى جعلت ملابسها وملابس أسرتها وخلوها من البقع بعد استعمال نوع مسحوق «إريال» كما يقال فى النوبة أى كل شىء جميل قالت هى بالنوبية كله (آشرى).

عندما بدأ إذاعة إعلان مسحوق «إريال» التجارى سألتنى زينة: هل رأيت إعلانات أخرى، قلت رأيت إعلان سمن «روابى» حيث كانت النسوة النوبيات يغنين ويرقصن فوق مركب يتحدثن شاكرات فى مذاق الطعام بعد الطبخ بـ«روابى»! لا .. قالت زينة مشيرة إلى الرجل النوبى الذى يرتدى زى الرقص الشعبى النوبى، كان يرقص ويطبل مغنياً بالنوبية «إيكا ديللى» أى «أنا أحبك».

قالت زينة «إنها أثناء الدراسة فى أسيوط عندما كانت هى وبعض زميلاتها فى الغرفة من غير النوبيات اللاتى أتين من مدن مصر العليا شاهدن التليفزيون فى بيت الطالبات وعند الإعلان قالت إن زميلاتها استمررن يقلن بأسلوب يؤكد ان التليفزيون يقدمهن كأفريقيات، وأن زميلاتها لا يفهمن أى شىء، ولأنهن جهلة جداً، فقد أردت أن أخبرهن ما الذى آل بنا إلى هذا الحال؟ لأننا كنا كنوز وكيناف لكن كيف أفهمهن التفاصيل وهن حتى لا يعرفن أين تقع كل من أسوان والنوبة على الخريطة وبأنهما جزء حقيقى من مصر. عن المفترض أن ينشأ جيل من الشباب الذى يعلم كل ما حوله».

تنهدت زينة بعد ما سردت لى تلك القصة، فما أفرز هذا الحال الإعلان المتعلق بأسلوب الشركات متعددة الجنسيات، فضلاً عن استعمال اللغة النوبية التى ربما تشير إلى أن النوبيين غير مصريين. استمر كلام زينة حيث إن زميلاتها -أثناء عرض المسلسل الرمضانى- كنّ يدعونها بـ«جواهر» نسبة إلى بطلة المسلسل السوداء، بدون سبب لم ترد أن تسبر أغوار هذا السلوك، لم يكن فى غرفة زينة فى سكن الطالبات تليفزيون فضلا عن أن دواعى الدراسة كانت تشغلها كثيراً عن متابعة الكثير من برامج ومسلسلات التليفزيون فى رمضان، لكنها قالت: «خلال الشهر وجدت إحدى زميلاتى تدعونى «جواهر» ولم أعرف لماذا؟ اعتقدت أنها ربما تريد أن تنسبنى إلى «جواهر» مطربة الأغنيات الشعبية السودانية، لكنها ليست نوبية، إنها سودانية، وبالطبع هناك اختلاف كبير، أخيراً سألتها لماذا تنادينى بـ «جواهر»؟ قالت: «ألا تشاهدين المسلسل التلفزيونى؟» إنها الخادمة التى تزوجت من سيدها الأرستقراطى» .. اعتقدت أن زميلتى كانت تنادينى بذلك إيماناً منها بأنها بيضاء وجميلة جداً بينما لأننى سمراء فلست كذلك».

وعند المواجهة مباشرة مع تلك الفتاة-شريكتها فى الغرفة- غيرت صورة التلازم الذى يطابق بين جواهر/ الجارية التى تُشاهد كخادمة فى المسلسل التليفزيونى، مع تواصل مشاهدة وسائل الإعلام اكتشفت زينة خطأ المطابقة الذى تعقده زميلاتها بينها وبين جواهر بما يسمها بأنها إفريقية من أصول العبيد أو التعبير صراحة عن القبح نظرا لسواد بشرتها.

لقد باتت تشرح يومياً سوء فعل المطابقة الذى يحدث نتيجة لهذا الخلط والذى يرجع الى الجهل بالتاريخ واللغة والتحيز للون البشرة باعتباره دلالة على الجمال. عندما أعادت على ذكر الحكاية بدا على زينة قدر من الامتعاض من جهل زميلاتها بالأصول النوبية، كما اشمئزت من التقييم الذى يتم داخل غرفتهن المشتركة والقائم على أن البياض هو مقياس الجمال الخاص، كما اعتبرت زينة أن هذا التصرف من قبيل التفكه (النكتة) نظراً لأن قاعدة الاعتراف بها يستند تقييمه على لونها . مع افتراض أن كل شخص قاتم اللون مثل جواهر يقترن بصورة ما بتاريخ العبودية أو بالأفارقة بشكل عام. رغم أن زينة انزعجت - أيضاً - نظراً لعدم معرفة زميلاتها بموقع النوبة الجغرافى فى مصر ومن ثم معرفة تفاصيل تاريخها كما لا يعرفن مطلقا أين تقع النوبة على الخريطة؟ بما يشكل جزءاً من مصر. كما حدد حجاج أدول حجته حول موضوع قهوة البرابرة من حيث حقوق المواطنة كذلك اضطربت زينة من زميلاتها اللاتى لا يعرفن بأنهن جميعاً مواطنات مصريات .

ليس إفريقياً .. بل نوبياً

ربما يشترك النوبيون - أيضاً - فى التقييم السلبى لكل حاملى البشرة القاتمة عامة بين المصريين ، فأثناء الاحتفال نصف الشهرى بجماعة الفدكا شاهدت فى تلك السنة الروائى يحيى مختار الذى أهدانى روايته الصادرة أخيراً «جبال الكُحل» ٢٠٠١ ، وقد اخبرنى عن الحافز الذى دفعه لكتابة هذه الرواية، وغيرها من النصوص وثيق الصلة بالارتحال وحياة الأجداد النوبيين على مقربة من سد أسوان وذلك من أجل مستقبل الأجيال التالية عليهم جيلا بعد جيل، لكن مقام النوبيين الكبار لم يعد له وجود.

رواية مختار «جبال الكُحل» تنتقد تصرف الحكومة تجاه انتقال النوبيين من قراهم متضمنة الصورة المتخيلة للروائى حيث تجسد رؤية النوبيين فى الصحف الرسمية، تصور الرواية الترحال من خلال شخصية المدرس النوبى «على محمود» عبر المفكرة التى يدون فيها فترة تعليمه فى القاهرة وقبلها سنوات المرحلة الثانوية التى قضاها فى المدرسة الحكومية «عنيبة» فى النوبة القديمة.

أعطاه عمه كُتيبا يدعو الى الانتقال من منطقة الإقامة فى النوبة ، وقد نشر قبل الرحيل منذ أكتوبر ١٩٦٣ حتى يونيو ١٩٦٤ بوزارة الشئون الاجتماعية المصرية ضم غلاف الكتاب صورة لثلاثة وجوه لرجل وامرأة وطفل صورت من الجنب

(بروفيل) وهم يرتدون الملابس النوبية كرؤية رمزية للواقع الاشتراكي الحديث، أصدرت إدارة العلاقات العامة بوزارة الشئون الاجتماعية الكُتيب الذي اكتسى بثلاثة ألوان الأسود والأسمر والأخضر الذي يحمل رمز الصقر والاتحاد الاشتراكي، كُتب العنوان بنمط الأحرف الكبيرة:

آن الأوان للذهاب إلى النوبة الجديدة

قرأت: «حان وقت العمل الثوري» تحت العنوان كانت صورة رجل وامرأة وابنهما رمزاً للأسرة النوبية ، ثلاثتهم كانوا يبتسمون، لكن وجوههم لم تكن نوبية ، بل كانت قسماتهم إفريقية مثل الزنوج تماماً، شفاه سميكة جدا وأنوف مسطَحة، بقية الغلاف كان عبارة عن أشكال لمجموعة من البيوت النوبية الفقيرة الموجودة في كوم أمبو. جمعت الصورة مثالا للقرية النوبية الجديدة التي تضم المدرسة-المصنع-المسجد-المستشفى ويطوق كل ذلك حقل أخضر.(مختار ٢٠٠١ ص ٦٥)

صدر الكتيب الحكومي لتعبئة النوبيين معنوياً للتطلع إلى الحياة الفارهة عبر الانتقال ضمن إطار اجتماعي للرحيل طبقاً لمحددات ثورة جمال عبد الناصر الجديدة، انتقد يحيى مختار الوجوه الثلاثة على غلاف الكتاب دلالة على الإنسان الزنجي أو معالم الأفارقة السود (شفاه عريضة - أنوف واسعة - لون البشرة الأسود) بما يفهم بأنهم نوبيون بينما هم ليسوا كذلك.

طبقاً لرؤية مختار تمثل هذه الصور قدرا من جهل السلطات الحكومية المصرية التي أصدرت ومن ثم نفذت النقل الذي يعتبر النوبيين أفارقة بدائيين ، وبذلك يكونون غرباء اجتماعيا وغير مصريين بطريقة ما.

في غرب أسوان حدث مع أسرة أخرى عندما كانت نورا أولى الحفيدات تبلغ من العمر ستة أشهر سمعت تشيحها «الطفلة الرضيعة سوداء» تؤكد ذلك كلمات امرأة كانت في منزل نورا في ذلك الوقت.. أشارت: «حسنا.. ماذا نتوقع» تنظر إلى أبويها ثم تعاود النظر إلى نورا الابنة ذات البشرة الأكثر سواداً ، وكذلك إلى صهرها . تقدير نورا كونها الحفيدة الحبيبة أولاً أما التقييم السلبي للون بشرتها الأسمر جدا الذي يطلق عليه(الأسود) بدلا من الأسمر وذلك كنوع من التقليل الجوهري لجاذبية اللون للمرأة أكثر من الرجل ، مما يعرِّض البنت لصغير يعتبر فرص زواجها غير إيجابية ، مما يلزم بشعور بالرثاء لنورا. حدث أيضا في المتحف النوبي أن اعترضت امرأة من غرب أسوان على التجسيد غير الدقيق للنوبيين على أنهم «زنوج» أو «أفارقة».

تحددت القرية التي تقع في عرض النيل بالقرب من محطة القطار في مدينة أسوان فوق كل السدود ، لذا لم يتم نقلها سالفاً مع من انتقلت من القرى، ولم أقابل امرأة في غرب أسوان تعرف يحيى مختار أو يمكن للقلائل منهن أن يجدن القدرة أو الوقت لقراءة روايته، هذا إذا عرفن كيف يقرأن؟ لكن الكل سمع عن متحف النوبة الذي بُني فوق الهضبة كجزيرة عبر النيل في أسوان وكذلك زاروه. بنى المتحف بالتعاون بين اليونسكو والمجلس الأعلى المصري للآثار منذ عشر سنوات حيث تم افتتاحه آخر عام ١٩٩٧في المتحف المصري تستقر آثار كثيرة من النوبة كما يظهر الوصف الاثنوجرافي للحياة النوبية القديمة. كتجمع النوبيين الذي يضم الأعضاء في جمعية التراث النوبي بالقاهرة، مما شكَل قدراً من الاستشارة للمسئولين في الحكومة عند التخطيط لظهور المتحف الاثنولوجي.

قال أحد أعضاء جمعية التراث النوبي في مقابلة لي معه في ٢٠٠١ «نحن مجرد متراس، لا تصدقي ما يقال» بما يُظهر إحباطه واشمئزازه عما حدث من الدولة واليونسكو.

أكثر النساء المتزوجات اللاتي تعرفت بهن كن ربات منازل لم يشتغلن خارج المنزل، مثل نورا وابنة عمها زوبة اللتين استضافتا مجموعة كبيرة من السائحين لزيارة القرية كجزء مستقطع من يوم الرحلة لأسوان. أثناء زيارة منطقة غرب أسوان عام ١٩٩٨ بعد افتتاح المتحف ، شهدت إحدى النساء شجب زوبة للعرض الاثنوجرافي لوضع إحدى النسوة العجائز قائلة: «إن النساء النوبيات كبيرات السن كن أجمل من أولئك المعروضات». كما قالت بأن القائمين على المتحف يصممون التماثيل أكثر سوادا وقبحاً لأنهم يعتقدون أن النوبيين سود إلى جانب ترافق ذلك مع القبح. نماذج تماثيل الشمع المعروضة استندت على صور النوبيين العامة في أسوان لكن صناعتها تمت في شركة في إنجلترا.



هناك لغتان يتحدثهما النوبيون عموماً هما الكنوز والفدكا وهي التي تمثل العلامة البارزة للاختلاف النوبي في مصر بالإضافة إلى بشرتهم القاتمة وتجربتهم المشتركة في الهجرة والترحال

ثم تمت كسوتها بوساطة المسئولين عن المتحف. هذه المرأة وأخريات ممن يعشن في أسوان أو غربها حضرن لمشاهدة ٢١ مليونا من المتحف لتركيز الرؤية الفعلية الجديدة لتاريخ النوبة وثقافتها. الذي غاب إثر استفحال الكثافة السكانية في مصر.

عامة، اعتبروا تصوير النوبيين بدرجة سواد أشد للبشرة إهانة وهو ما يعزز التصورات المصرية حول أن النوبيين أفارقة وليسوا مصريين. بينما بعض النساء في غرب أسوان انتقدن ظهور العارضات في المتحف لمجموعة (سيرينا) من النساء الشابات النوبيات. زرن المتحف وأعجبن كثيرا بالطفرة الحضارية التي أنتجها البحث الحفري منذ ما قبل التاريخ حتى العصر المسيحي المبكر. كما قدروا التوازي بين تاريخ مصر الفرعونية بما يحدثه من ألفة مع الزوار الذين لا يحملون سوى الكتب التعليمية النظرية. وتاريخ النوبة الذي نجسده المصور القديمة.

بعد عيد الأضحى أثناء زيارة للمتحف في مارس ٢٠٠١ كانت بعض العائلات قد أتت من قرية نوبية في منطقة «كلابشة» وظهر أن الإفادة من المتحف إنه يعرفنا بالتاريخ الاجتماعي الذي يحدد موقع النوبة من الناحية التاريخية ضمن نطاق التاريخ المصري الذي يساعد على تمييز النوبيين عن الأفارقة. إحدى النساء الشابات قالت: «بعض الناس باستثناء من ينتسبون الى أسوان.. أولئك من غير النوبيين عامة ، بينما بقية المصريين يتعاملون معنا كأننا من إفريقيا، ولسنا مصريين مثلهم، شعروا بأن المتحف قد يعرِّف بالنوبيين على أنهم من أصول مصرية. وتلك الحضارة قد بدأت من هنا، من الحضارة النوبية».

قدَرت هؤلاء البنات مزاعم المتحف بأن النوبيين حاليا ودائما كانوا مصريين بما يحقق بقوة التصورات السلبية بأن النوبيين أفارقة غير متحضرين بهذا المعنى منح المتحف الهوية المتساوية للمصريين والنوبيين في مواجهة المزاعم الإفريقية عامة.

ولمزيد من التعريف بالقياس الاجتماعي لعدم التمدن النوبي تتصل صفة «الخادم» أو «البربري» بالمهن التي شغلها آباء النوبيين وأجدادهم بدلاً من نظر المجتمع إلى إنجاز الذي حققه خلفاؤهم، كما أن التصورات التي قرَت في الذاكرة الاجتماعية عنهم أنهم في الماضي كانوا في منزلة أدنى، لكن آخرين يؤكدون أن كل

كتاب الزاوية

فى العبودية المختارة

طمع الطغاة

إن الشرارة تستفحل نارها وتعظم، كلما وجدت حطبًا زادت اشتعالاً ثم تخبو وحدها دون أن تصب ماء عليها، يكفى ألا نلقى إليها بالحطب كأنها إذا عدمت ما تهلك تهلك نفسها وتمسى بلا قوة وليست نارًا. كذلك الطغاة كلما نهبوا طمعوا، كلما دمروا وهدموا، كلما موناهم وخدمناهم زادوا جرأة واستقووا وزادوا إقبالاً على الفناء والدمار. فإن أمسكنا عن تموينهم ورجعنا عن طاعتهم صاروا، بلا حرب ولا ضرب، عرايا مكسورين لا شبه لهم بشىء إلا أن يكون فرعًا عدمت جذوره الماء والغذاء فجف وذوى.

إن الشهام لا يخشون الخطر من أجل الظفر بمطلبهم كما أن الأذكياء لا يحجمون عن المشقة. أما الجبناء والمغفلون فلا يعرفون احتمال الضرور ولا تحصيل الخير وإنما يقفون عند تمنيه، يسلبهم الجبن قوة العمل عليه، فالرغبة فى امتلاكه إنما تلصق بهم بحكم الطبيعة. هذه الرغبة، هذه الإرادة الفطرية أمر يشترك فيه الحكيم والملتاث ويشترك فيه الشجاع والجبان، به يودون تلك الأشياء التى يجلب اكتسابها السعادة والرضى. شىء واحد لا أدرى كيف تركت الطبيعة الناس بلا قوة على الرغبة فيه: الحرية التى هى مع ذلك الخير الأعظم والأطيب حتى إن ضياعها لا يلبث أن تتبعه النواكب تترى وما يبقى بعده تفسده العبودية وتفقده رونقه وطعمه. الحرية وحدها هى ما لا يرغب الناس فيه لا لسبب فيما يبدو إلا لأنهم لو رغبوا فيها لنالوها، حتى لكأنهم إنما يرفضون هذا الكسب الجميل لفرط سهولته.

شخص يذكر كلمة «بربرى» بشكل غير متعمد حتى لا تكون إحالة عليهم.

فى ربيع ٢٠٠٢ زارت زينة وأمها وشقيقتها القاهرة من أجل المتابعة الطبية، حاولت إقناع الأم بقبول دعوتى لهن لأن يبقين فى ضيافتى بدلا من الفندق. بينما شددت الأم على رفضها وتمسكت به، ثم شكرتنى كثيراً ثم قالت: «أنا عنيدة، امرأة بربرية، لا يمكن إثنائى عن رأيى» مستخدمة تعبير «معقدة» إشارة إلى نفسها.

كلام عائلتى كل من زينة ونورا فى غرب أسوان، والسيد على ويحيى مختار وحجاج أدول فى القاهرة وكل التجارب المعقدة التى تخلط بين لون البشرة القاتم والانتقال الاجتماعى والمكانى من إفريقيا إلى مصر ومن قرى الجنوب إلى مدن الشمال يجابهه تكرار التأكيد على عكس ذلك.

على الرغم من تفحصى للنقاش حول وسائل الإعلام التى لا تعتبر أن لون البشرة ليس وحده فحسب مقيماً للجمال ذلك من ناحية الفتنة والانجذاب تجاه شخص أسمر(فيرنيا ورشدى ١٩٩١-٢٠٠٠) كان اللون أيضاً مصدرا أساسيا كعلامة على طبقة النوبيين الحالية والسالفة والمفترضة، وكذلك كان مصدراً لشغل الأعمال الخدمية. أحياناً يمكن أن يحدد الأصول الإفريقية للشخص سابقاً أو حالياً سواء كان من أهل العبيد السود على مدار التاريخ أم كان من الصحراء الكبرى الإفريقية المعاصرة وليست أصوله من مصر أو من وادى النيل.

إن الخلط بين اللون والعبودية والسلالة الإفريقية المفترضة تضع - فى كتلة واحدة- الكتلة النوبية والآخرين، كما تتم المناقشات والخبرات بشكل مختلف حول تلك العائلات اللاتى هاجرت من النوبة إلى القاهرة فى النصف الأول من القرن العشرين، آنذاك لم تكن لترتحل تلك القرى أبداً، والأجيال النوبية المتحضرة الصغيرة التى نشأت فى المدن ربما لم تكن لتعرف النوبيين الأول أو اللغة النوبية.

مراجع الموضوع

١ - فيرنيا روبرت أ- جورج جيستر ١٩٧٣ النوبيون فى مصر: تعايش المشرى- أوستن- منشورات جامعة تكساس.

٢ - فيرنيا، روبرت أ- عاليا رشدى.(١٩٩١)«النوبيون فى مصر المعاصرة» النوبيون فى المصريات: تحرير اليزابيث وزنوك و روبيرت أ فيرنيا ١٨٣-٢٠٢.

٣ - جيمز، روبرت ١٩٨٦ النوبيون المصريون دراسة فى التكافل الاجتماعى القاهرة- إصدارات قسم النشر بالجامعة الأمريكية

٤ - حمدى، السيد ١٩٩٤ «النوبة الجديدة: دراسة انثربولوجيا فى المجتمع المصرى» القاهرة عين للعلوم الإنسانية والدراسات الاجتماعية.

٥ - الكتشا، سميحة ١٩٧٨ تغيرات مراسم الزواج النوبى فى حياة الاحتفائية النوبية: دراسة فى زمنية الإسلام والتغير الثقافى - تحرير جون. ج. كينيدى: ١٧١-٢٠٢، بيركلى جامعة كاليفورنيا.

٦ - كينيدى. ج. جون ١٩٧٧ النضال من أجل تغير الطائفة النوبية «الفردية فى المجتمع التاريخ» جاللو التو: مايفيلد.

٧ - ـــ ١٩٧٨، المعالجة النفسية لمراسم الزار، فى الاحتفالات النوبية دراسات فى دراسة فى زمن الإسلام والتغير الثقافى، تحرير جون. ج. كينيدى: ٢٣-٢٠٣، بيركلى جامعة كاليفورنيا.

٨ - مختار، يحيى ٢٠٠١ جبال الكُحل رواية من النوبة - القاهرة دار الهلال.

٩ - تعليم اللهجة النوبية - القاهرة - مركز الدراسات والوثائق النوبية ١٩٩٩.

١٠ - أدول، حجاج «حول مصطلح الأدب النوبى» مجلة القاهرة - نوفمبر.

١١ - ـــ ٢٠٠١ رسالة حب إلى الأديب الكبير خيرى شلبى- جريدة الأسبوع- ديسمبر.

١٢ - بيمشكا، رومان ١٩٩٦ «النوبيون فى مصر والسودان، الإكراهات واستراتيجيات الحجارة» ساربوركن، ألمانيا، فيرلاج فوج انتوكلنجز-بولتيك سيبروكين.

١٣ - علية، رشدى ١٩٩١- النوبيون ولغة النوبة فى مصر المعاصرة: دراسة فى الحالة الثقافية والاتصال اللغوى- ليدن- بيرل.

١٤ - صالح، محيى الدين ٢٠٠٠ «من عالم النوبة فى القرن العشرين» الجزء الأول، القاهرة- النسر الذهبى للطباعة.

١٥ - والز، تيرينز ١٩٧٨ «التجارة بين مصر وبلاد السودان(١٧٠٠-١٨٢٠) القاهرة- المعهد الفرنسى للحفريات الشرقية.



يريد النوبيون - أيضاً - أن يمحوا الأفكار الإعلامية التى تتكرر دوماً عنهم فى الأفلام المصرية القديمة التى تصور الفترة ما قبل ثورة ١٩٥٢

هوامش:

(١) ذكر لى الكاتب حجاج أدول أن اسم الرجل النوبى المعمر الذى جمعهم للصلح هو محمد سليمان جد كاب وهو من أهم الحاملين للتراث النوبى والمحافظين عليه. (المترجمة)

(٢) الروائيون النوبيون كانوا حجاج أدول وإدريس على ويحيى مختار وخليل كلفت كما ذكر حجاج أدول فى مقاله الذى رد به على خيرى شلبى. (المترجمة)

(٣) نُشر رد الروائى النوبى حجاج أدول فى مقال تحت عنوان رسالة حب الى الأديب الكبير خيرى أشرى - ماس - كاجنا - باللغة النوبية بمعنى - خيرى الجميل. تعلك بخير - فى جريدة الأسبوع العدد ٤٤٩ فى ٢٦ نوفمبر. (المترجمة)

(٤) استخدم مصطلح الاثنوجرافيا - أو البحث الميدانى فى فرنسا حتى الحرب العالمية الثانية إشارة إلى واحد من العلوم الإنسانية الذى يصبو - حصريا - الى دراسة المجتمعات البدائية. وعلى الانثروبولوجيا مهمة إجراء التحليل المقارن للمجتمعات والثقافات. للمزيد راجع معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر - بيروت - ط١ - ٢٠٠٦ - ص ٢٤. (المترجمة)

(٥) Gender بمعنى جنس والجذر الثلاثى لفعل جنس له دلالات متنوعة ويُشتق منه عدد من المعانى التى استقرت دلالاتها التى ترتبط بمفاهيم عرقية (كالأجناس البشرية) ومنطقية كالجنس الأعم من النوع وغريزية كالجنس الشبق، وبلاغية كالأجناس الشعرية. لكن مصطلح الجنوسية يؤدى معنى التشكيل الثقافى والاجتماعى للذكورة والأنوثة. راجع مجلة ألف الصادرة عن الجامعة الأمريكية العدد ١٩ سنة ١٩٩٩. (المترجمة)

(٦) لعلها تقصد جامع ودار مناسبات طلعت القواس الملحق بالجمعية أو جامع كخية بشارع قولة امتداد التحرير بمنطقة عابدين. (المترجمة)

(٧) كتب خيرى شلبى عن شخصية داريا سكينة وهى أهم شخصيات رواية الشمندورة للكاتب النوبى خليل قاسم. (المترجمة)

(٨) كتب سلامة أحمد سلامة فى مقاله اليومى بجريدة الأهرام تحت عنوان حق لأبناء النوبة، قال: إننى اضم صوتى الى اصوات أبناء النوبة فى ضرورة إعطاء الأولوية لأبنائهم؛ إذ لا تنمية حقيقية بغير جهد حضارى وتراثى من أصحابه الأصليين. (المترجمة)

(٩) يطلق عليه مقهى وادى النيل نظرا لمن يضمهم من السودانيين والمصريين وربما يكون بالفعل وجود النوبيين به أطلق الختان لى سمود كذلك. (المترجمة)

(١٠) عامل بالأجرة اليومية. (المترجمة)

(١١) يقصد بكلمة outlawed الخارج عن القانون أو سقوط الحق المدنى فى قضية ما لكنها أتت فى السياق بمعنى انتهاء فعل ما (المترجمة)

(١٢) اسوة بمن لا يزالون يسردون سيرة أبى زيد الهلالى فى بعض المقاهى (المترجمة)

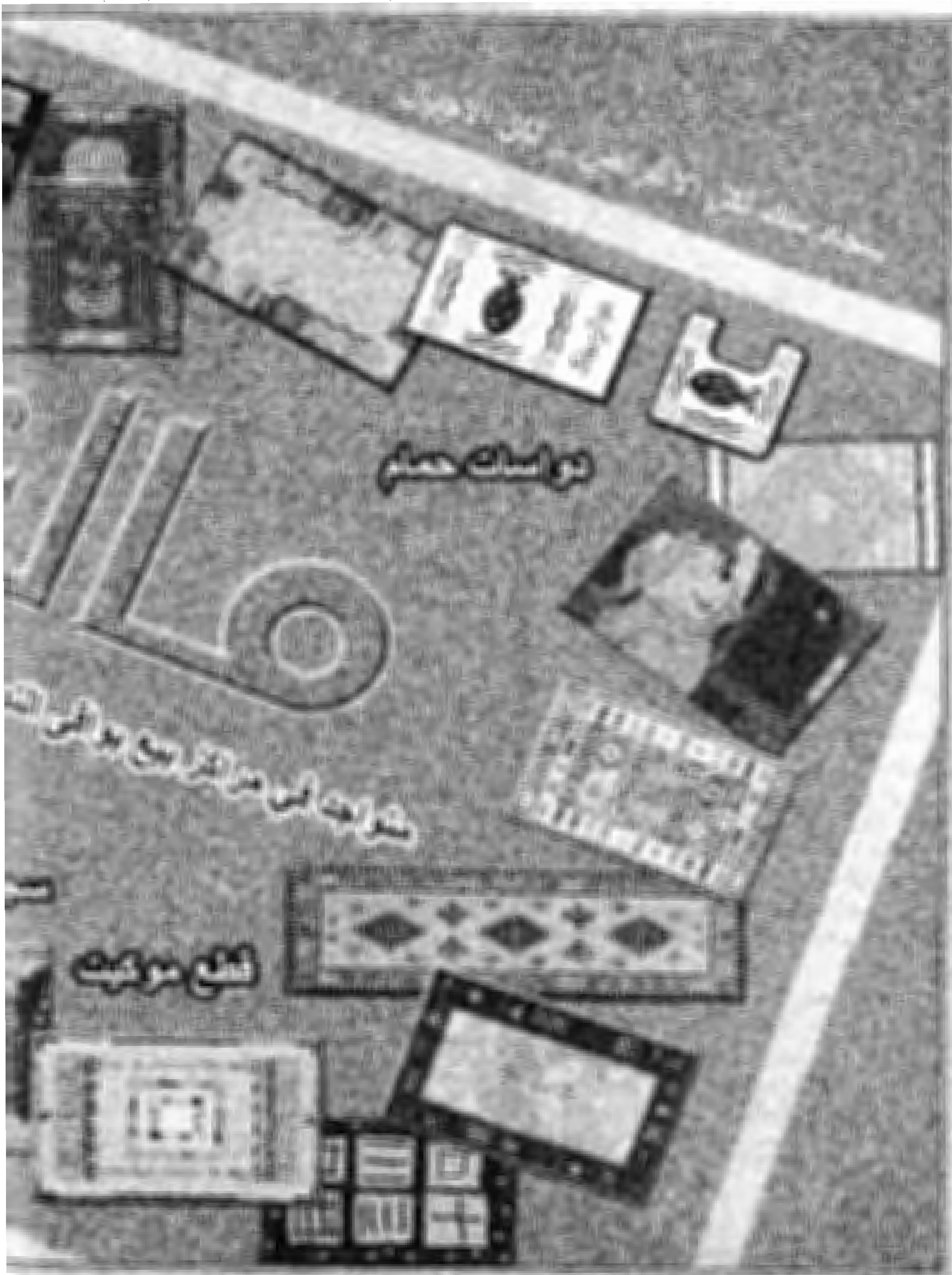
(١٣) تقع فى مدينة أسيوط ولم يذكرها النص صراحة، بل ذكر أنها فى منطقة جنوبية على مقربة من المدينة الإقليمية أسوان. (المترجمة)

كتاب الزاوية

فى العبودية المختارة

صناعة الطاغية

يا لذل شعوب فقدت العقل ويا لبؤسها. يا لأمم أمعنت فى أذاها وعميت فى منفعتها، تسلبون أجمل مواردكم وأنتم على السلب عيان، تتركون حقولكم تنهب ومنازلكم تسرق وتجرد من متاعها القديم الموروث عن آبائكم! تحيون نوعًا من الحياة لا تملكون فيه الفخر بملك ما حتى لكأنها نعمة كبرى فى ناظركم لو بقى لكم ولو النصف من أملاككم وأسركم وأعماركم، وكل هذا الخراب، هذا البؤس وهذا الدمار يأتيكم لا على يد أعدائكم بل يأتيكم يقينًا على يد العدو الذى صنعتم أنتم كبره والذى تمشون إلى الحرب بلا وجل من أجله ولا تنفرون من مواجهة الموت بأشخاصهم فى سبيل مجده. هذا العدو الذى يسودكم إلى هذا المدى ليس له إلا عينان ويدان وجسد واحد، ولا هو يملك شيئًا فوق ما يملكه أقلكم على كثرة مدنكم التى لا يحصرها العد إلا ما أسبغتموه عليه من القدرة على تدميركم. فأنى له بالعيون التى يتبصص بها عليكم إن لم تقرضوه إياها؟ وكيف له بالأكف التى بها يصفعكم إن لم يستمدها منكم؟ أنى له بالأقدام التى يدوسكم بها إن لم تكن من أقدامكم؟ كيف يقوى عليكم إن لم يقو بكم؟ كيف يجرؤ على مهاجمتكم لولا تواطؤكم معه؟ أى قدرة له عليكم إن لم تكونوا حماة للص الذى ينهبكم، شركاء للقاتل الذى يصرعكم، خونة لأنفسكم؟ تبذرون الحب ليذريه، تؤثثون بيوتكم وتملأونها حتى تعظم سرقاته. تربون بناتكم كيما يجد ما يشبع شهواته. تنشئون أولادكم حتى يكون أحسن ما يصيبهم منه جرهم إلى حروبه وسوقهم إلى المجزرة ولكى يصنع منهم وزراء مطامعه ومنفذى رغباته الانتقامية.


دواسات حمام
قطع موكيت


سجاد أطفال
www.maccarpet.com

ممر التنمية والتعمير

هيا بنا



فـــــاروق البـــــاز

** بدأت في دراسة صحاري مصر منذ ثلاثين عاماً، وأعتقد أنها يمكن أن تؤهل حياة كريمة لعدد كبير من السكان. لذلك لا يصح أن تبقى مدن مصر مكتظة بالسكان في نطاق وادي النيل الضيق ودلتاه. ينتج عن هذا التكدس مصاعب حياتية كثيرة منها ضياع الوقت في التنقل وعدم توفر الغذاء الصحي وتكدس المدارس إضافة إلى الآثار البيئية السيئة. إذاً يجب علينا أن نبحث عن سبل تؤهل جذب نفر غفير من أبناء مصر للعيش الكريم خارج هذا النطاق الضيق: في كل من صحراء سيناء والصحراء الشرقية والصحراء الغربية.

لا يتم جذب السكان إلى أماكن جديدة إلا إذا توفرت فرص العمل في ميادين مختلفة مع وجود المسكن اللائق وسبل المعيشة الهادئة الآمنة. فقد تعلمنا من مشروع الوادي الجديد في الواحات الخارجة والداخلة والفرافرة وكذلك مشروع تعمير سيناء وحديثاً من مشروع توشكي أن الغالبية العظمى من الشعب المصري لن تفضل العيش الدائم بعيداً عن بلد الأصل. فيسافر المصري باحثاً عن عمل في أي مكان طالما أنه يخطط إلى العودة إلى بلده وأهله. لذلك يجب التفكير في فتح آفاق جديدة لجذب السكان بالقرب من مدن وقرى وادي النيل والدلتا ليشعر الناس أنهم ما زالوا بالقرب من بلد الأصل.

ويتفق الجميع أن الوضع قد تفاقم كثيراً خلال نصف القرن الماضي لعدة أسباب ولم يتمكن أولو الأمر من القيام بما يلزم من مبادرات تعني بالوصول إلى الغرض المنشود ألا وهو ازدهار الاقتصاد الوطني.

في نفس الوقت ازداد عدد السكان ازدياداً مطرداً في عدم وجود ما يكفي من فرص العمل أو إعداد المواطنين والمواطنات من الشباب لما تتطلبه سوق العمل في العصر الحديث. نتج عن ذلك ركود في الإنتاجية مما أضر بالاقتصاد الوطني أكثر فأكثر وبقيت مصر في موقع لا يليق بها بين باقي الأمم.

تقدمت بلاد كثيرة مثل كوريا وماليزيا وإندونيسيا وتركيا وجميعها يتصف بكثرة عدد السكان. نتج نجاحها من وضع سياسات أهلت التقدم الإنتاجي وفتحت آفاقاً جديدة لشعوبها لكي تتنافس مع مثيلاتها. أما في مصر فما زال الشعب يعاني من مشاكل كثيرة سدت طرق التقدم والرفاه.

في وضعنا الحالي لا يكفي إقامة مدينة جديدة هنا ومركز صناعي هناك، أو إنشاء طريق يسهل الوصول إلى موقع ما. لابد أن تكون هناك خطة شاملة متكاملة لفتح آفاق في ميادين كثيرة في كل من الدلتا والصعيد والنوبة. طبعاً لا يتم ذلك بين عشية وضحاها، ولكن يلزم التخطيط له حتى إذا تطلب الأمر عشرات السنوات. هكذا الحال في المقترح الذي أقدمه في هذا الكتاب والذي نتج عن معرفتي بمواصفات الصحراء الغربية في مصر.

تؤهل هضبة الصحراء الغربية القيام بما يتطلبه تعزيز واقع التنمية والتعمير بموازاة نهر النيل. لذلك فلقد اقترحت ممر التنمية والتعمير منذ عشرين عاماً وأعيد طرحه الآن لازدياد أهميته. ولقد آثرت إعداد هذا الكتاب لتكون المعلومات الأساسية في يد كل قارئ يهتم بمستقبل بلاده. ويحدد ما جاء في هذا الكتاب ملامح برنامج التوسع العمراني والزراعي والصناعي والتجاري والسياحي رويداً رويداً على مسار ١٢ محوراً يصل طولها الكلي إلى ١٢٠٠ كيلو متر تبدأ من مراكز التكدس السكاني وتمتد غرباً حتى تصل إلى طريق من ساحل البحر المتوسط شمالاً حتى بحيرة ناصر في الجنوب بطول ١٢٠٠ كيلو متر تقريباً وعلى مسافة تتراوح بين ٢٠ و ٣٠ كيلو متراً من حافة هضبة الصحراء الغربية. يفتح هذا الممر بأكمله آفاقاً جديدة للامتداد العمراني والزراعي والصناعي والتجاري والسياحي حول مسافة تزيد عن ٢٠٠٠ كيلو متر. لم تتمكن الحكومات في الماضي من الأخذ بالمشورة لأسباب مختلفة. ولأن مصر في حاجة ماسة إلى مخرج من الوضع الاجتماعي الصعب في الوقت الحالي بالذات، فإنني أعيد طرح المقترح ليتم النظر فيه بمشاركة الناس، وربما للتنفيذ بأموال مستثمرين من القطاع الخاص الوطني أولاً ثم العربي ثانياً ثم العالمي ثالثاً.

يعتبر النقل من أساسيات التقدم والازدهار على مر العصور، ونحن نعلم أن قيام الدولة المصرية القديمة منذ أكثر من خمسة آلاف عام اعتمد على النيل كطريق يربط شمالها بجنوبها حيث كانت تنتقل من خلاله الناس والأخبار والغذاء والمنتجات والبضائع ورجال الأمن وجامعو الضرائب وكل ما يمثل كيان الدولة وسر بقائها. كذلك اعتمد الإغريق والرومان والعرب على تسهيل وتأمين النقل في جميع أرجاء حضاراتهم. وفي العصر الحالي نمت أوروبا بعد إنشاء شبكات الطرق السريعة فيها. وكذلك تفوقت أمريكا على باقي العالم الغربي باستخدام ثروتها الطبيعية أحسن استخدام، مما استدعى إنشاء شبكة متميزة من السكك الحديدية والطرق في جميع أرجائها.

وبالنسبة لنا في مصر لا يصح إنشاء شبكة طرق جديدة في وادي النيل والدلتا لأن في ذلك اعتداء على الأرض الزراعية المعتدى عليها أصلاً نتيجة النمو الكبير للكتل السكانية العشوائية وغير المرخص لها في أغلب الأحيان. هذه الأراضي الخصبة رسبها نهر النيل العظيم على مدى ملايين السنين. ولقد تكدس سكان مصر في مساحة محدودة منها نتيجة الزيادة المستمرة في عدد السكان، ولا يعقل أن نستمر في العيش على ٥٪ من مساحة أرضنا مع الاستمرار في البناء فوق التربة الزراعية. لذلك فلابد من فتح آفاق جديدة للتوسع العمراني والزراعي والتجاري خارج نطاق وادي النيل الضيق.

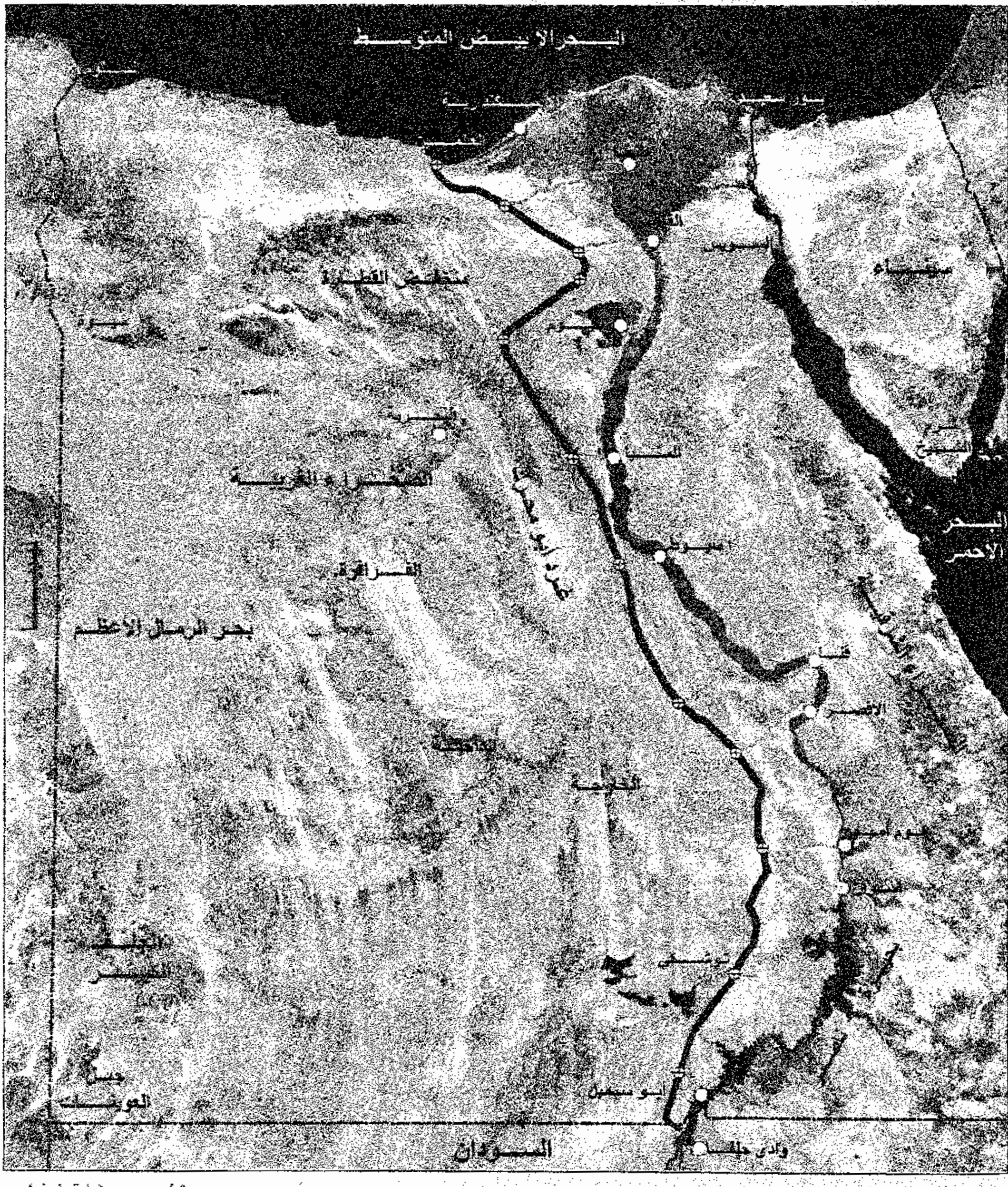
يؤهل المقترح الحالي: إضافة إلى تسهيل النقل بين

لابـــد أن تكـــون
هنـــاك خطـــة شـــاملة متكاملـــة
لفتـــح آفـــاق في ميـــادين كثيـــرة
فـي كـــل مـــن الـــدلتــــا
والصـــعيد والنـــوبـــة

صفحات من كتاب:
ممر التنمية والتعمير وسيلة لتأمين مستقبل الأجيال القادمة في مصر
فاروق الباز
يصدر هذا الشهر عن دار العين للنشر، القاهرة.

..«غـــربـــا»

صورة فضائية من أقمار لاندسات توضح مسار مصر التنمية والتعمير



أطراف الدولة، الحد من التوسع العمراني في وادي النيل والدلتا يفتح آفاق جديدة للنمو بالقرب عن التجمعات السكانية الكبرى ومجالات لا حصر لها في استصلاح أراض صحراوية وإنشاء مشاريع جديدة للتنمية في مجالات الصناعة والتجارة والسياحة. كما يعطي المقترح أملاً جديداً لأجيال المستقبل باستخدام أحد عناصر الثروة الطبيعية وأقربها إلى التجمعات السكانية الحالية وهو الشريط المتاخم لوادي النيل في الصحراء الغربية.

لقد أختير هذا الجزء من الصحراء الغربية بناء على خبرة في تضاريس مصر وإمكاناتها التنموية. يتكون الشريط المتاخم لوادي النيل من هضبة مستوية بميل بسيط من الجنوب إلى الشمال بموازاة النيل. ولا تقطع المنطقة أودية تهددها السيول كما هو الحال في شرق النيل أو كثبان رملية متحركة كما هو الوضع في المنخفضات غرب المنطقة. كذلك تتواجد مساحات شاسعة من الأراضي التي يسهل استصلاحها لإنتاج الغذاء إضافة إلى احتمالات تواجد المياه الجوفية.

الصحراء وتاريخ تطورها

يقطع مسار الممر المقترح الصحراء الغربية في مصر من شمالها إلى جنوبها بموازاة الدلتا ووادي النيل. لذلك يلزم في بادئ الأمر التعرف على تضاريس الصحراء على وجه العموم وعلى تاريخ تطور صحراء مصر الغربية على وجه الخصوص. وسوف ألخص ما تعلمته عن هذه الأمور من خلال مشاركتي في التخطيط للتصوير من الفضاء ثم دراسة الصور ثم الرحلات الميدانية التي تعرفت فيها على تضاريس صحارى العالم بأجمعه.

منذ أن اضطررت للعمل خارج الوطن في عام ١٩٦٧ شاركت أولا في مشروع أبوللو لاستكشاف القمر. كنت مسئولاً خلال الست سنوات الأولى عن تدريب رواد الفضاء في الملاحظات العلمية والتصوير من مدار القمر، وكذلك اخترت سكرتيرا للجنة اختيار مواقع هبوط سفن أبوللو على سطح القمر. لزم لذلك اختيار وإعداد ما يلزم من أجهزة التصوير ودراسة الصور دراسة مستفيضة للتعرف على تضاريس القمر تعرفاً يسمح باختيار المواقع الآمنة والمهمة علمياً.

ونجحت رحلات قمرية هبط في كل منها رائدان على سطح القمر وعادا سالمين بما جمعاه من صور وعينات صخرية ومعلومات كثيرة.

أصرت وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» على تطبيق ما تعلمناه خلال رحلات أبوللو في كيفية دراسة الأرض وكواكب المجموعة الشمسية الأخرى من المدار. تم في عام ١٩٧٢ البدء في مشروع المعمل السماوي «سكاي لاب» لمدار الرواد حول الأرض. كذلك بدأ مشروع «لاندسات» للأقمار غير المأهولة بالرواد لتصوير الأرض وبثها آلياً من الفضاء. كذلك بدأ التخطيط لرحلة أبوللو-سيوز الأمريكية - الروسية المشتركة والتي انطلقت إلى مدار الأرض في يوليو ١٩٧٥. اختارتني ناسا لإعداد رواد الفضاء لتصوير الأرض على غرار ما فعلناه من مدار القمر في مشروع أبوللو. اشتمل التخطيط على تصوير أجزاء كثيرة من صحارى العالم. وكانت الصحراء الغربية أحد المواقع الرئيسية التي كلفت الرواد بتصويرها لأن معارفنا عنها كانت قليلة.

أوضحت الصور الفضائية الكثير من التضاريس بتفصيل غير مسبوق. وللتأكد من الدقة في تفسير هذه الصور قمت بزيارات ميدانية في الصحارى بشمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية والأمريكتين واستراليا والهند والصين.

الأهم من ذلك كله بدأت منذ ثلاثين عاماً مشروعا بحثيا لدراسة الصحارى المصرية والصحراء الغربية على وجه الخصوص. تمركز المشروع في جامعة عين شمس بمشاركة أساتذتي وزملائي بقسم الجيولوجيا في كلية العلوم. شارك في الرحلات الميدانية خبراء من هيئة المساحة الجيولوجية ومركز الصحراء ووزارة الزراعة واستصلاح الأراضي والجامعات المصرية والمحافظات.

حددت الصور الفضائية مسار هذه الرحلات الميدانية، وفي كل مرة تجوب أقدامنا في هذه الصحراء الواسعة التي تشتمل على ثلثي مساحة مصر تعلمنا الجديد. ومع أن هذه الصحراء الجذابة ما زالت تحتفظ بأسرار لا حصر لها عن تضاريسها وتاريخ تطورها مع الزمن، فلقد علمتنا الكثير. في مبدأ الأمر علمتنا الصحراء الغربية كيف نفسر تضاريس الأرض الجافة على سطح كوكب المريخ الذي مر بنفس مراحل التطور. علمتنا هذه الصحراء المعطاءة كيف يلزمنا مقارنة ما نراه في سهولها مع تضاريس مشابهة في أراض جافة أخرى على سطح الأرض. علمتنا هذه الصحراء العتيقة أنه يجب التمعن في دراسة الصحراء لأننا لا نعرف عن الصحراء إلا القليل.

أثناء اهتمامي بدراسة الصحراء الغربية وما توضحه لنا تضاريسها، اختارني الرئيس الراحل محمد أنور السادات مستشارا علمياً، وفي بداية عام ١٩٧٨ سألني أن أركز على إمكانية التنمية في صحارى مصر وخاصة الصحراء الغربية. لذلك كنت أخصص القسط الأكبر من ملاحظاتي العلمية أثناء الرحلات الميدانية على ما يمكن الإفادة منه تنموياً واقتصادياً. ركزت في هذه الملاحظات على احتمال التوسع في الإعمار للحفاظ على أراضي وادي النيل والدلتا، واستصلاح الأراضي الصحراوية الصالحة للزراعة لإنتاج الغذاء، وكذلك الاستخدام الأمثل للثروات المعدنية.

هـذه الصحراء الجذابة
مـا زالـت تحتفظ بأسرار
لا حصـر لهـا عـن تضاريسها
وتاريـخ تطـورها مـع الزمن،
فلقـد علمتنـا الكثيـر

اتضح من الأبحاث في الصحراء الغربية أساسيات كثيرة يمكن تطبيقها على باقي الصحراء العربية في شمال إفريقيا وشبه الجزيرة العربية. يهم الحديث عن ممر التنمية والتعمير بعض هذه الأساسيات مثل ما يلي:

أولاً: أصبح حزام الصحراء العربية في صورته الحالية منذ حوالي ٥٠٠٠ عام (أي منذ وقت انبعاث الحضارة المصرية القديمة). أما الحقبة ما بين ٥٠٠٠ عام وحوالي ١١٠٠٠ عام فكانت تتميز بهطول أمطار غزيرة كانت تغذي أنهارا عديدة تصب أكثرها في بحيرات كبيرة. سبق هذه الحقبة المطرة حقبة جافة ثم حقبة ممطرة أخرى ثم حقبة جافة وهكذا الحال. دامت كل حقبة من هذه الأحقاب المتتالية من ٦ إلى ٣٠ ألف سنة واستمر هذا الحال على الأقل طوال نصف المليون سنة الأخيرة.

ثانياً: نتجت رمال الصحراء من تفتيت الصخور في أعالي الهضاب إلى الجنوب بواسطة مياه الأمطار أثناء الأحقاب المطرة السالفة الذكر. تحركت حبات الرمال مع المياه الجارية على السطح إلى الشمال في أودية حيث تجمعت في منخفضات وترسبت في قاع البحيرات. معظم الصخور التي جاءت منها الرمال تتكون من «الحجر الرملي النوبي» نسبة إلى كثرته في بلاد النوبة أي جنوب مصر شمال السودان. واسم النوب جاء أصلا من المصرية القديمة ويعني الذهب لأن جبال المنطقة غنية بالذهب.

ثالثا: نتج من تغيير المناخ منذ ٥٠٠٠ عام أن قلت الأمطار وجفت مياه الأنهار وكذلك البحيرات. عندئذ بدأت الرياح تتفاعل مع الرسوبات التي تعرضت للهواء. ومن المعروف أن الرياح في الصحارى العربية تأتي من الشمال. لذلك فلقد نتج عن حركة الرياح من الشمال إلى الجنوب تصنيف هذه الرسوبات تبعا لحجم المكونات إلى التراب الذي يقل حجم حبيباته عن ٠.٢ مليمتر يندفع مع الهواء ويصلنا على شكل عواصف ترابية مثل رياح الخماسين في الربيع. الحصى الذي يزيد حجم حبيباته عن ٢ مليمتر لا تستطيع الرياح زحزحته ويبقى على سطح الصحراء. الرمال التي يتراوح حجم حبيباتها من ٠.٢ إلى ٢ ملليمتر تتجمع نتيجة زحزحة الرياح لها على شكل كثبان رملية. تتكون كثبان عديدة في الصحراء الغربية وخاصة في بحر الرمال العظيم وهي



طولية الشكل وفى أماكن أخرى تقل فيها كمية الرمال تتكون الكثبان الهلالية الشكل. ولقد قيست حركة الأخيرة فى الواحات الخارجة والداخلة واتضح أنها تتراوح ما بين ٢٠ و١٠٠ متر فى السنة (أصغر الكثبان أسرعها) ولا يغير من مسار الكثبان إلا الطبيعة الطبوغرافية. لذلك فتجنب مسارها فى أى عمل إنمائى مهم للغاية.

رابعاً: لأن الرمال قد جاءت أصلاً مع المياه التى تجمعت فى بحيرات، فإن أماكن تجمع الرمال كانت المياه تتسرب فى باطنها أثناء الأحقاب المطرة. يتم هذا التسرب إما من خلال المسامية الأصلية أى الفجوات بين حبيبات الصخور أو المسامية الثانوية التى تؤهلها الشقوق والفوالق فى الصخور والتى تسهل مرور السوائل فى مساراتها.

يعنى هذا أن الرمال فى الصحراء الغربية تكونت نتيجة لأمطار غزيرة فى الماضى، وانتقلت من الجنوب إلى الشمال (تماما كما يصلنا نهر النيل اليوم حاملا، قبل السد العالى، الطمى والرمال من الهضبة الأثيوبية فى كل صيف). ترسبت حبات الرمال مع الطمى فى قاع البحيرات التى انتهت إليها الأنهار وروافدها. بعد أن تغير المناخ إلى الجفاف واختفت المياه من مسارات الأنهار، بدأت الرياح فى تكوين الكثبان الرملية واستمرت فى نقلها جنوباً. يدل ذلك على أن الأماكن التى تكثر فيها الكثبان الرملية (مثل بحر الرمال العظيم) هى ما تحتوى على الأكثر من المياه الجوفية.

مع أن هذا الكلام علمى بحت يشرح توزيع الكثبان الرملية فى الصحراء المصرية ولكن له تطبيقات هامة جدا فى الحديث عن التنمية والمهم أيضا أن هذه النظرية قد أثبتها حفر الآبار فى كل من بحر الرمال العظيم ومنتصف مسطح رمال سليمة.

فى حالة بحر الرمال العظيم قامت وزارة البترول بحفر بئر استكشافية بعمق يزيد عن كيلو متر فى كل من جنوب واحة سيوه وجنوب غرب واحة الفرافرة (فى غرب الموحوب) أى على حدود بحر الرمال العظيم الشمالية والشرقية. لم يتم استكمال البئرين لاندفاع كميات هائلة من المياه الجوفية، مما يدل على تواجدها بكميات هائلة تحت الكثبان الرملية.

فى حالة مسطح رمال سليمة بالقرب من الحدود مع السودان تم حفر أكثر من ٥٠٠ بئر فى منطقة «شرق العوينات». كذلك تمت زراعة وحصد كل من القمح والحمص فى المنطقة وكسبت الشركات المنتجة لها. يؤكد ذلك أن ما تنبأ به العلم فيه فائدة للناس فى هذه الصحراء التى تبدو لأول وهلة أنها جافة ولا يمكن أن تنطوى على حياة.

ما هو ممر التنمية والتعمير؟

يشمل مقترح ممر التنمية والتعمير على خمسة مكونات رئيسية هى:

١- محور طولي للسير السريع بالمواصفات العالمية يبدأ بالقرب من العلمين ويستمر حتى حدود مصر الجنوبية بطول ١٢٠٠ كيلو متر تقريباً.

٢- اثنا عشر محوراً من الطرق العرضية التى تربط الطريق الرئيسى بمراكز التجمع السكانى على طول مساره بطول كلى حوالى ١٢٠٠ كيلو متر.

٣- شريط سكة حديد للنقل السريع بموازاة الطريق الرئيسى.

٤- أنبوب ماء من بحيرة ناصر جنوبا وحتى نهاية الطريق على ساحل البحر المتوسط لاستخدام الإنسان على طول المحور الطولى.

٥- خط كهرباء يؤمن توفير الطاقة فى مراحل المشروع الأولية لحين تيسير مصادر الطاقة المتجددة للمشروعات الإنمائية مستقبلاً.

يجب فى دراسات الجدوى الاقتصادية للمشروع النظر فى هذه المكونات على أساس الأولويات التى تؤهل الاستفادة السريعة لكل منها. مثلا لا يعقل أن يبدأ العمل فى المحور الطولى من الشمال إلى الجنوب الذى يبعد كثيراً عن مواقع التكدس السكانى فى الوادى والدلتا. بدء العمل فى المحاور العرضية يؤهل تواجد مخرج للإنماء الفورى بالقرب من المدن والقرى ويسمح بالتوسع العمرانى غرباً فى أوائل البدء فى المشروع.

كذلك عند إرساء مخطط المحور الطولى من الشمال إلى الجنوب يمكن تقسيمه إلى عدة أجزاء أو البدء فيه من نقطة فى الشمال أو الوسط ونقطة أخرى فى توشكى مثلا لكى يبدأ ربط المنطقة بمحافظات الصعيد لتسهيل سفر العاملين فى المشروع إلى بلادهم.

طبعا يعتمد ذلك على نتائج دراسات الجدوى التفصيلية وما توضحه من منافع اقتصادية.

لابد أن يشمل تحديد الأولويات فى دراسات الجدوى على أحسن السبل لإقامة باقى مكونات المحور الطولى من سكة حديدية وأنبوب ماء وخط كهرباء. ربما كان من الأفضل البدء فيها جميعاً فى نفس الوقت مع الطريق لإقلال التكلفة، وربما كان من الأحسن أن يتم إنشاء بعضها فى أول الأمر وإكمال الأخرى فى وقت لاحق. المهم أن ينظر فى المشروع بأكمله ويتم التخطيط السليم لكل مكوناته لينتج عن ذلك مخطط مدروس من النواحى الاقتصادية والاجتماعية والإنمائية تسمح بجمع ما يلزم له من مال الاستثمار الخاص بدعم من التشريعات الحكومية اللازمة.

إضافة إلى ذلك يجب عرض تسمية المشروع ومكوناته جميعا على الناس. لابد من مشاركة المواطنين فى هذا العمل منذ بداية المشروع. يشمل هذا ليس فقط اسم المشروع أو المحور الطولى ولكن أسماء المحاور العرضية وخاصة المدن والقرى التى تنشأ على جوانبها. ربما أقيمت مسابقات فى المدارس والجامعات لمشاركة الطلبة والطالبات فى اقتراح أسماء لكل هذه وإشهار الجوائز الرمزية والمالية لأحسن المقترحات بناء على قبول أهل كل منطقة بالمقترحات. مشاركة الناس فى مثل هذا العمل يشعرهم بأن المشروع منهم ولهم.

يا حبذا لو بدأت محافظات مصر المعنية بالنظر فى هذا الأمر داخل حدودها. أى مبادرة فى النظر بجدية فى المشروع لها عائد، ولا يصح أن ينتظر الناس أن يقوم آخرون بكل عمل يهم مستقبلهم. المشاركة فى تحديد مسار المستقبل هى من أهم أسس الديموقراطية. كذلك فالحرية الشخصية لابد أن يوازيها الشعور بالمسئولية تجاه المجتمع والعمل للصالح العام.

بناء على ما سلف فإنى أقترح على كل معلم فى مراحل التعليم المختلفة أن يختار موضوعاً مهما لمناقشته مع الطلاب وسؤالهم التفكير فيه ودراسته لإعطاء الرأى عنه أمام باقى الطلبة أو الطالبات. بغض النظر عن نتائج مثل هذا العمل بالنسبة للمشروع فأهميته فى خلق روح المشاركة لها وقع

على نفوس الشباب وازدياد شعورهم بالمسئولية والولاء والانتماء.

يقع مسار ممر التنمية والتعمير في مسطح مستوى من الصحراء الغربية بموازاة مسار وادي النيل. أهم صفات هذا الشريط هو خلاؤه من الجبال والتلال والمنخفضات. إضافة إلى ذلك تقل الرمال في هذا الشريط حيث لا تتقاطع معه خطوط الكثبان الرملية إلا في القليل النادر. وكما هو الحال في باقي الصحراء الغربية تشتد أشعة الشمس والرياح مما يسمح باستخدام هذه المصادر للطاقة المتجددة في المستقبل، أي الطاقة الشمسية وطاقة الرياح، وذلك في المشروعات الإنمائية الجديدة.

يشرح ما يلي المكونات الأساسية للمقترح ابتداء بأهمها وذلك للنقاش العام حولها في مؤسسات الدولة ووزاراتها المختلفة وبواسطة أخصائي دراسات الجدوى وبين المهتمين في الجامعات ومراكز البحوث وفي المحافظات المعنية وبين عامة الناس.

١ - المحاور العرضية:

يشتمل المقترح على اثني عشر محوراً عرضياً يمتد ثمانية منها في الصعيد من مواقع المدن الكبرى وثلاثة منها في مواقع رئيسية بالدلتا وآخر في منخفض الفيوم. تسمح هذه المحاور أو المسارات العرضية بالامتداد العمراني غرباً رويداً رويداً. هذا يعني أن أهميتها أنها تضيف بعداً جغرافياً لعدد من المحافظات التي تعاني من الاختناق في الوقت الحالي. يجب في هذا الصدد التذكير بأهمية التخطيط السليم للإنماء على طول هذه المسارات، فلا يصح النمو العشوائي في تلك المناطق بل لابد من التخطيط لتنظيم النمو والخدمات بصورة حضارية.

لأن المحاور العرضية هي الأماكن التي ينتظر أن تتم فيها أول المشاريع للتنمية المختلفة يمكن أن تبدأ دراسة المقترح بأولوية البدء في إرساء مسارات هذه الطرق وتحديد آفاق التنمية فيها، لأن الإنماء تختلف متطلباته في الإعمار والزراعة والصناعة والسياحة، إلخ.

٢ - المحور الطولي:

يمثل المحور الطولي من الشمال إلى الجنوب العنصر الفقري لممر التنمية والتعمير يبدأ المحور على ساحل البحر المتوسط في موقع يتم اختياره بالقرب من العلمين، ويؤهل إنشاء ميناء عالمي جديد يُضاهي المواني العالمية الكبرى في المستقبل. يؤخذ في الاعتبار الحاجة إلى توفير استخدام تكنولوجيا المعلومات الحديثة في التعامل السهل السريع مع الصادرات والواردات والبضائع المؤقتة. ويُعيد مثل هذا الموقع المكانة المرموقة للإسكندرية بين المواني العالمية.

يتكون الطريق الرئيسي من ثمانية ممرات على الأقل، اثنين لسيارات النقل واثنين للسيارات الخاصة ذهاباً وإياباً. كما يلزم أن يمهد الطريق وفق المواصفات العالمية التي تسمح بالسير الآمن السريع دون توقف إلا في حالات الطوارئ ومحطات الاستراحة والوقود ومراكز تحصيل رسوم السير. وربما يستدعي تأمين صلاحية الطريق إنشاء مؤسسة خاصة تقوم بتحصيل الرسوم اللازمة لهذا الغرض على مشارف الطرق العرضية.

٣ - السكة الحديدية:

يشتمل ممر التعمير المقترح على شريط سكة حديدية للنقل السريع بموازاة الطريق الرئيسي. تؤهل هذه الوسيلة نقل الناس والبضائع والمنتجات من جنوب مصر حتى ساحل البحر المتوسط لا سيما أن السكة الحديدية الحالية تعاني من الكهولة. كما لا يصح إنشاء سكة حديدية جديدة داخل وادي النيل لأن في ذلك تعدياً على الأراضي الزراعية.

تؤهل السكة الحديدية للنقل السريع شحن الأسماك من بحيرة ناصر التي تذخر بالثروة السمكية إلى مواقع التكدس في شمال وادي النيل. كذلك تُمكن الوسيلة من الاستخدام الأمثل في الصناعات الثقيلة كصناعة الحديد والأسمنت. فتواجد السكة الحديدية الجديدة سوف يجعل النقل من الميناء إلى المصنع ثم نقل المُنتج من المصنع إلى السوق يتم في سهولة ويسر وبتكلفة أقل، هذا بالإضافة إلى الحد من الزحام الناتج عن حركة الشاحنات على الطريق الصحراوي أو الزراعي الحالي. ويصح أن تكون السكة الحديدية هي آخر مراحل المشروع إكمالا لأن الحاجة القصوى لها تتضح بعد إنشاء المصانع وبدء إنتاجها.

٤ - أنبوب الماء:

يلزم توفير الماء الصالح للشرب بطول الطريق الرئيسي فوق هضبة الصحراء الغربية. يُفضل نقل الماء من بحيرة ناصر أو قناة توشكى داخل أنبوب لمنع البخر أو تسرب الماء في الصخور. ويشمل التخطيط لمشاريع التنمية المختلفة على طول الممر استخدام المياه الجوفية في الزراعة والصناعة، ولكن الحاجة إلى الماء للاستخدامات البشرية خلال المراحل الأولى للمشروع يتطلب توفير الأنبوب المذكور وخاصة على مسار الطريق الرئيسي وكذلك على مسار محور الأقصر لاستخدام الماء في المنتجعات السياحية كما يلي الذكر.

ربما يلزم المشروع خلال تلك المرحلة أنبوب قطره متر واحد أو متر ونصف. وهذا ليس بكثير لأن ليبيا قد أقامت النهر الصناعي العظيم لنقل الماء العذب من آبار صحرائها في الجنوب إلى مدنها على ساحل البحر المتوسط في أنبوب قطره أربعة أمتار وبطول ٢٠٠٠ كيلومتر. وكما هو الحال في ليبيا، بعد ضخ الماء إلى مستوى الهضبة يتم نقله من الجنوب إلى الشمال بالميل الطبيعي لسطح شمال أفريقيا.

٥ - خط الكهرباء:

يلزم للمقترح إنشاء خط كهرباء للإنارة والتبريد على طول الطريق الرئيسي، وخاصة لأن مسار الطريق يمر في منطقة صحراوية لا تتواجد فيها متطلبات التنمية الأساسية، خلال المراحل الأولى للمشروع. في نفس الوقت يجب تشجيع مشاريع التنمية العمرانية والزراعية والصناعية والسياحية المنظمة واستخدام مصادر الطاقة المستدامة كالطاقة الشمسية وطاقة الرياح.

لابد في هذا المجال من الإشارة إلى أن مصر سوف تبدأ في استخدام الطاقة الشمسية لإنتاج الكهرباء بعد تدشين مشروع كبير في عام ٢٠٠٧ أو ٢٠٠٨. إضافة إلى ذلك يمكن استخدام الطاقة الشمسية في تسخين الماء وتبريد الهواء في المباني الجديدة. كذلك يمكن استخدام طاقة الرياح في ضخ المياه الجوفية كما كان الحال بطول الساحل الشمالي فيما مضى. ومع ارتفاع أسعار النفط في الوقت الحاضر علينا أن نحافظ على هذه الثروة للتصدير واستخدام ثرواتنا الطبيعية الأخرى.

كنت قد تطرقت في مقالة نشرتها قبل حوالي العام إلى أهداف جيلي والتي شملت تحقيق أماني الشعب المصري التالية:

أولاً: وحدة الدول العربية: حيث آمنا بأن المؤسسات الرئاسية سوف تعمل على جمع شملها في كيان واحد يرفع من مقامها بين باقي الأمم.

ثانياً: تحرير فلسطين: مع اعتقادنا بقدرة المؤسسات العسكرية على ذلك بدلا من السعي إلى إقناع الضمير العالمي بإعادة حقوق الفلسطينيين.

ثالثاً: تحقيق العدالة الاجتماعية: حيث ساد تطبيق «الاشتراكية العربية» التي نتج عنها سوء الإنتاج وتدهور الاقتصاد الوطني وتفشي الفساد.

رابعاً: محو الأمية: وهنا اعتقدنا أن الوزارات يمكنها تدريب طلبة الجامعات في فصل الصيف لتعليم الأميين في المدن والقرى والواحات.

أقر مرة أخرى بأن جيلي قد فشل فشلا ذريعا في تحقيق أي من هذه الآمال. إذا ما اتضح ذلك، فلا مكان لجيلي في قيادة هذه الأمة ويجب أن يتنحى. يلزمنا جيل أكثر حيوية ونشاطاً أقل سناً يتصف بالشجاعة والقدرة على الريادة لينتشل الوطن من الوضع المأسوي الحالي. شق طريق جديد يستلزم رؤية جديدة لجيل شاب. لذلك يلزمنا أولاً أن يعترف جيلي بالفشل ويحدد الأخطاء التي أدت إليه لكي يستطيع جيل جديد نشيط من المضي في طريق آخر.

بدلاً من الاعتماد على المؤسسات كما هو الحال في بلدنا يلزمنا بناء الفرد الذي يستطيع أن يطور المؤسسات ويقودها خروجاً عن مسارها الحالي. يجب أن نضع ثقتنا في الإنسان، نُعده للعمل لصالح الأمة ونثق بالفكر والابتكار والتجديد. لا يتم ذلك إلا في وجود الاحترام الكامل للإنسان رجلاً كان أو امرأة، ليضيف الفرد ما هو أحسن في جو يسوده تبجيل الفكر والمعرفة وتشجيع المبادرة وتقدير الامتياز في واقع تسود فيه الشفافية واحترام المبدعين.

لن أكون مبالغاً إذا ما ذكرت أن العرب في كل مكان ينتظرون رفعة مصر لأن في ذلك رفعتهم جميعاً. ولم يكن للعرب مكانة في أي وقت من الزمان إلا في وجود مصر القوية كالعمود الفقري الذي تلتف حوله البلدان العربية كلها. لذلك يلزم أن يبدأ الإصلاح والتجديد في مصر على أسس علمية صحيحة لصالح الوطن وباقي أمة العرب من المشرق إلى المغرب.

هذا يعني أننا نحتاج إلى جيل يتصف بالثقة بالنفس والشجاعة الأدبية. أي تقدم في أي مجال يستلزم الثقة بالنفس، وهذه لا تأتي إلا من خلال العلم والمعرفة والتدريب الدائم. من يثق بنفسه يحترمه الآخرون وهذا الاحترام يحث على المزيد من المعرفة وهكذا ترقى المجتمعات المتحضرة.

اقتناء العلم والمعرفة لا يتم بسهولة فهو يستلزم احترام الوقت والتفاني في

يلزمنا جيل أكثر حيوية ونشاطاً أقل سناً يتصف بالشجاعة والقدرة على الريادة لينتشل الوطن من الوضع المأساوي الحالي

العقل. يجب أن يعتبر العمل المتقن شرفاً كبيراً وليس حملاً ثقيلاً. لابد أيضاً من تغيير فكر من يلهث للوصول إلى الثروة المالية في أسرع وقت وأسهل وسيلة. الجيل الذي نحتاجه جيل يحترم العمل للصالح العام ولا يسيطر عليه فكر جمع المال وكثرة المقتنيات. معنى هذا أننا نحتاج إلى تجميل النفس البشرية في بلادنا لكي ينهض الجيل الصاعد ويحيى الوطن من جديد ليحتل مكانة لائقة بين الأمم كما فعل أجدادنا.

أطفالنا وأحفادنا يشعرون بذلك وبينهم من يتعجب للوضع المتدني الذي وصلنا إليه. على سبيل المثال: عادت حفيدتي ياسمين (١٠ سنوات) من مدرستها في واشنطن لتخبر أمها أن المدرسة ذكرت اسم مصر في أول درس من دروس التاريخ، وأضافت أن المدرسة قالت أن التاريخ يعيد نفسه وسألت أمها هل هذا صحيح؟ فعندما أجابتها الأم بالإيجاب سألت بحماس شديد: هل هذا يعني أن مصر يمكن أن تعود عظيمة مرة أخرى؟

الإجابة على سؤال هذه الصغيرة التي تعيش بعيداً ولكنها تحتفظ بذكرى مصر في قلبها وعقلها، يستدعي التفكير الثاقب والعمل الدءوب في سبيل رفعة هذا البلد الذي يستحق موقعاً متقدماً بين الأمم.

فمصر كانت على مدى العصور منبعاً للحضارة والفكر والعلم والثقافة والفن والبناء وحسن الأداء. ولكن بين آونة وأخرى تخبو فيها شعلة الحضارة وينطوي شعب مصر على نفسه وكأنه في غيبوبة لا يعي بما يدور حوله في العالم، ولكن سرعان ما يفيق هذا الشعب العظيم من الغثيان وينتفض بكل حيوية ونشاط لكي تتوهج شعلة الحضارة مرة أخرى في أرض مصر.

لقد أثبت تاريخ الأمم أنه منذ خلق الله الإنسان على سطح الأرض ازدهرت الحضارة بين أي مجموعة من الناس إذا توافرت في مجتمعهم ثلاثة مقومات أساسية هي: إنتاج فائض من الغذاء (مما يجعل الناس تنمو أجسادهم قوية ومخيلاتهم صحيحة) وتقسيم العمل بين أفراد المجتمع تقسيماً مناسباً (الذي يستدعي ترقية أهل الخبرة والمعرفة وحسن الإدارة وليس أهل الثقة) وتأهيل الحياة الكريمة في المدن (لكي يتمكن البعض منهم من الإبداع والابتكار في عملهم).

إذاً لن تعود مصر دولة عظيمة إلا إذا تحسنت أوضاعنا بالنسبة إلى المقومات الثلاثة. وبناءً على مزايا ومنافع ممر التعمير المقترح بموازاة الدلتا ووادي النيل في الشريط المتاخم من الصحراء الغربية يمكنه أن يؤهل الوصول إلى الغرض المنشود خلال عقد أو عقدين من الزمان على الأكثر. كما أن من شأنه أن يخرج مصر من الوضع الحالي بمآسيه المختلفة. لذلك فإنني مقتنع تماماً أن المشروع المقترح يمكن أن يعيد الحيوية والإنتاجية لشعب مصر ويؤهل لهذا البلد الطيب المعطاء الوصول إلى موقع متميز بين أعظم بلدان العالم مرة أخرى.

في نهاية المطاف، أود أن أؤكد على الملأ أنه ليس لي غرض شخصي أو منفعة من أي نوع في عرض مقترح ممر التنمية والتعمير. لقد نبعت الفكرة من معرفتي بمعالم الصحراء الغربية والتي اكتسبتها خلال رحلات كثيرة مع زملاء في مهنتي. أما استمرار دعوتي للمشروع فتنبع من تعاليم والدي (رحمة الله عليه) بأن من يتعلم ما فيه منفعة للناس، عليه أن يعلم الناس، وإلا فلا نفع في علمه.

الغرض الأول والأخير لهذا المقترح هو الإشارة إلى سبل الاستخدام الأمثل للجزء المتاخم لوادي النيل والدلتا من صحراء مصر الغربية. الأمل هو تمهيد الطريق أمام الجيل الصاعد للنهوض بالوطن. يؤهل المقترح ذلك بفتح آفاق جديدة للعمل في بيئة صالحة تسمح بالإبداع والابتكار لمواكبة العالم المتحضر المتقدم، والله الموفق. ■



عسكرة التعليم في إسرائيل

صالح النعامي

** انطلق قادة الحركة الصهيونية ومؤسسو دولة إسرائيل من قناعة مفادها أن هذه الدولة تعيش في أزمة وجود كيانية سترافقها للأبد، على اعتبار أنها تعيش في قلب محيط عربي لا يمكن أن يسلم بوجودها، ويقبل شرعيتها.

لذا فقد كان الاستنتاج الذي توصل إليه قادة الحركة الصهيونية هو أن الصراع بين العرب ودولة إسرائيل هو صراع وجود وليس صراعاً على حدود أو أرض أو موارد طبيعية؛ من هنا كانت الإستراتيجية التي اعتمدها الصهاينة من أجل تحقيق الحسم في هذا الصراع هو القوة، والقوة فقط القائمة على المنعة العسكرية، الأمر الذي أدى إلى سيادة الطابع العسكري للمجتمع الإسرائيلي برمته، لدرجة دفعت رئيس وزراء إسرائيل الأول دفيد بن جوريون للقول إن «إسرائيل عبارة عن مجتمع للمحاربين».

ويعبر وصف بن جوريون هذا بشكل أمين وصادق عن مظاهر تأثير العسكرة على المجتمع الإسرائيلي. فهذا المجتمع الذي يقدس القوة، لا يحترم إلا القيم التي تعكسها، من هنا فإن المجتمع الإسرائيلي يمر بعملية عسكرة متواصلة، فالساسة هم جنرالات متقاعدون، ومدراء المؤسسات الاقتصادية هم من خريجي الجيش، والصحف ووسائل الاعلام تبحث عن معلقين من كبار الضباط المتقاعدين.

وضمن هذه العملية المتواصلة، فقد تمت عسكرة التعليم أيضا في الدولة العبرية. وكما تقول الباحثة والكاتبة الصحافية الإسرائيلية إرنا كازين «فإن من يطلع على مناهج التعليم في المدارس الإسرائيلية في جميع المراحل لا بد أن يلفت انتباهه التوجه العام القائم على التنشئة التربوية على روح العسكرة والتطوع للجيش واعداد الطفل حتى يكبر ليصبح مقاتلاً، لتكريس الروح الاسبارطية».

ولقد سادت هذه الروح منذ قيام إسرائيل في العام ١٩٤٨، وقد تغلغلت في جميع الأجهزة الرسمية وغير الرسمية الإسرائيلية ضمن محاولة لخلق «الإسرائيلي الجديد»، الإسرائيلي اليهودي الذي خرج منتصراً ضد سبعة جيوش عربية وأقام دولة «بعد ألف عام»، كما يحلو لواضعي فلسفة التعليم الإسرائيلي أن يكرسوا ذلك في أذهان الأطفال والشبيبة، وإلى غير ذلك من المزاعم الأسطورية.

ولا خلاف بين الباحثين في الدولة العبرية على أن هذه الروح تعززت بعد حرب العام ٦٧، والانتصار الساحق الذي حققته اسرائيل في هذه الحرب على كل من مصر وسوريا والأردن.

وقد تجسدت عملية عسكرة التعليم في الدولة العبرية في مظاهر ثلاثة أساسية:

أولاً: زرع مفاهيم العسكرة والقوة في نفوس الطلاب.

ثانياً: تكليف العسكر بإدارة مؤسسات التعليم وممارسة مهنة التعليم بأنفسهم.

ثالثاً: ظهور المدارس الدينية العسكرية: والتي تعتبر أخطر مظاهر عسكرة التعليم الإسرائيلي: لأن الطلاب هناك تتم تربيتهم على العسكرة وعلى التطرف الديني في صوره الأكثر سوداوية.

زرع قيم العسكرة

التربية على العسكرة في إسرائيل تتم بوسائل مختلفة ومتعددة، ويحاول جهاز التعليم في إسرائيل صبغ وعي الطفل الإسرائيلي بالعسكرة ومفاهيمها منذ نعومة أظفاره.

ففي رياض الأطفال تقوم إدارات هذه الروضات بتنظيم رحلات للأطفال لقواعد الجيش الإسرائيلي، وتحرص هذه الإدارات على أخذ صور تذكارية لكل طفل وهو يقف فوق دبابات الجيش، وبعد ذلك يتم توزيع رايات ألوية الجيش على الأطفال لكي يقوموا بتثبيتها على رياض الأطفال؛ في الوقت الذي لا يتم فيه لفت نظر هؤلاء الأطفال إلى قيم الديموقراطية والمساواة التي تدعي الدولة العبرية أنها قيم «مقدسة» لديها.

وتقوم إدارات المدارس الثانوية بتنظيم رحلات لطلابها إلى مواقع الجيش، حيث يشاهد الطلاب مناورات وتدريبات بالنار الحية، في حين يتم تنظيم رحلات إلى مواقع المعارك بين الجيش الإسرائيلي والجيوش العربية.

وتعمل إدارات المدارس على حث الطلاب على إرسال هدايا للجنود، سيما الجنود من المهاجرين الجدد الذين وفدوا على الدولة بدون ذويهم في الوقت الذي لا تبذل إدارات المدارس أي جهد في إقناع الطلاب بإرسال مثل هذه الهدايا للفقراء والمعوزين والمرضى وغيرهم.

في نفس الوقت يقوم الطلاب بإرسال رسائل إلى الجنود لشكرهم على «الجهود التي يبذلونها لحماية أمن الدولة والشعب».

ومن ضمن مناهج التعليم يتم تدريس تاريخ الحروب العربية الإسرائيلية، إلى جانب دراسة السير الذاتية لكبار القادة العسكريين الذين حققوا «إنجازات» خلال هذه الحروب، حيث يطلب من الطلاب عادة كتابة مواضيع إنشاء حول هؤلاء القادة.

وأحد الأمثلة التي تجسد عسكرة التعليم في إسرائيل بشكل واضح، وهو كتاب الرياضيات للصف الخامس الابتدائي الذي ألفه مردخاي فاشستوم، حيث إن المسائل الحسابية التي تتكون منها التدريبات التي يطلب من الطلاب الإجابة عليها تدور حول الجيش وألويته. فمثلاً يرد في الكتاب السؤال التالي: من بين ٦٣٤٠ جندياً مدرباً، طلب من ٤٠٧٠ الانضمام إلى وحدة المظليات، و١٧٤٥ إلى سلاح المشاة، كم بقي من الجنود؟

وضمن المناهج اللامنهجية التي تكرس العسكرة قيام مؤسسات التعليم بتنظيم رحلات للطلاب للمعارض الفنية التي تخلد ذكرى الجنود الذين قتلوا في حروب إسرائيل، سيما متحف «ياد لبنيم».

وتقول الباحثة في مجال التربية الدكتورة فيرد شمرون «بهذه الطريقة يتم تجنيد الفن من أجل التغطية على بشاعة الحرب». وتضيف شومرون أنه في خارج أسوار المدرسة يشاهد الطلاب الإعلانات التجارية التي تقدس الجيش، فمثلاً شركة «تنوفا» للألبان تقوم بلصق ملصقات دعائية حول الجبن، تقول فيه (٥٠٪ للمظليين، ٥٠٪ للواء جولاني، ١٠٠ للعائلة).

في نفس الوقت، وضمن برامج

فى رياض الأطفال تقوم إدارات هذه الروضات بتنظيم رحلات للأطفال لقواعد الجيش الإسرائيلى، وتحرص هذه الإدارات على أخذ صور تذكارية لكل طفل وهو يقف فوق دبابات الجيش، وبعد ذلك يتم توزيع رايات ألوية الجيش على الأطفال لكى يقوموا بتثبيتها على رياض الأطفال

الإذاعة المدرسية، يقوم الطلاب باستضافة جنرالات وكبار الضباط فى الجيش والمخابرات وإجراء مقابلات معهم، ويترك لبقية الطلاب توجيه أسئلة لهم.

إلى جانب كل ذلك تقوم ألوية الجيش والوحدات المختارة بلصق لوحات دعائية لها فى المدارس الثانوية لحث الطلاب فى المرحلة الثانوية على التطوع فى صفوفها بعد تجندهم الإجبارى للجيش، لأنه على الرغم من أن الخدمة العسكرية فى الجيش إجبارية فى الدولة العبرية، إلا أنه يترك للجنود عادة الانضمام للوحدات التى يرغبون بالانضمام إليها.

إلى جانب ذلك، فإن المدارس تتعاون مع قسم القوى البشرية فى هيئة أركان الجيش فى تنظيم دورات تجنيد للطلاب خلال المرحلة الثانوية، وذلك لإعداد الطلاب لمرحلة الجيش.

وتشير الباحثة فى مجال التربية الدكتورة ريلى مزالى إلى أن الضباط والجنود يدخلون إلى غرف التدريس ويتحدثون للطلاب عن الفظائع التى يرتكبها الجيش دون أن يثير ذلك أى تحفظ لدى أولياء أمور هؤلاء الطلاب.

العسكريون وجهاز التعليم

أحد أبرز مظاهر عسكرة التعليم فى إسرائيل هو تولى كبار ضباط الجيش فى الاحتياط مناصب إدارية مهمة فى جهاز التعليم وإدارة المؤسسات التعليمية.

فوزارة التعليم فى إسرائيل تقوم بتمويل مشروع يطلق عليه «تسافتا» ويهدف هذا المشروع إلى تأهيل الضباط المتقاعدين من الجيش والمخابرات للانخراط فى سلك التعليم.

وقام المشروع بتخريج ٣٠٠ ضابط، حيث تم دمجهم فى المؤسسات التعليمية. بعض هؤلاء الضباط درس لعام واحد ونال رخصة لممارسة التدريس، ومنهم من عين فورا فى وظائف إدارة فى المدارس، ومن الضباط من عينوا فى وظائف تربوية.

ومن الضباط من تولوا وظائف مرموقة فى جهاز التعليم بدون أى إعداد تربوى، مثل رون خلوداتى الرئيس الحالى لبلدية تل أبيب، والذى سبق له أن كان مديرا لمدرسة «جمنا سيا هرتسليا» وفرور الونى. ومن الضباط الذين تولوا مناصب فى جهاز التعليم ومارسوا التعليم ضباط كان لهم سجل إجرامى واضح ضد أبناء الشعب الفلسطينى، مثل العقيد ايلان باتمان الذى كان حاكماً عسكرياً لكل من رام الله وجنين.

اللافت للنظر والمثير للاستهجان هو أن القائمين على جهاز التعليم فى إسرائيل يعلنون أنهم لا يستعينون بخدمات الضباط فى التدريس لأغراض تربوية وتعليمية، بل لتكريس قيم العسكرة لدى الطلاب.

فها هو موطى ساجى، مدير مشروع برنامج إعداد الضباط فى جهاز التعليم الإسرائيلى يقول مدافعاً عن الاستعانة بالضباط فى التدريس قائلاً: «لدينا فى الجهاز التعليم لا يبحثون عن معلمين مهنيين، بل عن قياديين، فضباط الجيش المتقاعدون يتمتعون بميزات خاصة وقدرات ضخمة».

ويتحدث عن مزايا الضباط كمدرسين «هؤلاء الضباط فى عيونهم بريق وإحساس بأداء الرسالة». ويضيف «يقف أمام الطلاب رجل برتبة عقيد، بشخصيته القوية، فيحقق نجاحاً كبيراً. عندها يقف الطلاب لينشدوا النشيد الوطنى، وهكذا يتبين أنه ينقل إليهم العديد من القيم ولديه ما يسوقه لهم، أنه قادم من مدرسة لا مثيل لها: الجيش، أنه ليس كالمدرسات من خريجات كليات إعداد المدرسين».

وتفسر الدكتورة سيغال بن بورات، أستاذة التربية فى جامعة حيفا، ميل جهاز التعليم للاستعانة بخريجى الجيش، بقولها: «أن تكون مواطناً جيداً فى إسرائيل، يعنى أن تخدم فى الجيش وتندمج فى سوق العمل». وتضيف أن مصطلح (المواطنة الجيدة يخلو تماماً من المضامين الديموقراطية والإنسانية. وتستذكر أن جهاز التعليم فى الدول الديموقراطية يجب أن ينمى مواطنين وليس جنوداً ولا عمال.

مناهج لتكريس العنصرية

الذى يفاقم تأثير العسكرة فى نظام التعليم فى إسرائيل هو حقيقة أن مناهج التعليم الإسرائيلية تكرس منهجاً يدعو لمواصلة حالة الصراع.

فحسب بحث أعده الباحث الإسرائيلى ايلى بوديا المحاضر فى جامعة حيفا فإن كتب التدريس الإسرائيلية حالت دون تحقيق السلام مع العرب.

وحسب البحث فإن كتب التعليم فى إسرائيل ساهمت طيلة نصف القرن الماضى فى إشعال جذوة الصراع الفلسطينى العربى، وكرست حالة الحرب، وحالت دون التوصل للسلام بين العرب واليهود. ووصف بوديا مناهج التدريس اليهودية بـ «المنحرفة»، منوهاً إلى أن هذه المناهج تتميز بطغيان الصورة النمطية والأفكار المقولبة حيال العرب، وزرع كراهيتهم فى نفوس التلاميذ الإسرائيليين إلى حد الاستنتاج بأن ما جرى داخل جدران المدارس الإسرائيلية قد أثر إلى مدى بعيد فى قرار الحرب والسلام لدى قادة الدولة العبرية.

وأشار البحث الذى جاء تحت اسم «الصراع الإسرائيلى فى كتب التاريخ المدرسية العبرية».

والصادر عن مؤسسة مدار لدراسة الشئون الإسرائيلية فى رام الله، إلى أن الكتب المدرسية الإسرائيلية رعت نوعاً من الصراع الصامت بين الطرفين وحافظت عليه، وقادت بطريق غير مباشر إلى إثارة الصراع المسلح.

وأكد بوديا، أن جهاز التعليم الإسرائيلى قد اختار النهج القومى الذى يخضع الماضى لاحتياجات الراهن والمستقبل على حساب الحقيقة والموضوعية فى كتابة التاريخ بهدف خلق ذاكرة جماعية متميزة، منوهاً إلى أن ثلاثة أرباع الكتب التى تستخدم فى المدارس الإسرائيلية ليست مجازة ما يعنى انكشاف التلاميذ إلى مواد أكثر خطورة.

وأكد الباحث أن كتب التاريخ الإسرائيلية التى أخضعها للبحث انشغلت بتعميق القيم الصهيونية ورعاية الأساطير والتمجيد بأبطالها ضمن صهر المهاجرين فى بوتقة وذاكرة جماعية واحدة.

ولفت إلى أن تلك الكتب وصفت الصراع بطريقة تبسيطية أحادية الأبعاد ومشبعة بعدم الدقة إلى حد التشويه.

وأوضح الكاتب أن هذه الكتب سعت لشيطنة العرب وتجريدهم من إنسانيتهم، ما أدى إلى ترسيخ صورة نمطية لدى الإسرائيليين الذين ظهروا دائماً بصورة الغربيين المتحضرين صانعى السلام مقابل صورة العرب «الخونة العدوانيين المتخلفين والمجرمين والخاطفين القذرين والبادرين دوماً نحو التدمير». وحول تناول هذه الكتب لأول مواجهة مع المسلمين التى حدثت فى المدينة المنورة، فإن هذه الكتب تصف القبائل اليهودية فى تلك الفترة بأنها «شريفة ومحترمة وشجاعة، بينما وصف العرب بأنهم ماكرون وخونة وبأنهم هزموا اليهود بالخدعة والمؤامرة».

ونوه الكاتب إلى أن تعابير مثل متوحش ومحتال ومخادع ولص وسارق وإرهابى، كانت كثيراً ما تستخدم فى وصف العربى بينما ما يرتكب ضد اليهود يسمى عداوات ومذابح ومجازر بغية خلق صلة بين العرب وبين اللاسامية المتأصلة فى تجارب التاريخ اليهودى فى أوروبا، مشيراً إلى أن العرب يوصفون بأنهم النسخة الحديثة من العماليق (ألد أعداء الإسرائيليين فى التوراة).

ويؤكد الكاتب أن كتب التدريس عززت عملية ابتعاد اليهود عن العرب، وهذا بدوره زاد من مستوى أسطرة الصراع وعزز الميل إلى تجريد العرب من إنسانيتهم.. ونوه الكاتب إلى أن التحامل الإسرائيلى ضد العرب كان إسقاطاً للموقف اليهودى تجاه الغريب فى الشتات.

ويقتبس الباحث قول الباحث اليهودى سيفريد ليحمان، الذى قال: «نحن كيهود نميل إلى رؤية العربى كغير اليهودى كأحد الأغيار، نحن كأوروبيين نراه آسيوياً خصماً لتطلعاتنا القومية وكاشتراكيين نحن نراه كممثل لأشد أنماط الرجعية سواداً»..

وأشار بوديا، إلى أن ردة فعل غريبة جاءت فى إسرائيل على زيارة الرئيس المصرى الراحل أنور السادات، حيث حرص كبار المسئولين فى الدولة على الدعوة إلى تعميق القيم الصهيونية على حساب ثقافة السلام.

واقتبس من كلام الوزير التعليم السابق زبولون هامر قوله: هناك زعماء عرب يظنون أنهم إن لم يكونوا قادرين على القضاء علينا فى ميدان المعركة، فإنهم سينجحون فى فعل ذلك عن طريق عملية «السلام».

ويؤكد الباحث أن كتب التدريس الإسرائيلية تحاول أن تكرس قناعة مفادها أن السلام مع العرب «يهدد إسرائيل المهزوزة ويستلزم تحصين الناشئة بتقوية الوعى الصهيونى».. ويؤكد البحث أنه عندما حاول وزير التعليم السابق اسحاق نافون إحداث تقارب بين التلاميذ العرب واليهود داخل إسرائيل، لم يشارك فى هذه الأنشطة إلا ٢٪ من المربين اليهود، منوهاً للموقف الصارم للمؤسسة الدينية اليهودية الرافض لعقد مثل هذه اللقاءات. بحيث إن ذلك يثبت أن الذاكرة الجماعية لليهود كضحايا لمخططات

الاضطهاد والإبادة جعلتهم «سجناء ماضيهم الخاص»..

ويؤكد الباحث أن الإسرائيليين كانوا يعرفون عن الإسكندنافيين أكثر مما يعرفونه عن جيرانهم العرب، وهو ما ساهم في تعقيد الصراع كما ساعد في خلق أرضية بررت استخدام القوة ضد العرب.

وينوه إلى أن ٤,١٪ فقط من الوقت المحدد للتاريخ في المدرسة الإسرائيلية قد خصص للتاريخ العربي، لافتاً إلى موافقته على رأى باحثين أجانب بأن اليهود نقلوا صورة الأغيار من الشتات إلى إسرائيل وسلطوها على العرب بشكل خاطئ.

من ناحيته يقول الكاتب والناقد أنطوان شلحت، الذى كتب مقدمة للبحث أن السنوات التى تلت العام ٢٠٠٠ قد شهدت صعوداً يمينياً متطرفاً إلى رأس هرم جهاز التعليم فى الكيان، بعد تسلم ليمور لفنات من حزب الليكود حقيبة التعليم.

واقتبس شلحت الباحث سامى شالوم، الذى رأى بفترة وزيرة التعليم السابقة ليمور لفنات الأكثر خطورة بالنسبة للتعليم الإسرائيلى، باعتبارها «قاب قوسين أو أدنى من الفاشية التامة». وتنوه إلى أن ليفنات قد أخرجت كل ما ليس مستمداً من الرواية الصهيونية التاريخية، والتى تعتبر أن فلسطين كانت خالية من السكان عدا قلائل هربوا عام ١٩٤٨...

المدارس الدينية العسكرية

«يشيفوت ههسدير»

ينقسم المتدينون فى إسرائيل إلى تيارين أساسيين:

١- التيار الدينى الأرثوذكسى: وهو التيار الذى توصلت مرجعياته الروحية مع مؤسس الدولة دافيد بن جوريون إلى اتفاق يقضى بإعفاء المنتسبين إليه من طلاب المعاهد والمدارس الدينية من الخدمة العسكرية، والتفرغ لدراسة الدين، مع العلم أن أتباع هذا التيار يشكلون حوالى ١٨٪ من اليهود فى إسرائيل.

٢- التيار الدينى الصهيونى: وهو التيار الذى اعتبر نفسه منذ البداية جزءاً لا يتجزأ من الدولة، واعتبرت مرجعياته الروحية الخدمة العسكرية ليس مجرد واجب تقتضيه المواطنة، بل فريضة دينية يتوجب القيام بها على أكمل وجه.

ويشكل أتباع هذا التيار فقط من ٧-١٠٪ من عدد اليهود، وذراعهم السياسى حزب «المفدال» الدينى، وينتمى معظم المستوطنين إلى هذه الشريحة.

حتى أواخر السبعينيات من القرن الماضى ظلت نسبة المتدينين الصهاينة فى الهيئات القيادية فى الجيش حتى أقل من النسبة التى يمثلونها من حيث تعداد السكان.

فحتى ذلك الوقت ظل القادمون من القرى التعاونية «الكيبوتسات» - التى تمثل قلاع العلمانية الإسرائيلية - ينفردون بتبوؤ المواقع القيادية فى الجيش، لدرجة أن الانتماء لـ«الكيبوتس» كان رديفاً للانتساب للوحدات المختارة فى الجيش، مع أنه بمثل هذا الانتساب تفتح الطريق أمام هؤلاء الضباط والجنود لتبوؤ المواقع القيادية فى الجيش والدولة مستقبلاً. لكن منذ ذلك الوقت حدث تغير دراماتيكى متلاحق ولافت للنظر.

فقد قلت نسبة خريجى «الكيبوتسات» الذين يلتحقون بالوحدات المختارة بسبب تحلل الكثير من هؤلاء من الإيمان بـ«واجب التضحية من أجل الدولة». فى المقابل حدثت عملية عكسية تماماً، حيث كانت توجيهات المرجعيات الروحية للتيار الدينى الصهيونى لأتباعها بأن عليهم يتوجهوا تحديداً للانخراط فى الوحدات المختارة والسريات النخبوية فى الجيش، من أجل قيادة الجيش وبالتالى التحكم فى المشروع الصهيونى.

الذى سهل على الصهاينة المتدينين تحقيق هدفهم هو وجود ما يعرف بالعبرية بـ«يشيفوت ههسدير» وهى مدارس دينية عسكرية - يمولها الجيش - والتى ينضم إليها حصراً أتباع التيار الدينى الصهيونى بعد تخرجهم من المدرسة الثانوية.

فأواخر السبعينيات توصلت المرجعيات الروحية للتيار الدينى الصهيونى إلى اتفاق مع هيئة أركان الجيش الإسرائيلى تم الاتفاق بموجبه على أن تتولى المدارس الدينية التابعة لهذا التيار مهمة إعداد الشباب الذين ينتمون لتيار الصهيونية الدينية لمرحلة الجيش.

بحيث يتولى الحاخامات الذين يشرفون على هذه المدارس محاولة زيادة الدافعية لدى هؤلاء الشباب للتطوع للخدمة فى الوحدات المقاتلة والمختارة فى الجيش وذلك عبر زرع قيم التضحية من أجل الوطن وغيرها من القيم فى نفوس هؤلاء الطلاب، إلى جانب إعدادهم بشكل مهنى لمرحلة الجيش؛ بحيث يتم إعداد هؤلاء الطلاب عسكرياً عن طريق ضباط يقوم الجيش بإرسالهم إلى هذه المدارس ليتولوا تدريب الطلاب على استخدام السلاح، وبعض التدريبات العسكرية داخل إطار المدرسة.

ويتولى الجيش دفع مستحقات التعليم فى هذه المدارس، إلى جانب دفع رواتب الحاخامات الذين يتولون التدريس فيها. لكن الجيش فى نفس الوقت لا يتدخل فى منهاج التعليم غير العسكرية، حيث يحظى الحاخام الذى يدير المدرسة بحرية عمل كاملة. فنظام التعليم فيها مستقل تماما وتتحكم فيه المرجعيات الروحية للتيار الدينى الصهيونى دون أى قدر من الرقابة على مضامين مناهج التعليم فيه إلى جانب مظاهر العسكرة الصارخة التى تقوم عليها هذه المدارس، فإن الطلاب فيها يتلقون تعليماً دينياً بالغ التطرف ويقوم على العنصرية وكراهية الآخر بشكل فج. ويكفى أن نعرف أن معظم هذه المدارس تقع إما فى المستوطنات، أو فى القدس المحتلة ويشرف عليها مدراء هم من أكثر الحاخامات تطرفاً. وإلى جانب العسكرية، فإن هذه المدارس تربى طلابها بصراحة على رفض القيم الديموقراطية.

يقضى هؤلاء ثمانية عشر شهراً فى هذه المدارس، يمارسون خلالها تعليمهم الدينى وفى نفس الوقت يؤدون الخدمة العسكرية، مع العلم أنه بعد تخرجهم منها يقضون ثلاثين شهراً إضافية فى الخدمة العسكرية.

يبلغ عدد هذه المدارس اثنتين وأربعين مدرسة، والشعار الذى ترفعه هذه المدارس أن «الخدمة العسكرية والروح القتالية هى مهمة جماعية يفرضها الدين بهدف قيادة المشروع الصهيونى».

من هنا كان كل طالب فى هذه المدارس لا ينظر خلال تأديته الخدمة العسكرية أنه يؤدى خدمة إجبارية تنتهى بعد ثلاث سنوات، بل إنها بوابة واسعة لممارسة التأثير على مستقبل الدولة وعلى عملية صنع القرار فيها.

وعلى الرغم من أن الخدمة العسكرية فى إسرائيل إلزامية، إلا أن الانتساب للوحدات المختلفة داخل الجيش هى أمر اختيارى وطوعى.

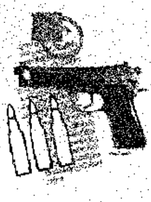
وبفعل التثقيف والتعبئة التى يتعرضون لها داخل «يشيفوت ههسدير» فإن أتباع التيار الصهيونى الدينى يتجهون للانتساب للوحدات المختارة، وسرايا النخبة فى الجيش.

شيئا فشيئاً أصبح معظم قادة الوحدات القتالية هم من المتدينين.

ومعظم القادة والمنتسبين للوحدات المختارة مثل «سرية وحدة الأركان»، و«ايجوز»، «دوفيديفان» و«يسام»، هم أيضاً من المتدينين. ليس هذا فحسب أن المتدينين يحتكرون الخدمة فى ما يعرف بـ«سرايا النخبة» التابعة لألوية المشاة، فمثلاً ٦٠٪ من القادة والمنتسبين لسرية النخبة فى لواء المشاة «جفعاتى» هم من المتدينين.

تغلغل المتدينين الصهاينة فى المواقع القيادية للجيش دفع الجنرال يهودا دونيديثان الذى كان مسئولاً عن قسم «الشبيبة» فى وزارة الدفاع للقول أن أتباع التيار الدينى الصهيونى

ردة فعل غريبة جاءت فى إسرائيل على زيارة الرئيس الراحل أنور السادات، حيث حرص كبار المسئولين فى الدولة على الدعوة إلى تعميق القيم الصهيونية على حساب ثقافة السلام



أصبحوا يشكلون «العمود الفقارى» للجيش.

لا يقتصر اندفاع المتدينين خريجى «يشيفوت ههسدير» نحو المواقع القيادية فى الجيش، بل أيضاً فى الأجهزة الاستخبارية، فعلى الرغم من أنه لا يعلن عادة عن هوية الذين يخدمون فى الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية، إلا أن التسريبات الصحافية تؤكد أن المتدينين أصبحوا يمثلون ثقلاً متصاعداً داخل جهاز المخابرات الداخلية «الشاباك»، وهو أكثر الأجهزة الاستخبارية تأثيراً على دوائر صنع القرار فى الدولة.

وما ينطبق على الجيش والمخابرات ينطبق على الشرطة وحرس الحدود. وهذا كله بالطبع بفضل وجود المدارس الدينية العسكرية.

مدرسون ومرجعيات للإفتاء

اللافت للنظر أن معظم المدراء والمعلمين فى المدارس الدينية العسكرية هم من الحاخامات، وبعضهم يعتبر مراجع هامة للإفتاء، وفتاوى هؤلاء يتم تدريسها فى هذه المدارس للطلاب ويتم التعامل معها بقدسية الكتب المقدسة.

ويكفى هنا أن نطلع على بعض الفتاوى التى يدرسها هؤلاء الطلاب حتى نتعرف على نوعية التعبئة والتثقيف التى يتلقاها هؤلاء الطلاب. ففى هذه المدارس يتم تدريس عدد كبير من الفتاوى التى تعمل على تكريس ثقافة الكراهية وتدفع الشباب اليهودى إلى تبنى مواقف عنصرية ظلامية من العرب والمسلمين. وأكثر من ذلك، تمهد الطريق أمام ارتكاب المجازر ضد الفلسطينيين.

ولعل أخطر الفتاوى التى يتعلمها ويتلقنها طلاب المدارس الدينية العسكرية هى الفتاوى التى يصدرها الحاخام مردخاى الياهو، الحاخام الأكبر السابق للدولة العبرية، وأهم مرجعية دينية للصهاينة المتدينين الذين تتبع لهم «يشيفوت ههسدير» حصراً.

وتتحول فتاوى هذا الحاخام إلى مادة دراسية وعلمية يتنافس المدرسون من الحاخامات على تدريسها. فقد أصدر هذا الحاخام فتوى تدعو لإبادة الفلسطينيين بشكل كامل. مردخاى قال فى فتوى تم تعميمها على جميع المدارس الدينية العسكرية، ونشرتها وسائل الإعلام الإسرائيلية، وحظيت باهتمام خاص من قبل وسائل الإعلام الدينية وتم تضمينها المئات من المطبوعات التى توزع داخل الكنس اليهودية فى الدولة العبرية أنه يتوجب قتل جميع الفلسطينيين حتى أولئك الذين لا يشاركون فى القتال ضد الاحتلال.

لم يكتف الحاخام البارز بذلك، بل اعتبر أن هذه ليست مجرد فتوى، بل «فريضة من الرب يتوجب على اليهود تنفيذها».

بعد ذلك بأسبوع قام الحاخام اليعازر ملميد مدير المدرسة الدينية العسكرية فى مستوطنة «تفوح» بإصدار فتوى تبيح لطلاب مدرسته سرقة محاصيل المزارعين الفلسطينيين، على اعتبار أنهم جزء من «الأغيار الذين يجوز لليهود استباحة ممتلكاتهم».

بالفعل فقد تم تطبيق فتوى الحاخام وقام تلامذته بنهب المحاصيل الزراعية للفلسطينيين فى شمال الضفة.

دوف ليئور الحاخام الأكبر لمستوطنة «كريات أربع» شمال شرق مدينة الخليل، ورئيس مجلس المستوطنات فى الضفة الغربية، والذى يدير فى نفس الوقت مدرسة دينية عسكرية أصدر فتوى تبيح للمستوطنين تسميم مواشى ودواب وآبار المياه التى يملكها المزارعون الفلسطينيون فى البلدات والقرى المجاورة للمستوطنة. وأيضاً هنا لم يتردد المستوطنون والطلاب فى تنفيذ الفتوى، فلا يكاد يمر يوم فى الفترة التى تلت إصدار الفتوى، دون أن يستيقظ سكان هذه البلدات والقرى، إلا ويجدوا الكثير من دوابهم قد نفق بفعل السموم التى يرشها المستوطنون على المراعى التى تقصدها ماشية الفلسطينيين.

وفى السابع من أيلول من عام ٢٠٠٥ وجه كبار الحاخامات اليهود، رسالة تتضمن فتوى دينية إلى رئيس الحكومة الإسرائيلية السابق اريئيل شارون، حثوه فيها على عدم التردد فى المس بالمدنيين الفلسطينيين خلال المواجهات المندلعة فى الأراضى المحتلة، وجاء فى الفتوى التى وقعها الحاخامات المسئولون عن المدارس الدينية، وفى المقدمة منهم الحاخام دوف ليئور، ما نصه: «نحن الموقعون أدناه، ندعو الحكومة الإسرائيلية والجيش الإسرائيلى إلى العمل حسب مبدأ: من يقم لقتلك، سارع إلى قتله . وأضافت الرسالة: «لا وجود فى العالم لحرب يمكن فيها التمييز بشكل مطلق، بين المدنيين والجيش، لم يحدث ذلك فى الحربين العالميتين، ولا فى حرب الولايات المتحدة فى العراق، وحرب روسيا فى الشيشان، ولا فى حروب إسرائيل ضد أعدائها، قومية تحارب قومية، قومية تنتصر على قومية» على حد تعبير الرسالة .

وأردف الحاخامات: «والسؤال المطروح أمامنا هو هل نحارب العدو من خلال هجوم يقتل خلاله مدنيون من صفوفه»؛ أو نمتنع عن الحرب بسبب المدنيين فنخاطر بذلك بالمدنيين لدينا؟ الجواب على السؤال نجده ببساطة لدى الحاخام عكيفا (أحد مرجعيات الإفتاء لليهود فى العصور الغابرة، الذى قال: حياتنا أولى»، واعتبر الحاخامات أن هذا ما درج عليه ملوك إسرائيل على مر التاريخ، مضيفين: «هكذا تصرف شعب إسرائيل منذ أيام النبى موسى، الذى حارب أهل مدين، وهكذا تصرف يفتاح الجلعادى، شاؤول، داود، وكل قادة إسرائيل على مر العصور، وهكذا تصرفت دولة إسرائيل فى حرب الأيام الستة، وهكذا هو التعامل به فى القانون الدولى، لا حاجة ولا فائدة من انتظار المهاجم حتى يبدأ هجومه، بل يجب استباقه ومنعه من تنفيذ مآربه، كما جاء فى نص الفتوى .

وحذر الحاخامات مما سموه التقليد النصرانى فى التعامل فى النزاعات القائل «أدر خدك الثانية»، وفى إشارة إلى نشطاء السلام الإسرائيليين قال البيان «لن نتأثر بمن بلغوا الدرك الأسفل منطقيا وأخلاقيا من خلال تفضيلهم لحياة الأعداء على حياتنا . وما يهم هنا أن هذه الفتوى تم تدريسها فى حينه لطلاب المدارس الدينية العسكرية فى جميع أرجاء الدولة العبرية.

هذه الخلفية تفسر العديد من فتاوى الحاخامات، التى تدرس فى «يشيفوت ههسدير» التى تستهين بحياة العرب وتتعامل معهم بازدراء شديد.

فمثلاً يتعلم طلاب المدارس الدينية فتوى الحاخام دوف ليئور التى حظر فيها تبرع اليهود بأعضائهم للأغيار، لكنه أباح لهم عند الضرورة تلقى تبرعات مماثلة من أولئك الأغيار.

وأمام احتجاج رابطة تبرع الأعضاء فى إسرائيل غير الحاخام فتواه قليلا. بحيث أباح لليهودى أن يتبرع بعضو لشخص يحتاج فى حالة الضرورة وقال إن اليهود إذا ما امتنعوا عن التبرع للأغيار، فإن هؤلاء الأخيرين لن يعطوهم شيئا بالتالى، وهذا قد يسهم فى الإضرار باليهودى الذى قد يحتاج إلى الحصول على عضو بديل ينقذ به حياته، ومن ثم فإنه اعتبر أن السماح يتبرع اليهودى لأى واحد من الأغيار، هو فى حقيقة الأمر احتياط هدفه تحقيق مصلحة اليهودى فى أى فترة لاحقة، غدا أو بعد غد.

ومن المواد العنصرية التى تدرس فى هذه المدارس التفوهات العنصرية الصادرة عن الزعيم الروحى لحزب «شاس» عوديا يوسف الذى قال «عندما يأتى المسيح المنقذ، فإنه سيرسل كل العرب إلى جهنم».

وأضاف: «لماذا لا يفعل اريئيل شارون ما يجب فعله؟ إنه يخاف من شعوب العالم، لكن المسيح المنقذ حين يأتى فإنه لن يخشى أحدا، وسيرسل كل هؤلاء العرب إلى جهنم».

ويصف يوسف العرب بـ «الثعابين» ويدعو إلى عدم الوثوق بهم على الإطلاق.

إلى جانب مظاهر العسكرة الصارخة التى تقوم عليها هذه المدارس، فإن الطلاب فيها يتلقون تعليماً دينيا بالغ التطرف ويقوم على العنصرية وكراهية الآخر بشكل فج

ويقبل طلاب هذه المدارس على الاطلاع على كتب دينية ذات طابع عنصري مقيت، مثل الكتاب الذى أصدره الحاخام اسحاق غينزبرج بعنوان «باروخ البطل» جاء تخليداً لاسم باروخ جولد شتاين، الذى نفذ مجزرة الحرم الإبراهيمى فى العام ١٩٩٤.

ويعتبر هذا الحاخام أن جولدشتاين قد قام بعمل «جليل ومجيد». وهكذا فإن جميع طلاب المدارس الدينية يتربون على أن جولدشتاين هو فى مرتبة القديسين، وجعلوا من قبره مزاراً يتبركون به.

وفى المدارس الدينية يتم التهجم على الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم. فها هو الحاخام ايلى الباز، الذى يحاضر فى العديد من المدارس الدينية، والذى يعتبر من أبرز الحاخامات الشرقيين، لا يفوت فرصة دون التهجم على دين الإسلام والتعرض لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بالذم.

ليس هذا فحسب، بل إن هذا الحاخام المجرم يصر على التندر أمام مستمعيه بترديد النكات التى تمس بالمسلمين والفلسطينيين ويستخدم عبارات نابية فى مواجهة المسلمين. أما الحاخام الياهو ريسكين، والذى يدير المدرسة الدينية العسكرية فى مستوطنة «افراتا» القريبة من بيت لحم ويعتبر أحد كبار حاخامات المستوطنين فيسخر من الدعوات لإجراء حوار بين حاخامات اليهود والقائمين على المؤسسة الدينية الرسمية فى العالم العربى.

ويرى ريسكين أن لغة الحوار الوحيدة بين المسلمين واليهود هو «الرصاص» معتبراً أنه بدون إقناع العرب بشكل عام والفلسطينيين بشكل خاص أنه لا يمكن فرض تسوية على «إسرائيل» بالقوة، فإنه لا طائل من مثل هذه الحوارات.

من ناحية نظرية بحتة، ولكون دولة إسرائيل دولة علمانية، فإنه لا توجد مكانة قانونية للفتاوى التى يصدرها كبار الحاخامات فى الشئون السياسية والعسكرية، باستثناء الشئون الدينية التى تنظم شئون الفتوى بخصوصها مؤسسة الحاخامية الكبرى، والتى تمثل أكبر هيئة دينية فى الدولة. لكن من ناحية عملية، فإن الثقافة السائدة فى الدولة العبرية تجعل لهذه الفتاوى، سيما الصادرة عن مرجعيات الإفتاء الكبيرة فى الدولة أهمية قصوى وتأثيراً بالغاً ليس فقط على قطاعات واسعة من اليهود، وعلى رأسهم طلاب المدارس الدينية، بل على دوائر صنع القرار فى الدولة العبرية. صحيح أن المتدينين سواء الذين يتبعون التيار الدينى الصهيونى أو التيار الدينى الأرثوذكسى يشكلون حوالى ٢٨٪ من مجمل المستوطنين فى الدولة، إلا أن أكثر من ٥٠٪ من سكان هذه الدولة يعرفون أنفسهم كمحافظين، وهؤلاء يولون أهمية كبيرة لما يصدر عن المرجعيات الدينية فى أرجاء الدولة.

لكن مكمن الخطورة فى تأثير هذه الفتاوى العنصرية التحريضية يكمن - كما أسلفنا - فى تأثيره على المتدينين، وعلى وجه الخصوص طلاب المدارس الدينية العسكرية الذين ينطلقون بشكل كبير لتولى المناصب العليا فى الجيش والأجهزة الاستخبارية.

فحسب دراسة أعدها قسم العلوم الاجتماعية فى جامعة «بار ايلان» التى يسيطر عليها المتدينون تبين أن أكثر من ٩٩٪ من طلاب المدارس الدينية العسكرية، و٩٠٪ من المتدينين بشكل عام يعتقدون أنه فى حال تعارضت قوانين الدولة وتعليمات الحكومة مع فحوى الفتاوى الصادرة عن الحاخامات، فإن عليهم أن يتجاهلوا قوانين الدولة وتعليمات الحكومة والعمل وفق ما تنص عليه فتاوى الحاخامات.

ولا خلاف بين علماء الاجتماع السياسى فى الدولة العبرية وكذلك الجنرالات المتقاعدين على أنه لن يكون ذلك اليوم بعيداً الذى تنتقل فيه قيادة الجيش بأكملها إلى اتباع التيار الدينى الصهيونى.

تكريس النزعات الانفصالية:

لكن وجود هذه المدارس أشعل الأضواء الحمراء لدى الكثير من النخب فى الدولة العبرية التى باتت ترى فى هذه المدارس تهديداً للنظام الديموقراطى الإسرائيلى ونقطة انطلاق لتشجيع النزعات الانفصالية عن الدولة.

ففى النظم الديموقراطية ينحصر دور المستوى العسكرى فقط فى تنفيذ السياسات التى تقررها الحكومات التى تفرزها الانتخابات. ويعد عدم التزام العسكر بتعليمات الحكومة تقويضاً عملياً لتلك الديموقراطية. هنا يكمن الخطر فى تبوؤ المتدينين للمواقع القيادية فى الجيش، الذى تضمنه لهم «يشيفوت ههسدير».

فالقائد والجندى المتدين فى الجيش الإسرائيلى قد تمت تربيته على أنه عندما يفرض عليه الاختيار بين تنفيذ الأوامر العسكرية الصادرة عن قيادته وحكومته المنتخبة، وتعليمات مرجعياته الروحية، فإنه لا يتردد فى تلبية تعليمات المرجعيات الدينية.

ولعل المثال الأكثر وضوحاً على ذلك هو ما قاله الجنرال يسرائيل فايس كبير حاخامات الجيش الذى قال مؤخراً أنه يفضل خلع بزته العسكرية على تنفيذ أى أمر يصدر عن قيادة الجيش ويتعارض مع تعليمات الحاخام إبراهام شابيرا، ثانى أهم مرجعية روحية للتيار الدينى الصهيونى.

المفارقة أن مدراء «يشيفوت ههسدير» من الحاخامات الذين يحرصون على تذكير طلابهم الذين يعدونهم لقيادة الجيش والدولة أنه لا مصدر أكثر قدسية من تعليمات التوراة والكتب المقدسة اليهودية، وأن أى تعليمات تصدرها قيادة الدولة يجب أن تفقد شرعيتها فى حال تعارضت مع تعاليم الدين التى تحتكر المرجعيات الروحية للتيار الدينى الصهيونى الحق فى تفسيرها.

فمثلاً جميع المرجعيات الروحية للصهيونية الدينية دعت أتباعها من القادة والجنود إلى رفض تعليمات قيادة الجيش بالمشاركة فى تنفيذ خطة «فك الارتباط».

ولعل الذى يعكس صدقية المخاوف من تأثير وجود هذه المدارس الكبير هو حقيقة أن معظم الذين شاركوا فى الاحتجاجات ضد عمليات إخلاء المستوطنات هم من طلاب وخريجى المدارس الدينية العسكرية. ليس هذا، بل إن حاخاماً بحجم إبراهام شابيرا دعا أتباعه من طلاب المدارس الدينية العسكرية للانشقاق عن الجيش فى حال تمت تنفيذ خطة «فك الارتباط».

بعض حاخامات الصهيونية الدينية من الذين يديرون بعض المدارس الدينية العسكرية دعوا طلابهم وأتباعهم إلى إطلاق النار على أفراد الأمن الإسرائيلى الذين يشاركون فى إخلاء المستوطنات. كما أفتى الحاخام حاييم دروكمان الذى هو نفسه مدير لإحدى «يشيفوت ههسدير» فى منطقة الخليل.

وحسب استطلاع لآراء الضباط والجنود المتدينين أشرف عليه مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات ونشر العام الماضى، تبين أن أكثر من ٩٥٪ من الجنود والضباط المتدينين يرون أنهم سينفذون تعليمات الحكومة المنتخبة وقيادتهم فى الجيش فقط فى حال توافقت مع الفتاوى التى يصدرها كبار الحاخامات والمرجعيات الدينية. وكما يقول الجنرال شلومو غزيت، رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية سابقاً فإنه «لا يختلف اثنان فى إسرائيل على أن الجندى المتدين الذى يتخرج من المدارس الدينية العسكرية يرى فى الحاخام الذى يدرسه أو يدير المدرسة التى يتعلم فيها هو قائده الأعلى وليس قائده العسكرى».

من هنا فقد كان تحذير رئيس «الموساد» الأسبق الجنرال دانى ياتوم واضحاً وقاطعاً، فإمكانية أن يحدث انقلاب عسكرى على الحكومات المنتخبة فى إسرائيل أصبحت أمراً وارداً بسبب التثقيف التى تمنحه المدارس الدينية العسكرية لطلابها الذين يتجهون بقوة إلى تبوؤ المواقع القيادية فى الجيش.

قام الحاخام ملميد مدير المدرسة الدينية العسكرية فى مستوطنة «تفوح»، بإصدار فتوى تبيح للطلاب سرقة محاصيل المزارعين الفلسطينيين، على اعتبار أنهم جزء من «الأغيار»



وإن كان مثل هذا السيناريو ظل ينظر إليه في إسرائيل حتى وقت قريب على أنه محض خيال، فإن المخاوف على استقرار النظام السياسي بسبب اندفاع المتدينين الصهاينة نحو المواقع القيادية في الجيش أصبحت حديث الساعة في الدولة العبرية. فإلى جانب ياتوم فإن هناك عدداً كبيراً من الجنرالات المتقاعدين والساسة، فضلاً عن الباحثين والصحافيين من يرى في تغلغل طلاب المدارس الدينية العسكرية من أتباع التيار الديني الصهيوني الواسع في الجيش أكبر خطر يهدد النظام «الديموقراطي» في الدولة العبرية، لدرجة أن هناك من دعا إلى التوقف عن استيعاب المتدينين الصهاينة في الوحدات القتالية، وسد الطريق أمام تبوؤهم المراكز القيادية في الجيش.

ويضيف ياتوم «قبل عامين كنت أعتقد أن هذا السيناريو وهم وخيال، لكنه أصبح واقعياً في ضوء الأحداث الأخيرة التي تشهد فيها مظاهر العصيان في الجيش، والتشكيك في شرعية الحكومة والبرلمان، من قبل حاخامات الصهيونية الدينية، وتحديداً الذين يديرون المدارس العسكرية الدينية».

ويرى المفكر الصهيوني يافي شيلغ أن الغرور أعمى أتباع التيار الديني الصهيوني من خريجي وطلاب المدارس العسكرية الدينية بحيث لم يعودوا يستسيغون أن يتم حسم القرارات المصيرية للدولة خارج عباءة رجال الدين.

ويصل شيلغ إلى القول أن هذا الغرور قد أدى إلى ظهور النزعات الانفصالية لهذا التيار عن الدولة ومؤسساتها.

ويصل الكاتب يارون لندن إلى نفس النتيجة محذراً من تفاقم النزعات الانفصالية لدى التيار الصهيوني الديني، اللافت للنظر أنه وعلى الرغم من تحذير النخب العلمانية من خطورة المدارس الدينية العسكرية، والحاخامات الذين يديرونها على النظام الديموقراطي في الدولة، إلا أن مؤسسات حفظ القانون والنظام في الدولة العبرية لم تحاول ولو مرة واحدة التعرض لهؤلاء الحاخامات أو مساءلتهم عن هذا التحريض العنصري الذي لا يوازيه تحريض.

ليس هذا فحسب، بل إن الحاخامات المتورطين في هذا التحريض يحظون بثقل متزايد في السياسة الإسرائيلية، ويتنافس صناع القرار السياسي في الدولة العبرية على استرضائهم والتقرب منهم، والتزلف إليهم.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا هذا الصمت إزاء هذه الفتاوى القاتلة، ولماذا الكيل بمكيالين؟.

الذي يثير المرارة أن أحداً في العالم العربي لم يحاول الاهتمام بما يصدر عن المرجعيات الدينية الكبرى في الدولة العبرية من فتاوى ويحاول اطلاع الرأي العام والعربي والعالمي على هذا التثقيف على الحقد الأعمى في المدارس الدينية العسكرية التي تمثل النبع الآسن من الكراهية.

لا شك أن المعطيات السابقة يجب أن تشعل الأضواء الحمراء لدى دوائر صنع القرار في العالم العربي، إن كان هناك ثمة من يلقي بالاً لما يحدث في إسرائيل. فعسكرة التعليم في إسرائيل وتبوؤ المتدينين المراكز القيادية في الجيش سيؤثر مستقبلاً بشكل كبير على طابع العلاقات بين إسرائيل مع العالم العربي. فالجيش الذي سيكون تحت قيادة المتدينين هو غير الجيش الحالي، على الرغم من أن معظم القادة الحاليين ذوو نزعات عنصرية متطرفة. الجيش الإسرائيلي تحت قيادة المتدينين سيدفع الحكومة إلى سياسات أكثر تصادماً مع العالم العربي، فضلاً عن أنه سيتجاهل مظاهر الغزل التي تبديها أنظمة الحكم العربية تجاه الدولة العبرية، وذلك بفعل تأثرهم الشديد بالأفكار الخلاصوية التي توغل في نفيها للآخر العربي وازدرائه. ■

المراجع:

(١) امنون ليفي، «المتدينون الجدد»، ماجناس، تل أبيب ١٩٩٢.

(٢) أيلي بودايا: الصراع في كتب التاريخ المدرسية العبرية، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية: رام الله، ٢٠٠٥.

(٣) داني ياهف، «ما أروع هذه الحرب»، المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية: رام الله، ٢٠٠٦.

(٤) مجلة قضايا إسرائيلية، السنة الأولى، العدد ٢، صيف ٢٠٠١.

(٥) مجلة قضايا اسرائيلية، السنة الثانية، العدد ٨، خريف ٢٠٠٢.

(٦) معاريف ٢٠٠٥/٣/٢٤.

(٧) معاريف ٢٠٠٢/٦/١٩.

(٨) يديعوت أحرونوت ٢٠٠٢/٧/٥.

كتاب الزاوية

في العبودية المختارة

سذاجة الشعوب

كان ملوك آشور ومن بعدهم ملوك ميديا لا يظهرون علانية إلا بعد وقت متأخر بقدر المستطاع ليتركوا الجمهور في شك: أهم بشر أم شيء يزيد. وليسلموا لهذه الأحلام أناساً لا ينشط خيالهم إلا حيث يعجزون عن الحكم على الأشياء عياناً. هكذا عاشت في ظل الإمبراطورية الآشورية شعوب متعددة ألفت خدمة هذا السيد الغامض وخدمته طائعة بمقدار جهلها أي سيد يسودها. لا بل هي كانت لا تكاد تعلم إن كان لمثل هذا السيد وجود فخشيت جميعها بعين الاعتقاد واحداً لم يره أحد قط. كذلك ملوك مصر الأوائل كانوا لا يظهرون علانية إلا وقد حملوا على رءوسهم حيناً قطاً وحيناً فرعاً وحيناً ناراً، تقنعوا بها وتبرجوا كالمشعوذين وبذا أثاروا بغرابة المنظر المهابة والإعجاب في نفوس رعاياهم، وكان أجدر بالناس لولا فرط حمقهم وعبوديتهم ألا يروا في هذا كله، على ما أعتقد، إلا مدعاة للهو والضحك. إنه لأمر يدعو إلى الرثاء أن نسمع بأي الوسائل تذرع الطغاة حتى يؤسسوا طغيانهم وإلى أي الحيل التجأوا دون أن تتخلف الكثرة الجاهلة في كل زمان عن ملاقاتهم فلا يرمون شبكة إليها إلا ارتموا فيها وخلا تغريرهم بها من المشقة حتى إنهم إنما ينجحون في خداعها أكبر النجاح حين يسخرون منها أكثر السخرية.

يوسف الشريف

مأساة مى..!

※ لاشك أن مى كانت بحكم ولادتها الفلسطينية، وتربيتها اللبنانية، ثم إقامتها ووفاتها بمصر، الرائدة القومية السباقة إلى إنصاف المرأة وفك عزلتها حتى تتبوأ المكانة التى تستحقها، فى وقت كانت ظلاً مهمشاً للرجل فى شتى المجتمعات العربية!

على أن اسم «مى» مسبوقاً بوصفها آنسة، على مدى الخمسة والخمسين من عمرها، كان اختصاراً لاسمها الكامل «مى مارى زيادة»، ولاتزال منذ رحيلها فى أكتوبر ١٩٤١- الأسطورة الجميلة التى انتهت بمأساة عبثية، فهى كانت مثيرة للجدل، حين أكدت حضورها الطاغى فى مجتمع القاهرة، وصالت وجالت على مسرح الحياة الأدبية فى مصر، كاتبة، وأديبة، وشاعرة متميزة واسعة الاطلاع، شجاعة وواثقة من نفسها وذات حضور غامر إلى حد اجتذاب الزعماء والعلماء ونجوم الإبداع والمفكرين إلى صالونها الأدبى بمنزلها رقم ٢٨ بشارع عدلى اليوم ـ شارع المغربى عصر كل ثلاثاء، حيث كان يدور الحوار بينهم ثرياً وممتعاً حول شتى القضايا، ومنهم من بثها الإعجاب أو الغرام، بينما لا يزال السؤال يراوح نفسه عن الحبيب المعلوم أو المجهول الذى شغفت به وبادلته العواطف المشبوبة!

على أن دورة حياتها العريضة التى صادفت اتهامها بالجنون وصحبة المجانين فى مستشفى «العصفورية» بلبنان، كانت بمثابة عقدة الذنب لدى الكثير من النقاد وتأنيب ضمير الذين خالطوها من الأقارب والأصدقاء، وتقاعسوا عن إنقاذها وإنصافها ورد اعتبارها، ولعله يفسر مبادرة البعض منهم إثر رحيلها، إلى استجلاء صورتها الوضيئة، وتسليط الضوء على إبداعاتها وعطائها الزاخر، ودحر الشائعات الباطلة التى لصقت بسمعتها العفيفة، عبر الكم الهائل من الكتب والدراسات والمقالات التى حاولت الإحاطة البانورامية بمشوار حياتها العريض على مدى ٥٥ عاماً!

ولا نعتقد أن المطلوب فى هذه الإطلالة على سيرة مى الذاتية إعادة ما تناولته جملة هذا الزخم من الكتابات، وإنما سبر أغوارها عبر التحرى والتحليل، والكشف عن أسرارها وخباياها، والسيناريوهات الدرامية التى انتهت بمأساتها، واعتماد النهج المقارن بين تعدد الرؤى والروايات حول هذه الشخصية المتفردة، بكل ملامحها وخصائصها، وتألقها وانكساراتها!

صالون الآنسة

هنا يلزم البوح بالضرورة متابعتى الدءوبة لسيرة حياة مى، وقراءة معظم ما كتب أو روى عنها، إذ كان أستاذنا الشاعر الكبير كامل الشناوى لا غيره صاحب الفضل، عبر حكاياته الشائعة التى تناولت ذكرياته عن مى وذكريات أصدقائه الذين كانوا يتحلقون حولها فى صالون الثلاثاء، وهو ما ضمنته كتابى عنه بعنوان: «آخر ظرفاء ذلك الزمان»!

لم يكن صالون مى أول صالون أدبى لسيدة فى تاريخ الأدب العربى ـ على حد قول كامل الشناوى ـ فقد سبقها مجلس السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنها، وكانت وهى العابدة المتبتلة تجالس الأجلة من قريش، ويجتمع إليها الشعراء، ويذكر أنها كانت تصفف شعرها باحتشام تصفيفاً جميلاً عرف باسم «الجمة السكينية»، وعندما رأى عمر بن عبدالعزيز رجلاً يصفف شعره على طريقة السيدة سكينة أو بجلده وحلق شعره، وعندما سمعت جرير يروى عن صاحبه بيتاً من الشعر:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعى بسلام

قالت له: وأى ساعة أحلى من الطروق؟.. قبح الله صاحبك وقبح شعره!

وكانت سكينة تطرب للغناء وتجيز المغنين، وكذلك مى التى كانت تهوى سماع الموسيقى وتهفو إلى العزف على البيانو والعود، وأحياناً ما كانت تستبقى طه حسين ومحمد حسن المرصفى بعد انصراف صالون الثلاثاء، حتى تغنى لهما بصوتها الجميل «يا حتيته» من الفولكلور اللبنانى!

قبل صالون مى كانت هناك صالونات أدبية أخرى للنساء، أشهرها صالون الأميرة نازلى الأرستقراطى بقصر عابدين، وكان من أبرز رواده سعد زغلول وقاسم أمين والشيخ محمد عبده، وكان الحديث بينهم يدور حول قضايا السياسة والإصلاح الاجتماعى والدينى!

وقد ظهرت مى لأول مرة على الساحة الأدبية بعد ظهور أديبتين مصريتين هما عائشة التيمورية وكان لها ديوان من الشعر، والأخرى «باحثة البادية» ملك ناصف كريمة القاضى الأديب حفنى بك ناصف: وكانت تنشر المقالات وتثير العديد من القضايا الأدبية والاجتماعية فى الصحف والمجلات، لكن عائشة وملك كانتا تتحدثان مع الرجال من وراء حجاب، ولم تظهرا فى المجتمعات ولم تخطبا فى حفلة. وذلك أن اختلاف الظروف والبيئة والثقافة والدين أفسح الطريق أمام مى، وخلفت من الآثار الأدبية ما يكفل لها فى تاريخ الأدب العربى مكانة مرموقة، بينما سدت المنافذ فى وجهى عائشة وملك!

والشاهد أن مى التى ولدت فى مدينة الناصرة الفلسطينية عام ١٨٩٠ على أب لبنانى وأم فلسطينية، وشاءت تصاريف القدر أن تصحب والديها فى رحلة النزوح إلى لبنان ولم تزل طفلة صغيرة، حيث تلقت دراستها فى داخلية مدرسة الراهبات بعين الحلوة، فما أن شبت عن الطوق حتى بزغت موهبتها الأدبية، ثم ذاعت شهرتها ولم تزل فى العشرين من عمرها، فكانت تكتب آنذاك بالعربية والفرنسية، فضلاً عن إتقانها الإنجليزية والألمانية والإيطالية والإسبانية، إذ كان دأبها الاطلاع على شتى الآداب والثقافات، وهكذا صدر لها فى تلك الفترة المبكرة ديوان من الشعر بالفرنسية وقصص قصيرة بالعربية.

وبقدر ما كانت تحلق مى بذكريات الحنين إلى طفولتها السعيدة، حيث اختارت لنفسها اسم «كنار» والمعايشة البريئة فى ملاعب الصبا مع ابن عمها «نعوم» وصديقه يوسف حايك الذى أصبح فى شبابه نحاتاً شهيراً، بقدر ما كانت تجتر أحزانها لأن ابن عمها تخلى دون سبب معلوم عن وعده بالزواج بها، وتلك كانت باكورة عثراتها العاطفية التى خلفت ندوباً غائرة فى قلبها!

وإلى مصر كان النزوح الثانى مع أسرتها والإقامة فى القاهرة منتصف عام ١٩٠٧، وقد بدأت كتابة المقالات الأدبية والاجتماعية والنقدية فى صحيفة «المحروسة» التى أصدرها والدها الياس زيادة، بالتزامن مع التحاقها لدراسة اللغة العربية وآدابها فى الجامعة المصرية القديمة، ويروى الدكاترة زكى مبارك عن تلميذته مى، أنها كانت الفتاة الرشيقة، الجميلة المحيا، الحلوة العبارة وذات الصوت الساحر المنغم كما الموسيقى، وكانت سمراء فى لون البن أو التمر هندى كما يقول الشعراء، وكالمسك على حد وصف متيم ليلى العامرية، وكانت تتدلل وتتباهى بسحرها بشكل تلقائى، وتستمتع بوصف المعجبين بها دون أن تبين، وربما من هنا تعلقت بها أحلام زملائها الطلبة!

اختارت مى لنفسها أسماء مستعارة كانت توقع بها باكورة إبداعاتها الأدبية، وبينها «إزيس كوبيا» الذى وقعت به قصائدها بالفرنسية، ثم عربتها ووقعتها باسم «عائدة»، وعلى ما يبدو أنها كانت مترددة فى الإفصاح عن نفسها، ورأت فى الأسماء المستعارة بالونات اختبار لإبداعاتها وردود أفعالها لدى النقاد والقراء، ثم أبانت عن نفسها ووقعت باسم «مى» تارة و«الصغيرة» تارة أخرى منذ خاطبها جبران خليل جبران فى إحدى رسالاته بهذه الصفة إذ كانت تصغره بست سنوات!

الكاتبة

وجهت مى عنايتها ونذرت فكرها وجهدها لقضية تحرر المرأة العربية، وكان كتابها عن

لم تقف مى فى معظم مقالاتها موقف الواعظ فحسب، بل أخذت تتحدث إلى الجنس اللطيف بأسلوب رقيق ومقنع ينفذ إلى القلب، وهو ما تجلى واضحاً فى سلسلة مقالاتها بعنوان «إلى كل فتاة مصرية»



المدهش أن مي لم تكن تستعمل المساحيق لكونها جميلة، وأنها كانت تواظب على الصلاة في الكنيسة، وتمارس رياضة اليوجا وكتبت عنها وفائدتها النفسية بالهلال، وقد قرظتها على غلاف المجلة

ملك ناصف أول الغيث على هذا الصعيد، مع التنوير عبر عشرات المقالات الاجتماعية بالمناضلات الرائدات اللاتي حملن عبء الدفاع عن حقوق المرأة، وبينهن لبيبة هاشم صاحبة أول مجلة نسائية، والشاعرة عائشة التيمورية، وهدى شعراوي مؤسسة الاتحاد النسائي، ورفيقة دربها سيزا نبراوي، وكانتا قد خلعتا الحجاب إثر عودتهما من أوروبا وشاركتا في مؤتمر دولي حول المرأة، وكذا نبوية موسى التي قاطعها شقيقها حين التحقت للدراسة بالمجان في مدرسة السنية، وعلقت قائلة باستخفاف: لقد نقص من أقاربي واحد.. ولا ضير في ذلك، ثم واصلت التحدي والتحقت بمدرسة الحقوق العليا عام ١٩١٢، وصدر لها كتاب «المرأة العاملة» عام ١٩٢٠ فندت في صفحاته مختلف الآراء المعارضة لعمل المرأة!

ولم تكتف مي بإنصاف المرأة العربية عبر الكتب والمقالات فحسب، ولكنها وجدت في الندوات والمحاضرات متسعًا لكسب الأنصار لدعوتها. وفي الحلقة ١٨ من سلسلة التوثيق التاريخي لصحيفة الأهرام «ديوان الحياة المعاصرة» ينقل الدكتور يونان لبيب رزق الكثير عن مي بعد أن أصبحت كاتبة معتمدة في الأهرام، ويسلط الأضواء على مقالاتها عن حرية المرأة، وكيف تألقت في إحدى محاضراتها عن نهضة المرأة في قاعة ايوارت بالجامعة الأمريكية، وحضرها جمهور غفير من العلماء والكتاب والأدباء ونحو ١٢٠٠ من السيدات والآنسات، ونقل المحرر الذي شهد المحاضرة عن مي، حديثها الضافي عن دور نبوية موسى، وإشادتها بجمعية المرأة الجديدة، ثم توقفت طويلاً عند الفلاحة المصرية وواجب الأمة في تحريرها وانتشالها من وهدة الفقر والجهل والمرض، فهي التي أعطت الأمة خيرة عظمائها وأبطالها المكرمين، وأشارت إلى أن الزعيم سعد زغلول قال في الكلمة التي ألقاها بفندق سميراميس وجاء فيها «أيها السادة.. أملي أن أقول قريبًا «أيها السادة والسيدات» في مناشدة حارة للمصريين بتوجيه عنايتهم الخاصة من أجل نهوض المرأة و.. صفق الحاضرون طويلا لمي!

الطريف - بالمناسبة - أن الأهرام وهي كانت صحيفة محافظة وقتئذ، لم تجد غضاضة في نشر العديد من الرسائل وقصائد القراء الذين يبدون فيها إعجابهم الشديد وإبداعاتها، ومنها قصيدة قسطنطين بك داود كبير مترجمي السكك الحديدية ومطلعها:

شرفت جنسك في العلوم والأدب
يا من اعترف بها كل العرب

قصيدة أخرى نظمها شيخ الخطاطين نجيب هوارينى يقول فيها:

أضحى بيانك باسق الأغصان
في روضة أهل العلم والعرفان

ندوة أخرى لمي نشرتها الأهرام في ٢١ فبراير ١٩٢٨ وكانت بعنوان «ميزانية العائلة» تبعتها محاضرة ألقتها مي في مؤتمر دولي بروما، وفيها اعتبرت الفقر مرضًا وخمولاً وعبودية، ولا صحة لمجتمع أفراده مرضى، ولا استقلال لوطن أبناؤه الأرقاء والعبيد، وإذا كانت الإحصائيات الدولية تؤكد على أن ٦٠٪ من الإيراد العام قيد تصرف المرأة، فعليها إذن أن تحسن التصرف في ميزانية العائلة، وإذا كان الاعتدال مطلوبا، فالتبذير أمر ممقوت يلاشي ثروة العائلة كما يقضي على راحتها وهنائها، لكن التقتير لا يقل عنه مقتًا، وإذا كان على الإنسان أن يهيئ لنفسه ضرورة الحياة المباشرة، فعليه أن يتناول من الكماليات ما يحسن منظره ومنظر عائلته وينمي موهبته وموهبة ذويه، ويجمل منزله ويحيط نفسه بآثار الكياسة والذوق والجمال!

صورتها على غلاف الهلال

في مجلة «الهلال» الشهرية، ظلت مي تنشر مقالاتها على مدى ١٨ عامًا، ومعظمها كان دفاعا حارًا وصادقًا عن حرية المرأة العربية، وكان آخرها عام ١٩٣٥ مقالاً بعنوان «الأدب النسائي»، والملاحظ أنها كانت دومًا معتدلة في آرائها الاجتماعية ولا تؤمن بالطفرة، وفي مقالة مثيرة عن فن إرضاء الرجل تقول: «لا أقصد بذلك إرضاء من الوجهة الجنسية، وإنما الواجب على المرأة أن تهيئ له وسائل الراحة في البيت، وأن ترقى بفكرها إلى مستواه، ليأتنس بها ولا يهرب إلى البارات والقهوات!».

ولم تقف مي في معظم مقالاتها موقف الواعظ فحسب، بل أخذت تتحدث إلى الجنس اللطيف بأسلوب رقيق ومقنع ينفذ إلى القلب، وهو ما تجلى واضحا في سلسلة مقالاتها بعنوان: «إلى كل فتاة مصرية» وجاء فيها: الحياة أمامك أيتها الفتاة الصغيرة، ولك أن تكوني ملكة أو عبدة.. عبدة بالكسل والاغتياب والتطفل والتبذل، ولك أن تكوني ملكة بالاجتهاد والترتيب وحفظ اللسان والصدق وطهارة القلب والفكر والعفاف والعمل المتواصل.. إلخ.

ولا شك أن أفكار مي كانت سابقة لعصرها ونقيضًا للظروف العقيمة والتقاليد البالية التي كانت لا ترى للمرأة مكانًا خارج البيت.. ولادة ومربية ومدبرة وظلاً للرجل فحسب.

على أن الحضارة الإسلامية واستجلاء معالمها وآثارها كانت المحور الثاني في اهتمامات مي الثقافية التي بثتها في سلسلة مقالاتها للأهرام، من زاوية إزالة جهل المرأة المعرفي بتراثها الحضاري، إذ كانت تنطلق في جولات دءوبة بين ربوع المعالم الأثرية، وقد وصفت جامع أحمد بن طولون بأن مساحته توازي ضعفي مساحة جامع عمر بالقدس، ثم تطوف بالقارئ بين أروقته العريضة السامقة، حتى تتوقف بالشرح التاريخي لدور المرأة في بناء ذلك الأثر الكبير، وكيف كانت قاعات القصر الملحق بالمسجد حافلة بالزينات الذهبية البارزة، وكذا صور المغنيات والجواري، ومنظر بالحجم الطبيعي لخمارويه جالسًا في عز بين الخدم والحشم.

وعلى هذا النحو المعرفي طافت مي عبر مقالاتها بنحو ٥٠٠ جامع، عرضت لتاريخها وطرز بنائها، وملحقاتها من المدارس والبيمارستانات، وهو كان اسم المستشفيات عهدئذ، ثم لا تنس وصف حضورها شخصيًا حلقات الذكر في التكايا، ومشاهد الدراويش وتقاليدهم وموسيقاهم ورقصهم وتهاليلهم!

ثم نخلص في النهاية إلى خمس رسائل شهيرة كانت مي قد بعثتها إلى الأديب محمد لطفي جمعة ردًا على رسائله التي استطلع من خلالها موقفها ورؤاها من قضايا المرأة، وتصدت في حماس وقوة للعادات الشرقية الضارة المتخلفة، واستنكار الولع بزواج الشرقيين بالغربيات، وأخذت على المرأة خضوعها لبعض مظاهر المدنية الغربية التي تتنافى مع وقار الشرق وأصالته.

والمدهش أن مي لم تكن تستعمل المساحيق لكونها جميلة، وأنها كانت تواظب على الصلاة في الكنيسة، وتمارس رياضة اليوجا وكتبت عنها وفائدتها النفسية بالهلال، وقد قرظتها على غلاف المجلة وأشادت بنبوغها ومقالاتها التي تنم عن أدب الكاتبة وجمال تعبيرها وسعة اطلاعها وبعد خيالها، مصحوبة بنشر صورتها لأول مرة بناء على طلب القراء واستجابة لرجاء رئيس التحرير إميل زيدان.

كانت مي تؤمن بوجود مدنية مشتركة بين الشعوب، ولا ترى غضاضة من اقتباس العرب ما يناسبهم من النظم الأوروبية والمنافع العلمية وأساليب العمران، وترى من الخير للعرب وواجبهم ألا يتخلفوا عن الانتفاع بأي نشاط أو تقدم أو أفكار مميزة أيًا كانت جهتها!

وعندما اضطربت الأوضاع السياسية والأمنية في لبنان، نشرت مقالاً بالهلال في أكتوبر ١٩٢٢ تحدثت فيه عن هويتها: يقولون «أنت لست منا، لأنك من جنس آخر، فلماذا أكون دون سواي.. تلك التي لا وطن لها، ولدت في بلد، وأبي من بلد، وأشباح نفسي تنتقل من بلد إلى بلد، فلأي هذه البلدان أنتمي، وعن أي هذه البلدان أدافع؟

ثم تتساءل في حسرة: «لماذا قدر على أن أكون ابنة وطن تنقصه شروط الوطنية فأمسي تلك التي لا وطن لها؟ و.. حتى تختتم مقالها الشفيف الدال على ما كانت تعانيه من الهواجس السياسية، وما كان يعتمل في عقلها ووجدانها من تساؤلات ممضة تقول: إنما أريد وطنًا لأموت من أجله، أظنها كانت تعني وطنها العربي الكبير!

فولتير وعشرة آلاف رسالة

كانت مي قد تعرفت إثر إقامتها بالقاهرة على أستاذ الجيل لطفي السيد والشيخ الأديب مصطفى عبد الرازق، وبفضل رعايتهما وتوجيهاتهما توثقت درايتها باللغة العربية والإلمام بنحوها وصرفها واستبيان جمالياتها، فكان طريقها سالكًا للكتابة بالفصحى في العديد من الصحف والمجلات المصرية وبينها المقطم والزهور والهلال والأهرام، كما صدر لها عدة كتب اختارت لها عناوين مثيرة، بينها «ظلمات وأشعة» وكتب مقدمته عباس محمود العقاد، و«بين المد والجزر»، و«دمعة وابتسامة»!

يروي المفكر العلماني سلامة موسى أن مي كانت تتحدث بثقة وعن علم وإدراك للنزعات والمذاهب الأدبية والفلسفية، وأنها تأثرت في إبداعاتها إلى حد كبير بأسلوب الشاعر الإنجليزي بايرون، وفي شهادتها الشخصية على أطياف خيالها كقاصة تقول: «لا أستطيع

القول إن هذا الخيال يفرض نفسه على فرضا. فقد يكون موضوع القصة ذكرى قديمة تثيرها رؤية أو منظر أو حادثة، وقد يكون إيحاء مما أشعر به وأراه في حياتي الحاضرة، فتدفعني هذه الذكرى ويستغرقني هذا الإيحاء، إلى الكتابة، وأجدني مدفوعة إلى تأليف القصة، وقد استيقظت في الفجر، ولا ألبث حتى أرى نفسي أمام مكتبي أؤلف القصة!

كان من عادة مي أن تضع تصميماً أولياً لموضوع أو خاطرة، ثم تعود إليه في وقت لاحق والشروع في بناء القصة وصياغتها، وربما من هنا كانت تعتقد أنه ليست هناك قصص خيالية فيما كتبه الأدباء، بل كان واقعياً بنظرها كسائر ما تسمع به من حواديت الحياة. تقول: إن المؤلف القصصي لا يبدع من خياله ما ليس موجوداً، بل هو يستمد من الحياة كل ما يكتب، وإلا لما كان لقصته أي أثر إذا كان يتحدث إلى الناس بما يستحيل أن يقع في مجتمعهم، ومن هنا كان ما كتب عن القصص القيمة، إنما تصوير لبعض جوانب الحياة لا وهما من الأوهام التي لا نصيب لها من حقائق الحياة!

ولكن بالرغم من هذا النهج الذي يتسم بالواقعية في كتابة القصة عند مي، إلا أنها كانت غاية في شطحاتها الرومانسية التي تستمدها من وحي الخيال والشعور العاطفي، ولعل في رسائلها لأصدقائها وأحبائها مجال واسع للتحري عن مشاعرها الحقيقية، والتاريخ لعلاقاتها العاطفية التي نالت نصيبها الوافر من الرصد والدراسة، وبينها على سبيل المثال رسائلها التي جمعها ونشرها جميل الجسر في كتابي «رسائل مي» و«مي وجبران»، وغيرها من الرسائل التي جمعتها الباحثة أمل داعوق وكانت محور أطروحتها الأكاديمية التي ناقشتها لجنة ضمت الشيخ عبدالله العلايلي والدكتور الشيخ صبحي صالح، ثم نشرتها في كتاب «فن المراسلة عند مي زيادة»، وتظل هناك العديد من رسائل مي المحجوبة عن النشر لدى ورثتها!

وعلى ما تبدو الشواهد أن مي تنتمي إلى طائفة من الأدباء الذين دأبوا على التنفيس عن مكنوناتهم والبوح بشواغلهم وأسرارهم أو عواطفهم إلى حد الإدمان أحياناً. وعلى سبيل المثال فقد خلف فولتير وراءه عشرة آلاف رسالة كان قد بعث بها إلى نحو سبعمائة شخصية، فكانت مجالاً رحباً موثقاً وشاهداً على سيرة حياته ورؤاه ومخبوءاته الشخصية!

الشاعر الموسيقار

والحقيقة أنه يصعب حصر المقالات التي كتبتها مي في أربعة أرجاء الصحافة المصرية، كما أنه لا غنى لأي باحث حول سيرتها وإبداعاتها من قراءة صديقها الأديب طاهر الطناحي سواء فيما كتبه عنها بمجلة الهلال أو كتابه «العيم أطياف من حياة مي»، وكتاب كامل الشناوي «الذين أحبوا مي»، وكتاب سلمى الحفار الكزبري «مي زيادة وأعلام عصرها»، ثم كتابها الثاني «مي زيادة ومأساة النبوغ»، و«مي أديبة الشرق والعروبة» للأستاذ محمد عبدالغني، والكتاب الصادر للدكتور محمد عبده البخاري عن دار الحرمين بدمشق «باقات من حدائق مي» لفاروق سعد، و«مي وحياتها المضطربة» لجميل جبر، ثم كتب صادق الرافعي الثلاثة «أوراق الورد» و«السحاب الأحمر» و«رسائل الأحزان»، وهي تشي ولا تبين عن حبه لمي لكونه عالماً إسلامياً وتجنب غيرة أصدقائه الشعراء كالعقاد وطه حسين، وأخيراً وليس الأخير كتاب الأديبة الصحفية نوال مصطفى «مي أسطورة الحب والنبوغ» كما لا يفوتني التنويه بالمقالات المهمة التي كتبتها عن مي الأديبة غادة السمان في مجلة «الحوادث اللبنانية» ومقالات الأديبة الناقدة صافيناز كاظم في الهلال والمصور. وحظيت مي بموهبة الشعر الغنائي المنثور وقدمت منه عدة نماذج، وثورتها الاعتراضية على محاولات نقل رفاتها من المقابر المارونية بمصر القديمة إلى لبنان نافية عنها الجنسية اللبنانية، مؤكدة على عروبتها ومصريتها. حيث عاشت معظم عمرها في مصر التي شهدت عطاءها وتألقها!

وقد وجدت صعوبة في حصر أسماء أعلام الفكر والثقافة والأدب الذين تقاطروا على صالون مي منذ افتتاحه لأول مرة عام ١٩١٣ واستمر زهاء ربع قرن، وكان ساحة للحوار والمؤانسة بين مختلف المذاهب، نذكر منهم أحمد لطفي السيد وطه حسين وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وشبلي شميل والمازني والتابعي وشيخ القضاة عبدالعزيز فهمي وشيخ الصحافة داود فرحات والأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبدالرازق، وكانوا جميعهم يضمرون الحب والإعجاب بمي، ولا يفصحون إلا شعراً أو نثراً بشكل ضمني غالباً وصريحاً أحياناً!

وكان مصطفى صادق الرافعي قد طارحها الغزل النبيل، ولم تصده أو تستنكره، وردت تتجاوب مع مشاعره النبيلة في قصيدة مطلعها:

زمانك قبلي انتهى
وهل يرجع المنتهى
فحسبي أن اشتهى
وحسبك أن تشتهي

الشاعر الكبير إسماعيل صبري كان يكن عاطفة الأبوة نحو مي وقال فيها:

روحي على دور الحي حائمة
تظامئ الطير إلى ماء
إن لم أمتع بمي ناظري غداً
أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء (موعد صالون مي)

ويقول الشاعر الرومانسي الكبير إبراهيم ناجي:

أحببت «مية» حبا لا يعادله
حب وأفنيت فيها الحب أجمعه
أحب عصري الذي في قربه مي
فإن مر من دونها ما كنت أقصعه

كانت مي تصف أحمد شوقي بالشاعر الموسيقار، إذ كان يحلس في صالونها بجسمه فقط، تاركا الفنان لفكره وخياله، ويوما تجرأ وبثها إعجابه أمام رواد الصالون عندما ألحوا عليه أن يبوح بمشاعره نحوها وقال:

أسائل خاطري عما سباني
أحسن الخلق أم حسن البيان
رأيت تنافس الحسنين فيها
كأنهما لـ «مية» عاشقان
إذا نطقت صبا عقلي إليها
وإذا بسمت إلى صبا جناني
أم أن هـ...بابها راث لشيبي
وما أوهى زماني من كياني
وما أدري أتبسم عن حنين
إلي بقلبي أم عن حنان

أما الشاعر الأديب خليل مطران فكان يغار على مي، ويوماً رآها تودع إحدى صديقاتها بحرارة، لسفرها إلى حلوان، فاصطنع البكاء.. فسألته مي عن السبب؟ قال: أبكي سفر صديقتك!.. قالت: لكنها مسافرة إلى مكان قريب.. إلى حلوان! فقال مطران: مادام المكان قريبا فلم هذا الوداع الحار؟!

على أن مي كانت تكن تقديراً وعاطفة جياشة للعالم المفكر يعقوب صروف، وكان قد بثها أبياتا من الشعر يقول فيها:

شوق تكامل أدنى الوجود إلى
أعلى فأعلى إلى أعلى أعاليه
حتى تنامى وقلب المرء تلهيه
نار من الحب يذكيها وتذكيه

وكان صروف قد أسمع مي قصيدة أخرى أعجبتها يقول فيها:

هو الحب أكسير الحياة بلا مرا
ولولاه ما كان الوجود كما ترى

ضحكت مي وقالت صدقت. لكني أعترض بشدة على كلمة «بلا مرا» إذ أخشى على الضراء «ميمها»! وكانت واحدة من سخرياتها العذبة!

كانت مي تخاطب صروف تارة بذي التاج والصولجان، وتارة أخرى بـ «أستاذي توت المستبد»، وكانت تعني توت عنخ آمون، إذ كان دائم الكتابة عن حضارة المصريين القدماء. وحين كتب يرثي الأديبة ملك ناصف، كتبت إليه تتنبأ بمصيرها: «أتمنى أن يأتي بعد موتي من ينصفني، ويستخرج من كتاباتي الصغيرة المتواضعة، ما فيها عن روح الإخلاص، والصدق، والحمية، والتحمس لكل شيء حسن وصالح وجميل» ثم تواصل البوح قائلة: «إذا كانت لي صفة فهي تنحصر في هذا، وأنا سعيدة بها، لأنها كل شخصيتي، بل أتمنى أن أموت في حياتك أنت، لتقوم لي بذلك العمل المبارك، فأكون خالدة بخلودك».

في رسالة أخرى تعترف لصروف بالقدوة والريادة كاتباً وأديبا «إذا كان هناك من يستحق الملام، فأنت هو، أنت الذي تنصلت من الأسجاع والحواشي والزوائد يوم كانت روح العصر، لو أردت أن أقلد أحداً لقلدتك، لكني أكره التقليد وأنا أحب أن أكون أنا.. أنا في كتاباتي.. يا لطيف ما هذا الظلم والاستبداد؟ وهكذا أجيبك أنا»!



وإذا كان العقاد الوحيد الذي ظهر في صورة مشتركة مع مي، ودأب على الحفاوة بإبداعاتها الأدبية، فقد أكد كذلك في حديث صحفي أجراه معه كامل الشناوي أنه أحب مي وأحبته، بل ولديه بعض من رسائلها العاطفية إليه، إلا أن الذين كتبوا سيرتها الذاتية لا يستبعدون عنتريات العقاد وكبرياءه المعروف وراء هذا الادعاء، خاصة أنه لم يأت بدليل يؤكده، أو لأن مي استبعدته من المنافسة على حبها مع اثنين غيره من الشعراء تباعا.

كان الأول هو الشاعر الشاب المتمرد والنابض بالألم ولي الدين يكن، ويروى أنه حدثت بينهما جفوة لم تدم غير بضعة أيام فقال يعاتبها:

تمسين ناسية وأمسي
ذاكرا

كانت مى تصف أحمد شوقى بالشاعر الموسيقار، إذ كان يجلس فى صالونها بجسمه فقط، تاركاً العنان لفكره وخياله، ويوما تجرأ وبثها إعجابه أمام رواد الصالون عندما ألحوا عليه أن يبوح بمشاعره نحوها

عجبا أشاعرة تهاجر شاعرا
إن الملائكة لا يكن هواجرا
إن كنت لا أسعى لدارك زائرا
فلكم سعى فكرى لدارك زائرا

وقد مات ولى الدين يكن قبل رحيل مى بثمانية عشر عاما، وبكته بعينيها وقلبها وقلمها، وعلى ما يبدو أن فواجع مى لم تأت فرادى، فقد كانت فجيعتها فى رحيل والدها ثم والدتها تباعا وأصبحت بعدها وحيدة تفتقر إلى صلات القربى الحميمة، وكانت تقيم فى مصر آنذاك، وسبقتها فجيعتها فى ابن عمها الذى تنصل من حبه لها ومن وعده لها بالزواج فى مقتبل شبابها، نهاية بفقدان الأمل.. وإلى الأبد.. فى تتويج حبها وأشواقها وحبها بالزواج من الشاعر جبران خليل جبران، وكان الشاعر الثانى الذى جذبها أو جذبت نفسها إلى مرمى شباكه العاطفية كما لو أنها مسحورة أو منومة، ولا شك أنها علاقة عاطفية مبهمة وغير مسبوقة، فهى لم تلتق به أبدا إلا عبر الأشواق الهائمة وسبع وعشرين رسالة متبادلة، هى فى القاهرة وهو فى المهجر، تفصل بينهما البحار والمحيطات وعلى بعد آلاف الأميال، وهو الوحيد الذى باحت بحبها له فى صراحة، وحاولت جهدها وبكل ما أوتيت من ذكاء وأدب ولباقة وثراء أن تغريه بالمجىء إلى القاهرة عبر حكاياتها عن النيل والأهرامات وسحر مصر الآسر، لكنه واجه عاطفتها الجياشة وعشقها المشبوب بلطف دون أن يعدها بشىء يغريها على استمرار الأمل إلى ما لا نهاية، وكان هو لا هى الذى حسم النهاية، حين بعث لها برسالة زينها بلوحة رسمها بريشته لرجل وامرأة كل منهما يعطى ظهره للآخر.. قال فيها:

حبيبتى مى.. خاطبت الناس جميعهم باسم الحب.. فقلت لهم: فلتكن هناك فسحات تفصلكم بعضكم عن بعض فى حياتكم المشتركة، ولتدعوا رياح السماء تتراقص فيما بينكم، أجل فليحب أحدكم الآخر، لكن لا تقيدوا الحب الذى يؤلف بين قلبينا.. يا مى.. يا نسمة روحى وعطر حياتى ودنيا أشواقى!

وهكذا قفلت مى راجعة بهمها وكل اهتمامها إلى مجتمعها الرجولى فى صالون الثلاثاء، وقد تبددت آخر أحلامها العاطفية، وحتى فاتها قطار الزواج، وبعد أن كانت سعيدة بلقب «الآنسة» بات اللقب يثير مخاوفها من التساؤلات المكتومة بعد أن أصبحت «عانس»، لكنها ظلت تتحصن بعفافها خشية الجموح والشطط العاطفى المدمر، ويكفيها فخرا ورضا، فقد خرج من صالون الثلاثاء الكثير من قضايا الأدب والمجتمع، أو على حد وصف العقاد: لو جمعت الأحاديث التى دارت فى ندوة مى، لتألفت منها مكتبة مصرية تقابل مكتبة العقد الفريد والأغانى فى الثقافتين الأندلسية والعباسية..!

والقصة بعد ذلك باتت معروفة بكل تفاصيلها المأساوية، حين اضطربت أحوالها النفسية إثر تهديدها بالاغتيال على يد الفاشيين، عندما هاجمت نهجهم وسلوكهم بعنف خلال زيارتها روما ولقائها وحوارها مع بابا الفاتيكان، بل وصبت لعناتها على موسيلينى، حيث نصحها دبلوماسى عربى بمغادرة روما فورا، وأن تأخذ حذرها كذلك من دعاة الفاشية بمصر، وهكذا صدقت نبوءة العقاد حين وصف رحلتها مسبقاً إلى إيطاليا بالشؤم، وهى كتبت تهاجم الزعماء الذين أشعلوا نار الحرب العالمية، وتمنت أن تحكم المرأة العالم حتى تنتهى المنازعات وتتوقف الحروب ودمارها.

فى القاهرة كان بانتظارها ابن عمها يوسف زيادة، وهو خورى أى قسيس وكان نائبا فى محكمة البداية بلبنان عام ١٩٣٨، ونجح فى استدراج مى بدعوى زيارة الأهل والاستجمام فى لبنان، وهناك كان قد أعد لها مؤامرة دنيئة وأدخلها مستشفى العصفورية غصبا، ثم فرض عليها وصايته واستولى على ثروتها الضخمة التى ورثتها عن أبيها، وراح يبددها تباعاً بدعوى الصرف على علاجها.

أضربت مى عن الطعام احتجاجاً عدة شهور، فكانوا يطعمونها بالقوة ويمنعون عنها متعتها الوحيدة فى التدخين ونقص وزنها إلى ٢٨ كيلو جراما، وظلت هكذا على حالها صابرة وصامدة دون أن تقرأ كتاباً أو تكتب، وانتظرت شهوراً وكلها ألم وحسرة حتى يهب أصدقاؤها الأدباء والكتاب إلى إنقاذها وتبرئتها من تهمة الجنون، ولكن دون جدوى، وحتى علم بمأساة مى الأديب أمين الريحانى، وجاء خصيصاً من أمريكا إلى لبنان، وخاض حملة إعلامية واسعة فى الوطن العربى حتى نجح فى إنقاذها وخروجها من المستشفى بعد الوفاء بتكلفة علاجها!

خرجت مى من المستشفى وكأنها تشهد ولادتها من جديد، مؤكدة للجميع على سلامة عقلها وصمودها بنجاح فى وجه المحنة عبر محاضرة ضافية ألقتها بالجامعة الأمريكية فى بيروت فى حضور المئات الذين هتفوا بحياتها وانتصارها على الظلم الذى لحق بها، قالت: أحرم على أحد من أقارب والدى ومن أقارب والدتى أن يمثل أمام جثتى.. هؤلاء الذين مزقوا حياتى!

بعدها ألقت أربع محاضرات، وصدر لها كتاب عن حياتها بعد خروجها من المستشفى بعنوان «فى بيتى اللبنانى» ثم رواية بالفرنسية بعنوان «المنقذون»، وكتاب مزيج بين الأدب والتاريخ بعنوان «علاقة فينيقية بمصر» ويتضمن مشاهداتها وجولاتها وأسفارها، ثم «مذكراتى» ويضم أشعارها وذكرياتها عن رواد ندوتها، وأخيرا «ليالى العصفورية» وتحكى فيه عن محنة اتهامها بالجنون، ولاتزال معظم هذه المؤلفات بانتظار التحقيق والنشر!

هكذا شقيت مى بنبوغها، وتآمر ابن عمها، وتجاهل خيرة أصدقائها، وكانت قد شقيت من قبل بتخلى ابن عمها عن وعد الزواج بها، ومن بعد كان شقاؤها برحيل حبها الأول الشاعر ولى الدين يكن، وحبها المبهم للشاعر جبران خليل جبران، فيما كانت إضافة البعض من الباحثين فى سيرة حياتها شقاءها بفقد صديقتها الحميمة وهى جارتها الأوروبية الجميلة، وقصة تعلقها الغامضة بالفنان الإيطالى إيتورى روسى الذى سافرت للقائه بروما فى يونيو ١٩٢٥.

ويوم تأبينها بالقاهرة فى حفل ضخم فى ذكرى الأربعين، وتقاطر عشرات الساسة والأدباء والمفكرين على الخطابة والإشادة بمى وعطائها الزاخر، ووقف العقاد يرثيها فى قصيدة حارة:

أين مى فى المحفل يا صاح
عودتنا هاهنا فصل الخطاب
قولها المنبر مرفوع الجناب
مستجيب حين يدعو مستجاب
أين مى.. أين مى؟



وقال طه حسين: مى تمثل فى نفسى بداوة البادية وحضارة الحاضرة وثقافة العرب الأقدمين وثقافة المحدثين، وكل ما كان يتمنى المثقف أن يصل إليه..

وقال الشيخ مصطفى عبد الرازق: «طلعت مى على حياتنا الأدبية تحيط بها هالة من ذكائها المتأجج وشبابها النضير وأدبها الناشئ المتسامى إلى الكمال، وودعت مى هذه الحياة محاطة بهالة من آثار وذكريات هى أكبر من ذكاء ومن كل شباب»!

الدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» التى مهدت لها مى طريق الكتابة فى الأهرام.. قالت: غيرى يسكب الدمع على حياة مى، وما حياتها إلا قصة استشهاد طويل»!

رحم الله مى.. وأسفاً على زمانها الجميل! ■


النساجون الشرقيون
Oriental Weavers

المدرجات والقاعات مكتظة بزملائه وزميلاته، فلا فرصة كي يتعرف إلى أستاذه، أو يتعرف إليه أستاذه، ثم إنه قد لا يجد الأستاذ في معظم الأوقات، لأن الأستاذ مشغول بعمله الخارجي، أو منصبه الإداري

أولاً - الأستاذ:

ويتكون الأستاذ عادة من الخريج المتفوق الذي يحوز أعلى الدرجات في امتحانات الليسانس أو البكالوريوس، ويزكيه مجلس القسم العلمي ليكون معيداً، فمدرساً مساعداً فمدرساً، ثم أستاذاً مساعداً، ويصل إلى قمة الهرم بالأستاذية، حيث تبدأ الثمار الناضجة تؤتي أكلها، ومعها العطاء السخي، وخاصة في مجال البحث والدراسات العليا والتخطيط لما سيأتي من أيام بحثية أو تعليمية أو اجتماعية تخص الوطن بأسره بل الأمة بأسرها.

ويفترض في هذا «الأستاذ» الاتزان والموضوعية، والالتزام بالحكم العلمي حتى لو جاء على غير هواه، فضلاً عن السلوك الخلقي الراقي الذي يبعد به عن سفاسف الأمور، والتصرفات غير اللائقة التي تحط من قدره أو تزرى به، أو تعرضه للمهانة.

كما يفترض أن الجامعة توفر له الحد الأدنى من متطلبات الحياة التي تعينه على البحث والدرس والإنتاج، وتجعله فوق المسألة والحاجة، فلا يمد يده خارج جامعته، ولا يلهث وراء لقمة مغموسة بالذل والهوان، ولا يفكر في الهروب من الوطن تحت مسمى «إعارة» أو «تعاقد» أو «هجرة».

الأستاذ بهذه الصورة «قدوة» يضعها أمامه الجيل الجديد والأجيال التالية، وهذه «القدوة» تحظى بالوقار والتكريم في أرجاء المجتمع وبين طبقاته المختلفة وفئاته المتنوعة، بوصفه أكبر من الأطماع الصغيرة، والتهافت على المتاع الزائل.. إنه يشبه «العابد» في محرابه، و«الراهب» في صومعته، لا يعنيه شيء من عرض الدنيا، بقدر ما يعنيه العطاء والبناء.

هذه بإيجاز هي الصورة «المتخيلة» للأستاذ الجامعي.. فهل هي كذلك؟

من المؤكد أنها ليست كذلك، وأنها تحولت إلى شيء آخر أقرب إلى «البيزنس» في عمومها وشمولها، ولا ريب فهنالك نماذج عطرة يستضيء بها المجتمع والتاريخ في بلادنا، بعيداً عن العناصر التي شوهت هذه الصورة، وقبحتها..

والعنصر الأول في تشويه الصورة وتقبيحها يرجع إلى السلطة التنفيذية في الدولة التي لم تدرك أو تجاهلت الخلل الاجتماعي - الاقتصادي الذي أصاب السلك الوظيفي في المجتمع تحت ظلال النظام الرأسمالي الجديد الذي يحكم السوق، وقد وصفته بـ«الجديد» لأنه لا يمت للنظام الرأسمالي المعروف في الغرب، كما إنه لا علاقة له بالعدل الاجتماعي.. هو نظام تحكمه اسماً لغة «الاستثمار» وهي في الحقيقة لغة «الشطار»، فبينما تجد موظفاً صغيراً في بنك استثماري، أو مسئولاً صغيراً في بعض الوزارات أو الشركات يتقاضى مرتبا يبلغ أضعاف مرتب الأستاذ الجامعي، فإن الأخير كي «يوفق أوضاعه» في توفير نفقاته المنزلية والضرورية - لا داعي للعلمية - يحتاج إلى ما يسمى «بحرق المراحل» من خلال التهافت على أكبر عدد من ساعات التدريس داخل كليته، والكليات الإقليمية، واستخدام وسائل «غير مقبولة» لتوزيع أكبر كميات من الكتب (مجازاً تسمى كتباً)، والصراع مع زملائه على الإشراف العلمي على طلاب الماجستير والدكتوراه بوصفه «سبوبة» ذات عائد، ولو كان ضعيفاً، فضلاً عن التحايل في تشكيل لجان الممتحنين للوصول إلى أقصى حد في مكافأة الامتحانات.

هناك من يفضلون طرقاً أخرى أكثر خزياً ومهانة، حين ينعطفون نحو «الدروس الخصوصية»، حيث يسقط الطالب هيبة أستاذه، فهو الذي يعطيه والأستاذ يمد يده، وهناك من يرفض «الترقية» ليبقى في الدرجات الأدنى من الأستاذية ليضمن استمراره في تحقيق المكاسب المادية من وراء الدروس الخصوصية، ولا يبالي بما يقال أو يجري من تسريب للامتحانات أو اللعب في التقديرات أو غير ذلك مما يمكن أن يتخيله الناس.

وإذا كانت آلية «حرق المراحل» قائمة غالباً في الكليات النظرية، وبعض الكليات العملية، فهناك آلية أخرى، يلجأ إليها فريق آخر، أقل ضراوة وشراسة من فريق «توفيق الأوضاع».. هذا الفريق يبحث عن «إعارة» أو «عقد عمل» في بلد عربي، أو يخصص وقته وجهده للعمل في «عيادة» أو «صيدلية» أو «مكتب محاماة» أو «مكتب استشاري» أو «مكتب محاسبة» أو نحو ذلك، وهذا لا يعني نفسه غالباً بأمر الكلية أو الطلبة أو المحاضرات، لأنه مشغول بما هو أهم وأجدى.

هناك فريق ثالث، تدفعه سطحية التكوين العلمي وهشاشته، إلى المسارعة نحو قطار السلطة أو قطار الحزب، فهو هناك سيجلس مستريحاً، تترى عليه الأموال من مناصبه السياسية المختلفة، أو اللجان التي يشارك فيها، والقوم في السلطة لا ينظرون عادة إلى الكفاءة العلمية أو الخبرة الفنية بقدر ما ينظرون إلى الوفاء والإخلاص - بمفهومهم طبعاً - والأمر في كل الأحوال لا يخرج عن التأييد والتصفيق لقرارات السلطة ورغباتها، بدءاً من حالة الطوارئ حتى الانتقال إلى جدول الأعمال، بعد إسقاط كل الاستجوابات ولو كانت تمس حياة الملايين مثل «استجواب تلوث مياه الشرب»!

ونلاحظ أن «الأستاذ» المعار أو المتعاقد، يعيش غالباً، في ظل ظروف مهينة، أبسطها بُعده عن الوضع الملائم لمواصلة أبحاثه ودراساته، وأعقدها أنه يظل رهينة لإرادة «الكفيل» ومشيئته! ومع ذلك، فهناك من يفضل هذا الوضع، ويبقى غريباً حتى آخر العمر، مفضلاً «الغربة» على الوطن الذي لا تعنيه «الكفاءات» بقدر ما تعنيه «الولاءات».

ولا شك أن أحوال «الأستاذ» الجامعي بهذه الصورة، أفرزت سلبيات عديدة، تتناولها الصحف وأجهزة الإعلام، مثل السرقات العلمية، بيع الامتحانات، السعي للدرجة، الصراع من أجل المناصب الإدارية، الانضواء تحت راية الأمن، تحول المجالس العلمية إلى ميادين قتال لتعطيل مصالح أو تسويق مصالح..

بيد أن أبرز ما أنتجه تدخل السلطة التنفيذية في شئون الجامعة المصرية، كان إرساء منهج التمييز العنصري بين الأساتذة، فهناك الآن ثلاثة أنواع منهم:

النوع الأول: الأستاذ العامل، وهو الذي لم يبلغ الستين، وله حق التدريس في مرحلة الليسانس أو البكالوريوس، مع الدراسات العليا، ويحظى هذا النوع بأفضلية نسبية، حيث يوزع كمية أكبر من الكتب، ويتمتع بعائد أفضل.

النوع الثاني: الأستاذ المتفرغ، وهو الذي تجاوز الستين ولم يصل السبعين، وله حق التدريس في الدراسات العليا فحسب، ويمكن للقسم أن يسند إليه ساعة أو أكثر في مرحلة الليسانس أو البكالوريوس إذا كان القسم يحتاج إليه.. وبالطبع فهذا النوع عائده أقل.

النوع الثالث: الأستاذ غير المتفرغ، وهو الذي تجاوز السبعين، ويدرس في الدراسات العليا فقط، ويحصل على مكافأة مقطوعة، تمثل مبلغاً مقطوعاً في العام، وهو مبلغ متواضع للغاية لا يكفي بدل سفر من القاهرة إلى الإسكندرية أربع مرات في الشهر!

وهذا التمييز تم تصفية لحسابات بين بعض أطراف السلطة في وقت سابق، ولكنه أصاب غيرهم من الأساتذة المرموقين.

ومن المفارقات أن السلطة تسعى إلى مد سن الإحالة إلى التقاعد للقضاة إلى ما بعد ٦٨ سنة، ولكنها في الوقت ذاته تسعى إلى استئصال الأساتذة بعد الستين تحت حجج واهية، بل الأدهى من ذلك أنها تسعى إلى استئصال من هم دون الستين بدعوى التعاقد الموسمي كل فترة زمنية على الوظائف المتاحة في الأقسام العلمية.

من المفترض أنه كلما كبر الأستاذ في السن، ازداد خبرة ونضجاً بحكم أبحاثه ودراساته وقراءاته، ويفترض أيضاً أنه سيفيد الطالب أكثر من ذي قبل، ولكن السلطة تريد الاستغناء عنه وعن غيره لأسباب غير علمية بكل تأكيد.

ومن المفارقات أن بعض الدول العربية الفقيرة أدركت مبكراً قيمة «الأستاذ» الجامعي، وأهميته بالنسبة للمستقبل، فجعلت له الأولوية، ووفرت له الحياة الكريمة من خلال رواتب يعينه على التفرغ لمهمته الأساسية وهي البحث والدرس والقراءة.. الأردن مثلا لا تجد فيها أستاذاً واحداً منسوبا إلى جامعة رسمية يعمل خارج بلاده.. لماذا؟ لأن الملك حسين، قبل رحيله بسنوات رفع مرتبات أساتذة الجامعات - دون تمييز - إلى مستوى نظرائهم في دول الخليج، وقامت سوريا مؤخراً برفع رواتب أساتذة جامعاتها بنسبة كبيرة، أدت إلى استقالة كثير من المعارين والمتعاقدين خارجيا.. والأمر نفسه بالنسبة للمغرب وموريتانيا.. ولكن أم الدنيا تصر على شيء آخر.

ثانيا - الطالب:

يأتي الطالب من مدرسته الثانوية إلى الجامعة، حاملاً قصور التعليم العام ومشكلاته منذ المرحلة الابتدائية، ومشبعاً بروح الحفظ والتلخيص والكتاب المقرر والدروس الخصوصية والزحام وسوءات الامتحان من غش وشللية ومحفوظات.

يأتي الطالب لا يفكر في الحصول على المعلومة من مرجع، ولا في فهمها، فليس لديه وقت كي يتعب ويقلب بين المراجع، ولم يتعود على ذلك في المراحل السابقة، ثم إنه مشبع بروح الإحباط واليأس من الحصول على «وظيفة» بعد تخرجه، فقد سبقه آخرون، ومازالوا بلا وظيفة، ينامون النهار ويسهرون الليل.. وقد يمارس بعضهم سلوكيات مشينة كي يملأ فراغه الروحي والزمني.. فلماذا يتعب نفسه في البحث والكشف؟

ثم إن المدرجات والقاعات مكتظة بزملائه وزميلاته، فلا فرصة كي يتعرف إلى أستاذه، أو يتعرف إليه أستاذه، ثم إنه قد لا يجد الأستاذ في معظم الأوقات، لأن الأستاذ مشغول بعمله الخارجي، أو منصبه الإداري، أو أنه غير متفرغ له كأن يأتي من جامعة أخرى بعيدة كلما أتيح له ذلك..

المهم، أن يشتري كتاب الأستاذ، الذي يأتي في آخر الفصل ليحدد صفحات الامتحان، ويخرج الطالب من امتحان الفصل الأول إلى امتحان الفصل الثاني إلى امتحان التخلفات، فالكليات في امتحانات معظم العام بما يترتب عليها من تصحيح وكنترول ورصد للدرجات وإعلان للنتائج..

وبالطبع، فالذين طبقوا نظام الفصلين في الجامعة المصرية، كان هدفهم إشغال الطلاب عن المشاركة في أي نشاط سياسي، يمكن أن يزعج السلطة، ولذا رأوا أن

ارفعـوا أيديكـم عن الجامعـة!

نظام الفصلين وما يترتب عليه، وسيلة ناجعة لإبعاد الطلاب، ولو اقتضى ذلك أن تكون أيام التدريس الحقيقية في كل فصل أقل من شهرين، لا يستطيع فيهما أي أستاذ أن ينجز مقرره تدريساً بصورة مرضية..

وفي هذه الفترة الزمنية القصيرة، يصعب على الطلاب أن يمارسوا أنشطة ثقافية أو غيرها بصورة فعالة.. وإذا عرفنا أن معظم الأنشطة مرهونة ممارستها بموافقة جهاز الأمن، وهو غالباً لا يوافق إلا على الأنشطة الترفيهية مثل الغناء والرقص، فإن الطالب لا يستفيد بعداً معرفياً أو اجتماعياً في الغالب.

إن اتحادات الطلاب تأتي من خلال تزكية جهاز الأمن، ولذا فإن هذه الاتحادات لا تحقق الثمار المرجوة، بل العكس فإن أفرادها في العادة هم عيون الأمن على أساتذتهم وزملائهم من الطلاب، وهو ما يجعلهم مرفوضين من معظم الطلاب، ويكون وجودهم مجرد هيكل تنظيمي أجوف للظهور في الحفلات التي تنظمها الأجهزة الرسمية في بعض المناسبات، لا أكثر.

وهذا الوضع خلق رغبة لدى الطلاب الآخرين في إنشاء اتحادات حرة أو موازية تعبر عن الطلاب تعبيراً حقيقياً، وهو ما أوجد صراعاً بين جهاز الأمن وهؤلاء الطلاب، فكانت اعتقالات ومجالس تأديب، وحرمان من الدراسة أو الامتحانات، فضلاً عن صدامات وظواهر ليس للجامعة بها عهد، اللهم إلا في أيام الاحتلال البريطاني، وكان ذلك يتم خارج أسوار الجامعة، أما الآن فإنه يتم داخل الأسوار، وبين من؟ بين أبناء الوطن الواحد!

إن تعبير الطلاب عن أنفسهم تعبيراً حقيقياً، فضلاً عن إلغاء نظام الفصلين، يخدم العملية التعليمية في الجامعة - مع القصور الراهن - ويخدم الوطن أيضاً، لأنه يتيح للطلاب فرصة الاهتمام بقضايا وطنهم ومشكلاته من خلال المحاضرات الجادة، والندوات الرصينة، والفنون المحترمة، كما يبرز مواهبهم الدفينة، ويحرك فيهم شعلة الأمل، للنظر إلى المستقبل نظرة تفاؤل وإقبال لا نظرة تشاؤم وإدبار.

وأول خطوة في هذا الاتجاه تقضي بإلغاء اللائحة الطلابية التي وضعها خصوم الحرية والوطن، وإقرار لائحة جديدة تتجاوز لائحة ١٩٧٩ التي ينادي البعض بإعادتها، ليتعلم أبناؤنا فن الحوار الجاد الخلاق، مهما اختلفت توجهاتهم وتباينت رؤاهم.. فهم الأمل، وهم المستقبل.

ثالثاً - المؤسسة:

مؤسسة التعليم الجامعي أو إدارته، هي المخ الذي يقود الجامعة ويوجهها نحو الأهداف والغايات الرئيسة للمجتمع، من خلال بحث القضايا والموضوعات المختلفة، والمؤسسة مرتبطة اقتصادياً بالدولة، وليس بالسلطة، هذا هو المفترض. أما الواقع فإن المؤسسة مرتبطة بالسلطة لا الدولة، إذ إن الدولة هي مجموع مؤسسات المجتمع التي تخصص للجامعة ميزانيتها المالية ومقار الكليات والإدارات والمكتبات والمعامل ومراكز البحوث. وهذا الدور للدولة يفترض أن يحقق للمؤسسة الجامعية استقلالاً كاملاً في مجال الرأي والفكر والبحث العلمي وإقامة الهياكل الإدارية والعلمية، والأمنية أيضاً.

الواقع يقول إن السلطة - لا الدولة - فرضت هيمنتها على المؤسسة الجامعية في جميع المجالات، فهي التي تصنع القيادات الجامعية، وتتدخل في تعيين المعيدين عن طريق الأمن، وتهيمن على الأنشطة الثقافية والاجتماعية والترفيهية للجامعة، بل إنها تتدخل في مجال البحث العلمي، وخاصة في الكليات النظرية بمقاومة أو استبعاد بحوث بعينها، وتعويق الباحثين الذين يقومون بهذه البحوث، بل إنها تسيطر على المؤسسة الجامعية سيطرة كاملة عن طريق الأجهزة الأمنية التي تبدأ من باب المؤسسة حتى أعمق أعماقها، حيث يحتل «رجل الأمن» مكاتب فخمة واسعة، قد تفوق مكاتب الأساتذة والعمداء ورؤساء المؤسسة أنفسهم!

ونتيجة للوضع المزري مادياً ومعنوياً للأستاذ الجامعي، فقد صار الهيكل الإداري للمؤسسة بدءاً من رئيس القسم مروراً بوكيل الكلية وعميدها ووصولاً إلى رئيس الجامعة ونائبه، رهناً برضا المؤسسة الأمنية، حتى لو كان المعني بالمنصب غير مؤهل علمياً أو إدارياً، أو غير كفء على الإطلاق.

قبل هيمنة السلطة على المؤسسة الجامعية، والتسرب إلى أدق تفاصيلها ومفرداتها، كانت هناك أساليب أخرى لتكوين الهياكل الإدارية، منها الأقدمية، والانتخاب، وهي أساليب كانت ناجعة في تحقيق استقلال الجامعة، وتفرغها لأداء رسالتها في صورة مقبولة ومعقولة، حتى لو كانت الإمكانات المادية محدودة.

ومن المؤسف أن السلطة في ظل هيمنتها على المؤسسة الجامعية، أغدقت على رؤسائها الكيار تحت مسميات مختلفة، وغلت يدها عن الأساتذة والبحوث، فالأستاذ - كما سبقت الإشارة - أدنى دخلاً من نظيره في أي بلد عربي، بل في أي بلد فقير في العالم. والبحوث لا تنال من الميزانية إلا النزر اليسير، وبالمقارنة مع الكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة، فإن هذا الكيان يصرف على البحث العلمي ٣٪ من ميزانيته، أما أم الدنيا، فلا يتجاوز ما تخصصه ٠,٠٣٪. لذا نجد الفارق الهائل في التقدم العلمي هناك، والتخلف «بل الموت» العلمي هنا. ولسنا في حاجة إلى المقارنة بين ميزانية الأمن الداخلي، وميزانية البحث العلمي، لأن الفارق مرعب، ومع ذلك لم يتحقق الأمن الداخلي، ولم يتحقق التقدم العلمي!

إن الحديث حول انهيار البحث العلمي، وعدم الاستفادة من البحوث العلمية التي تم إنجازها، وسعي الدول الأخرى، ومنها دول معادية إلى استثمار بحوثنا وعلمائنا، حديث يطول، وقد تناوله كثيرون، ولا أجد داعياً لتكراره.

ومن المفارقات العجيبة، أن كل المهن والحرف في المجتمع لها نقابات وروابط ونواد، تدافع عن أصحابها وعن المهنة وترقيتها، وتصد العدوان عليها أياً كان شكل العدوان وطبيعته، إلا المؤسسة الجامعية، فلا توجد لها نقابة أو رابطة تطالب بحقوق الأساتذة والطلاب والبحث العلمي، وترعى العملية التعليمية والقائمين عليها. وكانت نوادي هيئات التدريس قبل عقدين من الزمان تحاول أن ترفع صوت الأساتذة والمؤسسة - مجرد رفع صوت - ولكن رجال السلطة ممن تولوا المسئولية التنفيذية، حولوا هذه النوادي إلى مجرد مقاه يتناول فيها الأساتذة الشاي، ويتقابلون في مقارها.

ومن الطرائف التي صدرت عن بعض هذه الأندية - المقاهي، أن أحدها أراد أن يثبت ولاءه المطلق للسلطة، فطلب مؤخراً الفتوى الشرعية من مفتي الديار المصرية حول تشكيل الاتحادات الطلابية: هل هو حرام أم حلال؟

والقصد من وراء هذا الطلب أن يقول مفتي الديار إنها حرام، لأن بعض الطلاب يعارضون السلطة، وينشغلون بغير العلم والدرس!

ولا ريب أن قهر المؤسسة الجامعية وإذلالها وامتهانها بالتدخل البوليسي المباشر، وقبض اليد عن تخصيص الميزانية اللائقة للأستاذ والبحث العلمي، هو الذي يقود المجتمع إلى الانهيار وليس الأزمات، لأن المؤسسة الجامعية، يصعب عليها في ظل هذا الوضع المهين أن تقدم خريجاً صالحاً يعمل ويخلص في عمله أو يتقنه، لأنه خريج قاصر بالضرورة.

تأثيـر وتأثـر:

ذات يوم استدعاني وزير سابق، بوصفه الرئيس الأعلى للجامعات، ليناقش معي، ما كنت أكتبه حول انهيار المؤسسة التعليمية بصفة عامة. وأقول «يناقش» ولا أقول لفظاً آخر يعبر عن المعنى الحقيقي لاستدعائي الذي هز أركان الجامعة التي أنتمي إليها من أصغر مسئول إلى رئيسها الذي استدعاني هو الآخر عقب مقابلتي للوزير ليطمئن على نفسه وعلى منصبه!

كان أول وأبرز ما قاله لي الوزير السابق:

هل قمت بعمل استبانة تؤكد على ما تذهب إليه في مقالاتك؟

قلت له: نعم.

قال: أين؟

قلت له: أوراق امتحان طلاب اللغة العربية في الفرقة الرابعة «الليسانس» في مادة «كذا» بكلية «كذا». هذه الأوراق تثبت أن أغلبيتهم الساحقة لا تصلح للعمل في مجال التعليم أو الإعلام أو الثقافة.. بل وزارة الأوقاف!

كانت إجابتي مباغتة للرجل، الذي قلت له: إنني عملت بجميع مراحل التعليم العام والجامعي، داخل البلاد وخارجها، وأعلم جيداً كيف يكون مستوى طلابي الذين أدرس لهم، فأنا أتكلم عن تجربة لا عن هوى!

استمر الحوار بيني وبين الوزير السابق، وتشعب، وبدا أنه في أعماقه يؤمن بما أقول، ولكنه كان كمن يقول: إن الأمر أكبر مني.. والتمست للرجل عذراً.. ولكنه ليس أي عذر!

والشاهد في هذه الحكاية هو أن ضعف مستوى الخريج ينعكس على المجتمع بالسلب، كما أن قوته تنعكس بالإيجاب، وإذا رأينا خريجي اللغة العربية لا يستطيعون النهوض بمهامهم في مجالي التعليم والإعلام والثقافة والأوقاف.. ومثلهم من يتخرجون في الطب والصيدلة والزراعة والتجارة والتربية والهندسة والتقنية.. وبقية المجالات، فإن المجتمع يعيش أزمة خانقة، وتخلفاً مريعاً، يجعل من حق الدول حديثة الولادة أن تفخر بتنظمها



التعليمية، وسيرها على طريق التطور الطبيعى، ويفرض علينا، ونحن أبناء السبعة آلاف سنة، كما يردد البعض، أن نرثى لحالنا، ونبكى على واقعنا، ونأسى على تعليمنا غير الرشيد.

لقد أحدث انهيار التعليم خللاً فى المجتمع، فاق كل التصورات، حيث لم يعد العلم والتجويد فيه وسيلة للرقى والحراك الاجتماعى الصحيح، ولكنه صار حرفة المتواضعين المطحونين الذين يتمسكون بصلابة القيم وثبات الأخلاق.

لقد ذابت الطبقة المتوسطة التى كانت عماد المجتمع، وأساس بنائه (أغلبية الشعب اليابانى المتفوق طبقة متوسطة). وصار لدينا طبقتان: الأولى تمثل طبقة ضئيلة العدد وتملك كل شىء (الملايين والمليارات)، وطبقة كبيرة تمثل الأغلبية الساحقة لا تملك أى شىء.. لأن سبيل الحراك الاجتماعى الراهن هو الاقتراب من السلطة: الإدارة، الحزب، الأمن، المؤسسات التشريعية والتنفيذية.. وهذا الاقتراب: لا يتطلب علماً، ولا جودة، ولا جهداً حقيقياً، بقدر ما يتطلب من الولاء والتأييد والهتاف؛ وهذه تفتح الطريق أمام التملك، وما يسمى بالاستثمار، والاحتكار، وأشياء أخرى.

ولأن الطالب الجامعى من الأغلبية الساحقة يعلم أنه لا أمل فى المستقبل، ولا وظيفة، ولا زوجة، فإنه يتعامل مع العلم بمفهوم آخر.. هو «تكبير الدماغ» وفق اللغة الشبابية أو السوقية الشائعة؛ مما يجعل الجدية والجودة لا وجود لهما فى حسبانه، وكثيرا ما تسمع من الطالب أنه لا يريد أن يتخرج من الجامعة، لأن تخرجه سيجعل أسرته تقطع عنه «المصروف»، وترى فيه كياناً زائداً عن الحاجة، مما يدفع به إلى أحد طريقين: الهروب من الوطن بحجة العمل فى الخارج، ولو ركب البحر المتوسط وغرق فى أحشائه، أو الهروب من الواقع بالإدمان أو الغيبوبة أو الجريمة.

طبعاً سعداء الحظ من أبناء الأقلية التى تملك كل شىء، لا يجدون عناء فى توفير الوظائف التى تملكها السلطة، أو تملكها الطبقة نفسها، حيث يعينون بسهولة، ويتقاضون مرتبات تفوق مرتبات أساتذتهم فى الجامعة بمراحل كبيرة.

لقد تحول المجتمع من الإنتاج إلى الاستهلاك؛ لأن الطبقة الجديدة التى تمثل الأقلية لا يعنيها أمر العمل الجاد المتميز، والذى يعنيها بالدرجة الأولى، هو الكسب الكثير المقنع، ولذا لم تجد غضاضة فى فتح باب الاستيراد على مصراعيه، بدءاً من مستلزمات رغيف الخبز حتى الكافيار والسيمون فيميه!

هل هو أمر استثنائى ألا تجد كليات الزراعة طلاباً يقبلون عليها، اللهم إلا من هوى بهم المجموع العلمى إلى الحضيض؟

لو كان التعليم الجامعى بخير، لخصص مثلاً مساحة لاستصلاح الأراضى وتعميرها فى سيناء، ينتقل إليها كليات الزراعة جميعاً، تسمى «الجامعة الزراعية»، وملك خريجيها مساحة معقولة مع بيت صغير، فى بيئة تتوفر فيها الطرق والمواصلات والاتصالات والمدارس العامة والأسواق والمستشفيات.. أعتقد أن الآلاف بل عشرات الآلاف سيقبلون على هذه الجامعة التى لا تحتاج إلى كثير من الميزانية، بقدر ما تحتاج إلى ترشيد الميزانية العامة للدولة.. وعندئذ سنحقق أهدافاً أساسية عديدة، أولها امتصاص جزء كبير من البطالة، وتوفير محاصيل أساسية وعلى رأسها القمح، وثروة حيوانية وداجنة، ومشتقات الألبان، فضلاً عن تعمير جزء عزيز وغال من الوطن، تركناه خالياً على مدى سبعة آلاف عام، فطمع فيه الغزاة منذ الهكسوس، حتى الصهاينة، الذين مازالوا ينظرون إليه بوصفه متنفساً يحققون من خلاله أطماعهم وأطماع سادتهم فى الغرب وأمريكا.

إن مأساة الجامعة المصرية تتفاقم مع أزمة المجتمع بنشوء ما يسمى الجامعات الخاصة، وهى فى أغلبها مجرد شقق مفروشة تبيع الشهادات لمن يدفع من أبناء الطبقة الجديدة التى تمثل الأقلية وأشباههم، والذين خذلتهم مجاميعهم فى الوصول إلى كليات القمة فى الجامعات الحكومية.

وكنت أفهم أن تشجع السلطة ما يعرف منذ تأسيس الجامعة المصرية، بالجامعات الأهلية، وهى التى يشارك أبناء الشعب فى تأسيسها، وتلبى حاجات المجتمع، خاصة فى المجالات العلمية الحديثة، على أن تقدم للمؤسسين الأرض اللازمة، فى أماكن صحراوية بعيدة عن العمران، فتنشئ مجتمعات جديدة، وتخفف عن كاهل الميزانية العامة للدولة أعباء كثيرة.. ولكن القوم يعنيهم أمر المستثمرين أو من يسمون كذلك، وهى مسألة تحتاج إلى دراسة واستجابة.

حـــــلـــــول:

من المؤكد أن من يعنيهم الأمر يعلمون جيداً طبيعة المأساة التى تعيشها الجامعة، وأزمة المجتمع التى تمسك بخناقه، وتزداد ضراوة بمضى الوقت، نتيجة لعدم وضع الحلول الناجعة موضع التنفيذ. وأعتقد أن استمرار الوضع على ما هو عليه، لن يفيدهم - ولاة الأمر - على المدى البعيد، ولكنه سيضر الأمة بأسرها، ويضعها فى موضع حرج، قد لا تخرج منه بعد قرن أو يزيد.

الأمر يتصل بصورة ما بالإطار العام الذى تعيشه الدولة، وهو ما يفرض على السلطة إن كان لديها بعض الرغبة فى إنقاذ المجتمع من ورطته، أن تتخلى عن الهيمنة والسيطرة على الجامعة المصرية، وأن تسعى إلى الاستفادة منها فى تغيير الوضع القائم إلى الأفضل والأحسن حرصاً على المستقبل. وأتصور أن ذلك لن يتحقق إلا من خلال النقاط الآتية:

١ - قانون جديد للجامعة المصرية، يقوم على تحريرها واستقلالها، ويرسى القيم الجامعية والتقاليد الجامعية، من خلال حفظ كرامة الأستاذ الجامعى مادياً ومعنوياً، برفع راتبه إلى الحد اللائق الذى يساعد على استمراره فى بحوثه ودراساته، ومنحه الحصانة ليواجه الاستباحة من جانب أجهزة وقوى معادية لحرية الجامعة واستقلالها.. وما يقوله بعض المسئولين عن إخضاع الجامعة للسلطة لأنها تمنحها الميزانية المالية، هو نوع من الكلام الذى لا يقبله العلم ولا المنطق. فالسلطة لا تمنح، ولكنها الدولة بمجموع مؤسساتها أو أفرادها الذين يدفعون الضرائب. والاستقلال لا يعنى الانفصال، وعندما نقول استقلال القضاء مثلاً، فذلك لا يعنى انفصاله عن المجتمع أو مؤسساته، ولكن يعنى استقلاله عما يؤثر فى سلامة أحكامه، أو خضوعه للهوى الذى يأتى من السلطة أو غيرها.

وأتصور أن القانون الجديد سيوحد بين الأساتذة، ولا يقيم «أبرتايد» فصلاً عنصرياً - بين الأستاذ العامل، والمتفرغ، وغير المتفرغ.. وسيحقق أفضلية العلم قبل أفضلية المنصب الإدارى الذى يجب أن يكون آخر شىء يفكر فيه الأستاذ الجامعى.

٢ - لابد من رفع يد الأمن عن الجامعة وإخراجه منها إلى الأبد، وتوجيهه إلى مهمته الأساسية وهى حفظ الأمن الاجتماعى، ومواجهة المنحرفين فى الشارع والطريق، والحفاظ على المال العام، وأرواح المصريين فى البر والبحر والجو.

إن الجامعة المصرية قادرة على تشكيل أجهزة أمن خاصة بها، تنفق عليها من ميزانياتها، وترتدى لباساً خاصاً بها، وتأتمر بأوامر رؤسائها..

لقد عانت الجامعة كثيراً من تدخل أجهزة الأمن فى شرايينها، حتى صرنا نرى الأستاذ الأمنى والطالب الأمنى، والموظف الأمنى، والعامل الأمنى.

وآن الأوان أن يرحل الأمن عن الجامعة، حتى تنتخب هياكلها الإدارية بمعرفتها، وتعين أساتذتها بمعرفتها، وتبنى طلابها علمياً وثقافياً بمعرفتها.

٣ - إن صدور لائحة طلابية جديدة أمر ضرورى، وذلك لبناء طالب جديد، يتدرب على الحركة الاجتماعية والفكرية السليمة، ويتاح له - أياً كان وضعه - أن يشارك فى الأنشطة المختلفة، ويختار الطالب الزميل الذى يمثله فى اتحاد الطلاب، دون أن يشطبه الأمن أو الخاضعون لرجال الأمن.

بعض الناس يريد إلغاء اتحاد الطلاب، ويراه حراماً، وهذا سلوك أمنى بغيض، لأنه يكرس السلبية، ويبعد الطالب بعد تخرجه، عن المشاركة فى قضايا الوطن، ويحرمه من التعامل مع زملائه بالفكر والحوار والمشاركة.

والأمة تريد طالباً يكون أساساً لمواطن المستقبل، وهو مواطن يجب أن يتشرب الحرية والمشاركة والتفكير المستقل.

٤ - إنشاء الجامعات الأهلية، يجب أن يكون الغاية الأولى فى التوسع الجامعى، لخدمة المناطق المقفرة، وتعميرها، وتخفيف العبء عن ميزانية الدولة، والإضافة إلى الخبرات الفنية والتقنية لدى المجتمع.. وليت من يعنيهم الأمر يتوقفون عن التصريح بإنشاء جامعات خاصة، فهذه الجامعات - فى معظمها - لا تخدم المجتمع ولا تفيده، بقدر ما تفيد أصحابها أولاً، والطبقة الجديدة التى تمثل الأقلية ثانياً، ولا تضيف جديداً فى ميدان الخبرات الفنية والتقنية ثالثاً.. وما أكثر ما كتبت الصحف وتناول الإعلام مشكلاتها وسلبياتها.

٥ - لن تتقدم الجامعة المصرية، إلا إذا تم إصلاح التعليم العام، وتخليصه من الأفكار الغريبة الواردة من وراء البحار، واعتماد المناهج العملية التى تراعى الواقع الثقافى للأمة، وإمكاناتها المادية، مع توحيد هذا التعليم، وتلك ضرورة قومية تخص الأمن القومى - فى مناهجه ومقرراته.. فلا نجد مدارس تقوم على مناهج أجنبية، ومدارس تعتمد مناهج محلية، ومدارس بين بين.. إن توحيد المناهج والمقررات، وتدريسها جميعاً بجدية وجودة، مع التخلص من المواد الصورية، خطوة أساسية فى طريق الإصلاح. ■

اتحـــادات الطـــلاب تأتـى من خلال تزكية جهـاز الأمـن، ولذا فإن هـذه الاتحادات لا تحقـق الثـمار المرجـوة، بل العـكس فإن أفرادها فى العادة هم عيـون الأمن على أساتذتهم وزملائهم من الطلاب

عـــالـــم نـعـمــات



أحياناً يتحول الاجتهاد النظرى حول مفهوم ما، خاصة إذا كان وثيق الصلة بعلاقة المرأة بالرجل والعكس، إلى صك اجتماعى يتم تداوله عبر تاريخية متوترة وملتبسة تضفى عليه ظلالها؛ كما لو أنه صار حقيقة أو واحداً من المسلمات المعرفية التى يحتكم إليها الجدل، حسماً لوضعية هذا المفهوم أو ذاك فى السياق المرجعى العام، وبالتالى يصعب على الآراء النظرية المتوقدة بالوعى وهى تسعى للتصحيح ورفع الالتباس؛ أن تغير فى وقت وجيز ما ترسخ فى السياق الوجدانى من انعكاسات أصبحت من مفردات الديالوج اليومى.

لكن الفن عموماً والإبداع الأدبى خصوصاً قادران على الولوج إلى داخل النفس البشرية، وقراءة أدق التفاصيل فى وضعيتها الطبيعية، ثم تجسيد هذه القراءة فى منظومة توصل العلاقة ما بين الأصل والصورة، أى ما بين ما تنطوى عليه الذات من حقائق قد لا تراها الذهنية المجردة إلا عندما يقدمها الإبداع فى صورتها المنظورة، وبين تلك الصورة المتكلسة على أغاليط لا تنحاز للرجل على حسابها بقدر ما تكرس لتثبيت ما تعكسه هذه الصورة من مجسم نفسى اجتماعى للتخلف.

لذلك فإن عملية التأمل المحايد والتحليل الصادق يدفعان تجليات الإبداع إلى الغوص والكشف عما لا تدركه ظاهرية الوعى الاجتماعى، ويمنحانها القدرة على الدخول فى حوار حميم مع ذات التلقى لتفعيل الوعى والنظر للواقع برؤية مغايرة، تنقيه من شوائبه وتطهره من مزاعمه التى تراكمت على مفاهيم خاطئة تبنتها مراحل التخلف وخاصة أن الصورة هنا لا تحمل ملامح الأصل بقدر ما تحمل من ادعاءات مشوهة له.

فى إطار هذه المفاهيم تتمحور التجربة الإبداعية للكاتبة (نعمات البحيرى). وتنطلق من عالم يضىء ذاته بالشاعرية والعذوبة ونصاعة الرؤية، وهو عالم حافل بالإنسانية الشجية التى شكلت قدرة الكاتبة على التوغل والتحليل، وتشكيل صور دالة فى تعبيرها عن كل هذه الجوانب، من تفاصيل صغيرة تمر عليها النظرة العادية بإهمال، أو تجاهل بفعل الروتينية والاعتيادية.. إلخ. إذ يعتمد منهجها الإبداعى فى القصة والرواية على أن الإنسان هو مركز الكون سواء كان رجلاً أم امرأة.

ويبدو حرصها شديد الإنسانية دون اللجوء إلى صيغ تعليمية، أو صكوك معرفية مقحمة على النص مجردة من عنصرها الإنسانى، وهى تبحث فى معالجة القضايا الملازمة لوجدان الحياة وتخليصها من كل ما يعوق مساراتها.

كما أن المكون الرومانسى للمرأة جعل

عالم حافل بالإنسانية الشجية التى شكلت قدرة الكاتبة على التوغل والتحليل، ورسم صور دالة فى تعبيرها عن كل هذه الجوانب، من تفاصيل صغيرة تمر عليها النظرة العادية بإهمال، أو تجاهل بفعل الروتينية والاعتيادية

البحيـــــرى

صبـــــرى قنـــــديـــــل

الذات عندها نبعاً فياضاً يمثل روح النص، لأن الكاتبة حتى وهى تتوغل فى تفاصيل معالجاتها لتناقضات الواقع تجاه المرأة مأخوذة دائماً بالأحلام، وترتكز على المشاعر الإنسانية فى كل نصوصها، بدءاً من عناوين مجموعاتها القصصية - ارتحالات اللؤلؤ، ضلع أعوج - حتى عناوين القصص تحمل دلالات ترتبط كلها بذات المرأة وهى تقاوم ما يحاصرها.

ففى مجموعة (ارتحالات اللؤلؤ) تمور الرؤية فى نسق أنثوى حالم يتمثل يوتوبيته الخاصة. ويبحث عبر شاعريته عن وجوده الذاتى، إذ أن الكاتبة ترتحل من أجل ذلك مع اغتراب النفس، وتتوغل مع أبطال قصصها داخل الانعكاسات الإنسانية فى مستويات مختلفة. وهو ما يكشف وفقاً لتتابع النشر أن هذه المجموعة تمثل مقدمة بالغة العذوبة لرواية (أشجار قليلة عند المنحنى)، حيث يأخذ هذا الاغتراب فى التشكل التدريجى حتى يأخذ صورة الوطن.

لقد جعلت الكاتبة مقدمة المجموعة إشارة بالغة التأثير ابتداء من عنوانها (مقدمة لا لزوم لها) ثم قولها منذ البداية.. (من بين أنقاض الوطن المثقوب بقوى كثيرة خارقة، دخلت هذه المدينة المكنية الجديدة، أحمل فى قلبى انكسارات العمر والوطن).

وتمثل الذات الأصل حضوراً طاغياً، لأن اللؤلؤ الذى يرتحل هو كل هواجس هذه الذات التى تعتصر فى إطار قسوة هذا الاغتراب، وهى فى كل الأحوال تفضى إلى صورة أكثر روعة للحياة، حتى ولو كانت قفراً مثلما كانت عليه المدينة الجديدة التى ارتحلت إليها هرباً وبحثاً عن تلك اليوتوبيا، والتى ربما لا تجدها حتى ولو ضجت المدينة بكل صور الحياة المعتادة.

كما تلازم هواجس المرأة المتقدة هذه الذات ملازمة تعكس ما تمتلئ به نفس الكاتبة من أحلام، للخروج من أسر ذلك القمع المطارد للحياة حتى فى تشكيلها المبكر، وفى ذلك تتكئ الكاتبة على رؤية جمالية عالية للفن التشكيلى، والذى حرصت أن يأتنس عالمها ببعض إبداعاته لفنانين لهم حضورهم المتوهج، لإقامة علاقة توحد مع ما يختلج به وجدانها وتحلق فيه رؤيتها.

والمقدمة التى رأت أنها لا لزوم لها لا تقل فى صياغتها إبداعاً ولا جمالاً عما تتألق به القصص، خاصة أن اللغة تتدفق شلالاً رقراقاً من الشعر، وهو ما بدا جلياً حتى على مستوى شكل كتابة القصص، وكأنها بالفعل قصائد شعر تأخذ كل واحدة لقطة تتلاحق وراء بعضها البعض، لكى تقيم عالماً مدهشاً يرى فيه المتلقى بعضاً من ذاته وبعضاً من أشجانه التى تثقل مشاعره بأشياء كثيرة.

تضم مجموعة (ارتحالات اللؤلؤ) الصادرة عام ١٩٩٧ عن سلسلة - أصوات أدبية - بهيئة قصور الثقافة سبع لوحات قصصية هى (صورة ليست من الطائرة، بورتريه للمرأة الوحيدة، صور عائلية، ارتحالات اللؤلؤ، صور احترقت فى المعمل، من قلب الوهج، امتلاء)، ويقوم بناء كل لوحة منها على عدد من المشاهد أو اللقطات التى تأخذ كل واحدة منها عنواناً يحدد شكلها فقط، لكنه لا يفصلها عن ديناميكية اللوحة.

وفى كل اللوحات تعتمد الكاتبة (نعمات البحيرى) على التأمل والرصد عبر ذات متقفة كما سبقت الإشارة، نستطيع أن نقول إنها ذات الكاتبة، وهى بوعيها المتوقد ترى الحياة وفق منظورها هذا، لكنها فى نفس الوقت لا تقمع الحياة وهى تدينها، أو تصادر على تفاصيلها التى تعريها رغبة فى تصحيحها.. ففى (صورة ليست من الطائرة) والتى تتجسد فى ثلاث عشرة لقطة تتراتب وفق ما تحرص عليه الكاتبة من تشكل تأملى دلالى للمنظور القصصى، فأول لقطة بعنوان (المدينة) ترسم بالمشاعر شكل هذه المدينة الحزينة، التى تحول الظلام فوق سكانها إلى حشرة كبيرة.. (معالم الطريق إليها مستشفى لعزل الأوبئة ومعسكرات لتدريب الجنود ومقابر للصدقة لا تعرف من الزهور سوى الصبار والوحشى).

ثم ترى فى اللقطة الثانية بعنوان (انصراف) هؤلاء السكان، كما لو أنهم كائنات مبتذلة يحتكرون الصمت والبلاهة، لكنها تقف فى اللقطة الثالثة أمام نموذج امرأة تحت نفس العنوان المجرد - امرأة. تلك الغائبة التى تبحث عنها فى سؤالها الدال.. (أين هى الآن المرأة التى جاهدت للتخلص من غطيط حماتها فى الغرفة المجاورة).

واختلافهما معاً عند الحكم على أتفه الأشياء.

وغيرة حماتها حين يغلق عليها وزوجها الباب.

هى الآن تسكن إحدى شقق المدينة المصممة على شكل متاهة.

وإذا كانت الكاتبة قد ارتكزت على التجريد فى قصص هذه المجموعة، فإنها عبر الرسم بالمشاعر مالت إلى الاتكاء على بعد سريالى، جعل الدلالة أكثر حدة فى تأثيرها، وهو ما بدا على سبيل المثال فى لقطة (أغنية).. (تأتى من الغرفة الداخلية، تنظر إلى زوجها وفى عينيها صمت وكلام.. تقول - أتريد أن أغنى لك.. سأغنى لك.. سأغنى لك - وإذا بها تصرخ فى كل أرجاء الشقة الجديدة ذات الأثاث القديم.. بعدها تتهاوى إلى جواره).

وكذلك فى لقطات أخرى مثل (صورة بانورامية) فى قصة (صور عائلية) وغيرها، وهو ما يؤكد أن هذه المجموعة - قصيدة قصصية طويلة - تحمل عبر نبضها تغريدة إنسانية تتدفق بمشاعر المرأة.

أما مجموعة (ضلع أعوج) الصادرة أيضاً عام ١٩٩٧ عن الهيئة العامة للكتاب سلسلة مختارات فصول، فتبدو فيها المرأة فى منظور دلالة الموروث الذى يعكسه العنوان ساخراً، على غير ما تحمل به تفاصيل القصص من إضاءات ومفارقات، لأن (نعمات البحيرى) ظلت مشغولة بإبراز إنسانية المرأة على صورتها الصحيحة كما سبقت الإشارة متكئة على شاعريتها، حتى فى تصحيح المفاهيم النفسية عند الرجل، لتؤكد أن الاعوجاج ليس فى تكوين المرأة، لكنه فى الفكر الذكورى الأحادى الذى ينظر إليها على هذا النحو، فإن الكاتبة لا ترى انتقاصاً وهى تتحدث تحت هذا العنوان لأنها أرادت أن تبرهن على الحضور الإنسانى للمرأة فى صور متعددة، لتقول هذا أصل الصورة التى وصمتموها بالاعوجاج.

فى قصة (جرح الوردة) تنساب حالة التأمل بعذوبة من خلال ذات تروى عن الحياة بحب لحد العشق.. (لا أستطيع أن أتصور المرأة وهى تتخلى عن أماكنها فى الشرفة مع الزرع وغية الحمام، والقطط والجيران، لا أتصور البيت إلا بهذا البهاء، وفجأة ونحن فوق سلالم الدرج تركت يدى وعادت مسرعة لتفتح الشقة، وكأنها نسيت شيئاً، دخلت مسرعة إلى أنبوبة الغاز لتغلقها جيداً، وكذلك فعلت مع محبس المياه كما أخرجت كيس القمامة خارج الشقة).

تدخل الكاتبة عبر هذه الرومانسية الواعية والحاكمة لسياق القصة إلى عمق الفكرة، لتناقش طريقة تربية الأولاد والتى تميزهم على البنات وتزرع فيهم الأنانية، فحماة الزوجة ربت ابنها ماجد على حساب شقيقته، بينما ربتهما الأم على الخنوع لأنهما إماء، فانعكست سلبيات هذه الطريقة الخاطئة على علاقة الزوج بزوجته حتى انتهت بالانفصال.

كما تحفل القصة بالمفارقات الإنسانية التى تمسك بخيوطها الذات النسوية، لتعكس دلالات المرأة ممثلة فى مجايلة قصصية - الأم والبنات والزوجة - فى مواجهة هذا الكائن المسيد عليهن دون مبرر سوى جهالة نظام التربية، الذى جعله يحب المال ونفسه أكثر من أسرته مع أنه مدرس، تقابله والدة بدرجة عالية من الإنسانية التى تتوحد مشاعرها مع القطة فى معاناة الولادة، ورعايتها لها والدعاء الدائم للبنتين.

هذه الذات تتأمل الحياة على هذا النحو من داخلها بوعى ورؤية، تحرص وفق هذه الشاعرية المتدفقة على عدم خدش شفافية هذه الحياة، حتى وهى تتوقف عند ظلالها الداكنة، فى نفس الوقت تقيم منظومة من علاقة الزهد التى تحفظ بنية المرأة سواء داخل الأسرة ضد المحن والعواصف، وتقاوم الوحشة بالتواصل بعد مضى السنوات الطوال مع ذكرياتها الزوجية، وفى نفس الوقت تفتح الكرتونة التى سمتها الكاتبة فى دلالة رائعة - وثيقة ضمان ضد الموت - وهى تحتوى على كفنها، لأن هذه المنظومة الاجتماعية وما تعكسه على تشكيل الذات من إيمان صارم بأن الموت هو النهاية الحتمية لكل صور الحياة، فتحولت حالة إعداد الكفن هذه علامة استعداد دائم لهذه النهاية الحتمية - وانعتاق مرتقب من قبضة الفقر التى ربما تخون، حتى فى تلك اللحظة مثلما تخون فى كثير من المواقف العصيبة فى الحياة.

ومن الشاعرية تنتقل الأديبة (نعمات البحيرى) إلى تصورها الفلسفى لزاوية أخرى من زوايا تناول معاناة المرأة، من خلال قصة تحتوى فى دلالتها الحياة بداية من عنوانها (الحبل السرى) وكل ما يتعلق به مصير الإنسان على هذه الأرض - رجل وامرأة - عبر العلاقات المتشعبة، وقد تجسد تصور

تعتمد الكاتبة على التأمل والرصد عبر ذات متقفة، وهى بوعيها المتوقد ترى الحياة وفق منظورها هذا، لكنها فى نفس الوقت لا تقمع الحياة وهى تدينها



الكاتبة عبر هذا النموذج النسوى، وهى تلك المدرسة الواقفة فى الممر المعتم بظلها الحزين بعدما انقطع حبلها فى مدلوله المادى المباشر مع زوجها بالطلاق، لأنها لم تنجب ولم تفلح كل محاولاتها فى التكيف والقبول بما لم تكن ترضاه. فانتهت بحرمانها من حياتها الطبيعية فى بيت جميل أنيق دافئ بجوار الرجل الذى أحبته.. (كنت أوقن أن العالم حولى يرزح تحت فيض من كوارث ونكبات، كما أوقن أنى ولا فخر جزء لا يستهان به من هذا العالم وهو إحساس خاص بى داخل حركة الأيام والحياة، لذا فقد أسلمت حزنى للريح ومثل السنابل المتمايلة أحنيت رأسى للعاصفة وقلت للمرأة التى تشبهنى وعبرت الممر المعتم بعد الطلاق عشت فى غرفة صغيرة بأحد البلوكات التى تمنحها الحكومة للذين تتهدم بيوتهم وقت الزلازل والسيول والكوارث الكبرى. ثم عدت إلى عملى كموظفة مثل بعض نساء الأرض، وصار من الضرورى أن أفتح نافذتى للنهار الحتمى الذى سيطلع عاجلاً أم آجلاً. دقة الصباح الممزوج بصياح ووجود الأطفال يثير أشجانى).

وهو نفس الحبل السرى المعنوى الذى أزال من حلقها بمرور الوقت مرارة ذلك النطر، لأنها تنتصر بالصبر على المحن حتى تمر، وقد تأججت داخلها المشاعر الإنسانية تجاه هؤلاء الأطفال البؤساء، الذين لا يكفون كل يوم عن الإقبال عليها مثل الفراشات النحيلة - (وفى عودتى تلقانى نفس الوجوه الشاحبة والنحيلة والمتسخة، لتزفنى فى موكب جليل حتى باب غرفتى، موكب من جماجم، لا تنصرف إلا بباكوات الشمتاع التى أحرص على شرائها من أجلها). وقد كان واحد منهم يمكن أن ينقذها فيحقق لها الحلم الفسيولوجى ولا يقطع حبل الحلم مع الزوج والبيت.

وفى معايشتها للحالة تستدعى الكاتبة من وعيها وخشية بوكاسا أكل لحوم البشر، فيسيطر عليها ارتياح بأنه فى صوره الممتدة فى الحياة قد يأتف من أكل هؤلاء الأطفال، لأنه كان يحب - الأطفال الملظلظة - والأصح - الملظلظين - وإن كانت الكاتبة تستخدم اللفظ الدارج على ألسنة العامة، وكأن هؤلاء هم خيط الأمل الذى يربطها بالحياة، رغم أن القسوة والوحشية ظلت هى الرجل ذلك النموذج الذى أفرزته تلك الظروف الاجتماعية، فى حين أن هذا القاسى المتوحش هو أيضاً الحبيب والزوج ومركز الحركة نحو الأفضل داخل الأسرة، حتى إن حنين الأمومة تحول عندها إلى حنين طفولى تمارس من خلاله الطقس العبثى، وتتناول الطعام بطريقة الأطفال، وهو ما فعلته مع شيرين بنت جارتها. كان هذه اللحظات تعطيها قدرة خاصة على اقتلاع ذلك النطر وتجاوز مرارته. لكن طوفان البؤس الذى يتدافع مع هؤلاء الأطفال يدفع إلى طيور فطر غريب ينمو فى موضع قريب من عقلها، فيملأها بالفزع والخوف، وهى لمحة فنية تنبه المجتمع إلى سرعة تدارك الخطر قبل أن يطال زهوره، ولا يزال حنين الأمومة المفتقد يلازمها فى إيقاع تعادلى لتأملاتها للكائنات البشرية والحيوانية، هذا الحنين عاشته مع صديقتها فاتن وابنيها مروان وعمر وهى تقوم بإطعامهم والطقوس التى تمارسها معهم.. (كنت أطرب إذ يتناغم صوت الطفلين مع حركة الملعقة فى الطبق الصينى المنقوش بزهور)، كذلك «فلة» كلبة عم جابر التى أنجبت خمسة جراء وهى تراقب فلة تلعق صغارها فأخذها المشهد لتنتقى لها بقايا الطعام بل وتحاور عم جابر حول أسماء الكلاب.

لقد برعت الكاتبة (نعمات البحيرى) ليس فى إقامة بيئة تصويرية لهذه القصة، لكنها استغرقت فى الإمساك بالتفاصيل الصغيرة لتشكل لقطات فنية دالة بالغة الدقة والتأثير، متصلة ظاهرياً بلغة رقيقة معبرة. بل إنها غاصت داخلياً عبر تحليل نفسى واستقراء التحولات داخل الشخصية، وما تعكسه هذه التحولات من ظلال تؤثر على مسارها وسلوكها، كما أن العلاقة النفسية والجمالية بين - الحبل السرى - كعنوان دال ومضمون القصة الذى تحلقت الكاتبة حوله من زاوية إنسانية جمالية، فأقامت حالة قصصية جمعت بين الإحكام الإبداعى والتأثير النفسى.

وعبر الذكريات التى تعتمد (نعمات البحيرى) عليها فى تشكيل عمق البناء القصصى، تتذكر البطلة تلك العقدة التى نشأت داخلها نتيجة لذلك التمييز غير المبرر الذى خص الأب به الأخ دون الأخت، فحين جاء الولد أقام له حفلاً بالطبل البلدى فى السبوع، بينما لم يفعل ذلك لأخته التى جاءت قبله.. (وتزاحم الرجال والنساء والأطفال وظلوا يتحركون فى البيت وأنا أتدافع بجوار سيقانهم، حتى أدركت باب جارتنا الطيبة، فأسكتت بكائى وسيل مخاطى بجزرة حمراء، وحين انتهيت من أكلها كنت قد شعرت بأننى كائن فائض عن الحاجة، فكرهت أبى كرهاً شديداً).

يمتد القهر إلى ابنة الأخ الذى يمارس مع زوجته ديمقراطية مصطنعة، فابنته سارة بدأت تكرر شكاواها من القلق والاغتراب الذى بدأ يحاصرها فى بيت أبيها، هذا التتابع الراصد تمزجه الكاتبة فى براعة وحساسية بين الدراما والشاعرية، فى إطار هذا الموروث من الأحزان والأشجان لمواجهة الآلية الاجتماعية والثقافية التى استسلمت لتسيد هذه الأحادية المخلة، والتى شكلت ثقافة ذكورية لا تقل إلا منهج السيطرة المعكوس.

ولأن الأديبة (نعمات البحيرى) تواصل اكتشاف ذات المرأة، فقد حشدت كل قدراتها بعدما أصبحت قضيتها الإبداعية والإنسانية، فتحولت بدافعية الذات الأصل إلى نبع فياض يتدفق معها ويلازمها حتى فى كتابتها للمقال، حيث نقلت عبره صوراً واقعية لذلك النموذج المحاصر بالقسوة والوحشية والاغتراب، سواء على المستوى العام أو الخاص، ومضى معها كذلك إلى الرواية التى بحثت فى باكورتها (أشجار قليلة عند المنحنى) عن الرومانسية الإنسانية الضائعة بين المادة والروح، هذه الثنائية ناقشتها الكاتبة كقضية وجود جوهرى، فالمادة تتمثل فى الوطن بامتداده الواقعى والدلالى، الذى يؤكد ذلك الوجود من خلال الروح، التى تعانى من صراع الاغتراب والانتماء على مستوى الفهم والشعور، عبر رؤية تواصل التأكيد على أن صحراء الروح أخطر بكثير من صحراء الجغرافيا التى تحاصر الإنسان العربى، فتتساءل الكاتبة بعذوبة شجية فى معنى الاغتراب - هل هو اغتراب الجسد عن المكان المسمى بالوطن، أم هى اغتراب الروح عن موطن العشق الإنسانى؟ - هو سؤال طرحته أشجان المصرى بطلة الرواية - ولاحظ الاسم - من أول سردها للحكاية من المفتتح وحتى النهاية.

عاشت أشجان مرحلة من حياتها فى حالة فقدان توازن، وهى لا تعرف كيف ولماذا عاشت هذه المرحلة على هذا النحو.. (الحكاية أننى عشت هذه الحياة ولم أفهم جيداً لماذا حدث ما حدث ولماذا كنت تلك المرأة التى كنتها، ولماذا كان هو ذلك الرجل الذى كان؟.. أحياناً تبدو الحكاية كلها مثل كرة من الصوف، فكها طفل على امتداد الخيوط، وحين جمعها مرة واحدة، صارت شديدة التقاطع والتداخل والتعقيد).

لهذا رأت أشجان أن تجلس بعيداً لتفك الخيوط عن بعضها واحداً واحداً، فربما فهمت وربما فهم ذلك الرجل وربما فهم الآخرون، وهى لا تناقش علاقتها بعالمها عن بعد، بل إنها تكتشف وتصحح وتواجه وهى داخل السياق، وهو ما يعنى أننا أمام منظومة سردية تطلق فيها الذات لنفسها العنان وهى تبوح بكل التفاصيل التى وضعتها فى ذلك الموقف الحائر، والذى تداعى عليها بالصدمات والأحزان والإحباطات لتجسد الكاتبة بذلك الوجه الآخر لقهر المرأة.. (حين تزوجت «عائد» كنت أرغب فى جغرافيا وتاريخ آخرين ليشر هذه المساحة الممتدة بامتداد الحلم. يخفف من وطأة الصحراء هذا الميل الحاد للطائرة إلى الجانب الأيمن حين أنزلت الستائر. كان بإمكاننا أن نقلل صحراء الروح التى أقامتها أبى ممتدة بينى وبين الرجال منذ جئت إلى الدنيا. كنت أطمح أن يرخم «عائدى» حكام الصورة الضارية فى أبعاد الروح والعين والقلب، غير أن نطاقاً صحراوياً امتد ليشمل كل شىء).

ورغم أنها أمضت هذه المرحلة من حياتها إلا أن هذه المنظومة الروائية علقت السؤال دون إجابة محددة، تقطع ولو بيقين نسوى يطوف فى عالم المبالغة، لكنها بوعى فنى عال سردت ما سردت وتركت للمتلقى فرصة أن يتأمل ويعمل عقله ويحدد إجابة، لأنه سؤال إنسانى مجرد من خلال تجربة ذاتية، لكنها جزء أصيل من هذه الحياة التى جرت فى سياقها الوقائع.

تحتوى رواية (أشجار قليلة عند المنحنى) الصادرة عن سلسلة روايات الهلال (ديسمبر عام ٢٠٠٠) على ثلاثة عشر فصلاً تمتد بامتداد الأحداث وتقصر وفقاً للضرورة الفنية، وتبدأ بهذا المفتتح المهم، والذى يمسك بجوهر النص ليدفع بالمتلقى إلى الدخول فى المتن مع تفاصيل الحكاية، وقد انطلقت الأحداث من الحركة الدرامية فى تشكيل سينمائى، فأشجان هاربة من زوجها وفق ما تداعت به الأحداث، وتحتاج لمن يساعدها، وقد دفعها السائق المصرى الذى كان يقود بها تلك السيارة الرديئة التى تشبه عربات الكارو، وتسير على عجل يتحرك بدون حماس لكى تحكى له حتى يعينها على الفرار من مدينة الحزن والحر والحرب وأشياء كثيرة تبدأ بحرف الحاء، فقد تحول هذا السائق إلى صورة للوطن الغائب أو المبعدة هى عنه بنفس فعل القهر الذى يقع على المرأة العربية فى كل مكان وفى كل بلد.

عالم نعمات البحيري

تفر أشجان من الحرب التي امتدت بين العراق وإيران، وقد تركت آثارها على نفوس البشر وسريت إليهم حالة عصبية تتجاوز ما هو مألوف في الحياة اليومية، لدرجة أنها تدفع الإنسان إلى الهروب السلبي داخل ذاته، واللجوء إلى صور احتجاج تنال منه أكثر مما تؤثر في ذلك الواقع المنقسم على نفسه، وبالتالي تنقطع علاقاته الحسية مع حتى أقرب الناس إليه، وهو ما فعله زوج أشجان وهو يتصور أنه بذلك يهرب من هزيمته مع الواقع، دون أن يدري أنه يوقع الهزيمة القاسية بنفسه وزوجته.

والمفارقة هنا في حالة الهروب إلى الذات الأصل تجسيداً لصورة معتمة في واقعيتها وموضوعيتها، أن أشجان وصل بها الحال بعد أن استحالت الحياة مع زوجها الذي تجسد صورة باهتة لذات متصدعة البنية تكرست داخلها ديكتاتورية حتى أقامت حالة أسطورية للخوف، وهي ما بدت واضحة فيما حدث من الجدل المتصاعد حول صفحة الجريدة التي سقطت في ماء الحمام وعليها صورة الرئيس، وحالة الفزع التي أصابت زوجها ثم تحول تصوره الوهمي بإمكانية رؤية أجهزة الأمن وتعقبهم لكل همسة وسكنة إلى حقيقة، حين وجدت أشجان رجال هذه الأجهزة ينتشرون في كل مكان بالشقة بعدما كانت قد رتبتها وجملتها. وحتى نهاية ذلك بفصل الزوج من الصحيفة التي يعمل بها إلى الهروب أو العودة إلى مصريتها، ففرت إلى عالم ظلت تبحث له عن صورة أفضل في احتجاجاتها على ما يفرضه على المرأة بشكل مباشر كأنثى، أو بشكل غير مباشر من خلال وصايته الاجتماعية في عمومها، أي أنها تفر بذاتها من صورة لم يستطع زوجها أن يقيم لها برواز الحلم والاستقرار، إلى صورة ما تزال في نظرها بلا برواز، أي أنه هروب من الحزن إلى الحزن، ومن الشجن إلى شجن مماثل.. (وها أنا أعود بقلب ينطوي على بعض الثقوب وكثير من المرارة ولفيف من أشباح الحزن وتهاويم الذكرى الحمقاء. حتما سأحاول أن أرمم ما انكسر، سأرد نفسي إلى عالمي البسيط الهادئ، كامرأة حالمة لم تزل، رغم المرارة وحمق النوايا الحسنة).

لكن الهوية المصرية حتى في بعدها المعنوي تحولت إلى القشة التي تتعلق بها الغريقة - أشجان المصري - بامتداد أحداث الرواية التي تدفق نصها عبر الذكريات، بداية من مشهد لهفة الانتظار بفستان الزفاف في المطار الذي استحضرته كهاجس للأمس المعلق في أحبال المجازفة واستعجال الإجراءات، حتى تحط الطائرة في مطار العراق وتلحق بعريسها الذي ترى فيه حلمها. إلى النهاية التي راهنت فيها أشجان على النجاة بنفسها من هوله، باعتبار أن الموت قد يكون هو الخلاص الأفضل منه.. (ظلت مرارة الغربة طوال فترة زواجي منه مثل جرح ينزف طوال الوقت، حضرة واطئة في الروح، تتعمق بأحاسيس الشجن والحنين إذا ما سمعت أغنية مصرية أو رأيت وجهاً مصرياً. الغريب أنهم كانوا يعمقون من إحساسي بالغربة، أغلبهم من فئات العمالة الرخيصة في كل المهن.. زبالون وحمالون وسائقون وماسحو أحذية وباعة ثابتون وجائلون، كان من الممكن أن استأنس بكل هذه الوجوه لولا غيرة عاقد، وأحراش سوء الفهم والتقدير التي دخلناها معاً).

في إطار النظر لذات المرأة بين الأصل والصورة وما ينتج عنها من امتدادات تخيلية مقحمة عليها، أو تحريف بعض زوايا الصورة من أجل قطع الوضوح في علاقة الأصل بالصورة، نجد أن تجربة الأديبة (نعمات البحيري) الإبداعية في مجال القصة والرواية تعكس التأكيد على أن الكاتبة قد وجدت ضالتها في جعل الذات مركز العالم والمرجع الذي تقيم عليه معيارية النظر للحياة في تفاصيلها المختلفة.

والذات هنا ذات امرأة لاذت بها الكاتبة بتجاربها في الواقع، فتوحدتا لحد الامتزاج، كأن كل منها كانت تبحث عن الأخرى في هذه التيه المترامي، وقد خرجت الذات الأصل من شخصها نيتها الضيقة، إلى الانفجار بكل الهموم التي تلازم المرأة كإنسانة وكأنثى وكأم.. إلخ، وهو ما تشي به إصدارات (نعمات البحيري) منذ عام ١٩٨٤ بداية من مجموعة (نصف امرأة) مروراً بـ (العاشقون) و(ضلع أعوج) و(ارتحالات اللؤلؤ) وانتهاء برواية (أشجار قليلة عند المنحنى) حتى الأعمال التي لم تصدر بعد مثل مجموعة (مدن الطاعة) أو شاي القمر وروايتي (خيط حرير) و(مدينة النساء).

إنه عالم إبداعي تجسدت فيه ذات المرأة في كل صراعاتها سواء مع شريكها الرجل، سعياً لتصحيح شكل العلاقة معه ومع الحياة، رغبة في الوصول فيها إلى مكان ومكانة تستطيع عبرها أن تكون حرة الحركة وقادرة على العطاء والإبداع. ※

نعمات البحيري .. هذه الشجاعة النبيلة

بثينة الناصري

※※ وأنا أقلب كتاب نعمات البحيري الجديد «يوميات امرأة مشعة» الصادر عن مكتبة الأسرة، وقبل أن أخطو خطواتي الأولى في مدارجه: أجدني محاصرة بجدران عنيدة:

على الغلاف وصف العمل بأنه «رواية» في حين أنه كما يقول عنوانه: يوميات، واليوميات هي شكل من أشكال الإبداع الأدبي المتعارف عليها ولا ينقص من قيمة العمل أن نقول إنه ليس في خانة الرواية. الجدار الثاني والثالث والرابع: توطئة - تقديم - مفتتح. علينا أن نزيح أو نتفادى كل هذه العقبات قبل أن ندخل مباشرة إلى رأس نعمات لنقرأه.

كما يتصدر الكتاب إهداء خاطئ وجهته نعمات «إلى كل الذين امتدت أياديهم البيضاء لتجدني من بين مخالب الوحش»، وكان يجب أن يهدي الكتاب إلى نعمات ذاتها لأنها هي التي قامت بعملية إنقاذنا من أوهامنا ومخاوفنا وضعفنا. فكما ترنح بطل كافكا على خشبة المسرح بعد أن أصيب بجرح قاتل، كما تقتبس نعمات من كافكا، تترنح بطلتنا في فصول يومياتها بين التموجات البنفسجية والطابق الخامس وحالات الاستعداد

يوميات امرأة مشعة
نعمات البحيري
القاهرة - مكتبة الأسرة

القصوى ومراثي صدرها والأيام المغايرة والأحلام واللغات المستحيلة والوجوه الغائمة وأمها ورجل الأمن ويوسف والولد بعرية وحمارين والألم مرة أخرى والتحاليل والحنان الرسمي وبيانها الأخير ضد الموت.

ونحن نتابع بلهفة وقلق وخوف وارتياح أحياناً، تجد المفارقة في أن ترنح نعمات بين الرجاء واليأس والمقاومة والإحباط، يصلب عودنا ويجعلنا - ربما لأول مرة - ننظر في عيني الوحش ونسميه باسمه دون أن نشيح بوجوهنا فزعاً. يوميات نعمات البحيري.. المرأة المشعة التي واجهت الوحش وقطعت أشلاءه في فصول كتابها - أول نص عربي درامي أقرأه تقتل الوحش الأسطوري وهو ينمو في داخلنا وليس قادماً من خلف ضباب رمادي أو منبثقاً من بحيرة غامضة أو من تحت الصخور أو هابطاً من كوكب مجهول. تعرفون أن أهم ما يثير غضبنا - نحن النساء الكاتبات - أن ينظر القراء الرجال (وأحياناً النساء أيضاً) إلى قصصنا ورواياتنا باعتبارها يومياتنا الحقيقية، وهم يتتبعون سطورنا بعين المخبر، ويمتعض أزواجنا أو أولادنا أو آباؤنا وحتى أمهاتنا ويشعرون بالخزي إذا تطرقت الكاتبة للمحظورات الاجتماعية. ولهذا فالكاتبة - في جيلي على الأقل - كانت في حالة دفاع عما تكتبه، منكرة القراء دائماً أن هذه الرواية أو هذه القصة هي محض خيال.

وهكذا كانت «يوميات» نعمات فتحاً شجاعاً، حيث لم تكتف الكاتبة بسرد أدق ما جرى لها وإنما استخدمت نفس الأسماء الحقيقية لأبطالها الواقعيين، وهكذا نجد بين طيات الكتاب صديقاتنا المشتركات الرائعات: وفاء حلمي وهالة البدري وسهام بيومي وشوقية الكردي وأخريات وآخرين: أشقاءها وجيرانها وأصحابها. وهي في اطلاعنا على عوالمها القديمة والجديدة من ذكريات طفولتها إلى حاضرها.. وقفت أمامنا - إذا جاز القول - عارية من كل الأقنعة. ولهذا لا يحتاج القارئ الفضولي أن يتشكك في أن الكاتبة هي بطلة اليوميات، فهي تقف أمامه لتقول بتحد: لا تتعب نفسك.. أنا هي!

لم تكن هذه الشجاعة هي الفتح الوحيد للكاتبة. فمن يتصفح اليوميات يجد شيئاً عجيباً ورائعاً يحدث له: فكأن نعمات هي الطبيب المعالج ونحن المرضى. وحين تغلق الكتاب على آخر كلماتها، تجد نفسك تتساءل: الله.. هل مقارعة السرطان بهذه السهولة إذن؟ علام كان خوفنا الدائم منه؟.

ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة بالتأكيد، فقد كانت تجربة الكاتبة التي نقلتها إلينا بكل تفاصيلها المريرة، مصهورة بالنار ومغموسة بالألم. ومع ذلك فهي تأخذ بيدنا الآن كما تأخذ الأم بيد طفلها المرتعش لتجول به داخل أرجاء غرفة مظلمة لتريه أن لا شيء يستدعي الخوف.. لا وجود للوحش في الغرفة: فقد قتلته، ولا تترك طفلها إلا بعد أن يألف المكان. هكذا تدخل بنا خطوة خطوة في تلافيف روحها ونبض ألمها ومسرى شرايينها وتأرجحها بين اليقين والشك حتى نجد أنفسنا أخيراً جزءاً لا يتجزأ من انتصارها الأخير.. الانتصار على النفس، الانتصار على الخوف.. الانتصار على الضعف.. والانتصار على قناعات كثيرة كنا نعيش في وهمها، وكأن بيانها الأخير ضد الموت كان صرخة انتصار باسمنا. هل قصدت نعمات البحيري أن تفعل هذا بنا؟ لا أستطيع أن أتكهن بالجواب ولكن الأكيد أنها كتبت يومياتها بصدق، والصدق هو كلمة السر للنفاذ إلى وجدان المتلقي. ※

العرب في برلين

■ ■ تمثل هذه الدراسة عرضا مرحليا لتاريخ العرب ببرلين منذ القدم من عام ٩٠٠ م إلى العصر الحديث مرورا بالحربين العالميتين، واتحاد الألمانيتين.

أول العرب الذين قدموا إلى برلين هو إبراهيم بن يعقوب اليهودي الأصل، كانت زيارته وقتها في عهد الحكم الثاني ملك الأندلس، وهي زيارة دبلوماسية إلى بلاط الملك الألماني Otto الأول، وتجارية تهمه كفرد. وقد امتدت أواصر العلاقات السياسية والاقتصادية بين الدولتين كتبادل متزن لا سيما في عهد السلطان الحكم الثالث. إن تمثيل إبراهيم بن يعقوب لبلاط الأندلس في أوروبا هو إشارة واضحة للتسامح والانسجام السلمي بين الأجناس في عهود الملوك العرب كالحاكم الثاني. تجول إبراهيم بن يعقوب في رحلاته من فرنسا إلى هولندا وبلجيكا ومن ثم إلى برلين وبولندا. فسجل هذا الدبلوماسي ورجل الأعمال مذكرات ختم جزءا منها بوصف براندنبورغ. انصرمت مئات الأعوام، قرابة ٩٠٠ سنة، بعد هذه الزيارة دون أن يذكر للعرب . على وجه الدقة . رحلة جديدة الى برلين. إلى أن أطلت الإمبراطورية العثمانية، مثابرة بتحديها للغرب، فكانت تجهز وترسل البعثات التعليمية إلى أوروبا لتلقي العلوم لا سيما العسكرية منها لأجل تأهيلها على البقاء كقوة عالمية منافسة لإمبراطوريات ذلك العهد. وقتئذ اشتهر محمد علي باشا حاكم مصر بحبه للعلم وبعثه للطلاب وراء الحدود للتحصيل العلمي، والتقني ودراسة اللغات والعلوم العسكرية. إلا أن ألمانيا لم تحظ باهتمامه فكان يوفد المبعوثين إلى فرنسا وإنجلترا، على النقيض من عباس الأول الذي بعث في عام ١٨٤٩ طلبة لدراسة الطب في ميونخ جنوب ألمانيا . وإلى برلين قدم أول سبعة طلاب مصريين في عام ١٨٥٣ م، كان من بينهم حامد أمين، الذي سرح من وظيفته من قبل الإنجليز لاشتراكه في ثورة أحمد عرابي. توالت رحلات الرحالة فيما بعد إلى برلين، غير أن كتاباتهم كانت كتقارير خاطفة باستثناء سالم بطرس اللبناني الأصل، الذي زار برلين في عام ١٨٥٥ ضمن رحلاته إلى فرنسا، والنمسا والمجر، فكان بذلك ثاني رحالة متمرس بعد إبراهيم بن يعقوب، كتب بموضوعية عن برلين بالرغم من إعجابه بها

ووصفه لقصر Wilhelm الأول، والحدائق العامة إلا أنه كان يفضل مدينة Potsdamm على برلين كما يبدو في وصفه. تمثل القيصرية في ألمانيا في القرن التاسع عشر عهد تحد، واستكشاف لأصقاع العالم، وحروب داخلية مع دول الجوار لا سيما مع فرنسا عام ١٨٧٠، التي كان ضمن صفوف جنودها الجنود الجزائريون، الأمر الذي أثار انتباه الأديب أحمد فارس الشدياق لكتابة كتاب بمؤازرتهم نشر عام ١٨٧٢ في أسطنبول. وكأسرى حرب اقتيد بعض هؤلاء الجنود إلى ألمانيا، حيث يسمق إلى اليوم نصب تذكاري لهم بمقبرة Carnison البرلينية.

على مدى ٤٠ عاما في الفترة من ١٨٧٥ . ١٩١٥ م توالت هجرات العرب من رحالة، وأساتذة لغات إلى برلين، فكان صالح نخلة امتدادا لبطرس في وصفه لبرلين، كما أنه تميز عن سابقه بوصف المعابد اليهودية وغيرها من المنشآت حتى أنه خضع تحت وطأة الوصف إلى تسمية برلين بأجمل مدن العالم.

رغم عمارة هذه المدينة كان يستغرب نخلة من قلة سكانها . الأمر الذي نفاه من بعده أمين بكري، إذ وصف برلين بثالث أضخم مدن أوروبا، رغم أن تعداد سكانها لم يتجاوز المليون ونصف المليون نسمة . اهتم أمين بكري بوصف المنشآت التقنية لا سيما القطارات، وشبكة المواصلات بشكل عام. تحولت مرحلة الرحلات إلى انفتاح بين الشعوب والتعرف على المنظومات الاجتماعية واللغات في فترة أطول من سابقتها.

استوطن حسن توفيق ببرلين ونشر كتبا عنها بالقاهرة، وعين كمحاضر للغة (العربية باللهجة المصرية) بمعهد اللغات الشرقية sos التابع لـ Friedrich .W وهو اليوم جامعة Humboldt، التي أسست في بادئ الأمر لتدريس اللغات الشرقية : العربية، التركية والهندية إلى جانب اللغة الصينية، كهدف استعماري للتعرف على بيئة ومنظومة المجتمعات تلك. وبتقدم الأعوام تحول هذا التوجه الاستعماري إلى غاية تعليمية، وثقافية تصبو إلى تداخل الثقافات، وتقريب المجتمعات.

من الأسماء التي اشتهرت في تدريس اللغة العربية والترجمة : حسن توفيق، أمين مريص، ومحمد بو سلحام، وغيرهم.

ومن المراحل اللافتة للنظر، والمأساوية في تاريخ العرب ببرلين الموشحة ببشاعة الاستعمار والرحلات الاستكشافية في الشرق عرض العرب والأفارقة وغيرهم من الجنسيات الأخرى في Zoologischer Garten وراء واجهات زجاجية، كأي معروضات للتفرج عليها، والتمعن في تفاصيلها.

أحضر Heinrich Moller تاجر الحيوانات، العملاق المصري حسن علي (٢.٤٠ متر) من واحة سيوة في إحدى رحلاته ليعرض أمام الجمهور الألماني والمارة. فكان يكره على الوقوف للتفرج على قامته الضخمة، ويستغربه من هيئته. عاني حسن ما عاني من حبس في غرفة ضيقة، وإكراه واتهام بالكسل، وهو في حقيقة الأمر. كان مريضا للغاية بالتهاب الرئة، العظام، تورم المفاصل. كان الألمان وقتها يقيمون العلاقة بالعرب وفق منظور ملتبس، حينا يرون فيهم التخلف والتملق، وحينا آخر يعجبون بحضارتهم أيما إعجاب.

لم يصمت مصطفى كامل، الذي كان وقتها ببرلين، عن الأذى الذي كان يحيق بالمصريين والعرب عموما، فنادى علنا في الصحف «الألمانية » بأن أبناء موطنه ليسوا سلعة تعرض، ولا هم بحاشية مستسلمة. إلى جانب مهمته الاجتماعية هذه أخذ مصطفى كامل يدعو في خطابه السياسي إلى استقلال مصر من ربقة الاستعمار الإنجليزي وناشد القيصر الألماني بمشاركة ألمانيا لدعم مصر للتخلص من أكبال الاستعمار. دعا مصطفى كامل من قبل بباريس إلى تحرير مصر بمؤازرة الفرنسيين إلا أن دعوته لم تجد صدى إلى أن توفي عام ١٩٠٨ . كان «مصطفى كامل» يؤمن بما جاء في خطبة Wilhelm الثاني بدمشق عندما قال «بأن ألمانيا ستظل في كل عهد قيصريته . صديقة للعرب».

رغم اعتقاد الألمان وقتها، بأن وقوف ألمانيا في وجه الإنجليز لا يعني بالدرجة الأولى مصلحة مصر، مثلما يعني مصلحتها كاستعمار بديل، وتمكين وتأمين مصالحها إلا أن وجهة نظرهم السائدة كانت تعتقد في أن مصر «قضية داخلية» تخص إنجلترا. فرد مصطفى كامل قائلا «بأن مصر قضية عالمية ....». وواصل محمد لبيب محرم، الذي تزوج سيدة ألمانية، كفاح صديقه مصطفى كامل، فظل يدعو إلى اشتراك الحلف الألماني . العثماني، لا سيما الحلف الأول منهما لتحرير مصر. في دعوته هذه استقطب محمد لبيب محرم الطلبة المصريين في برلين، وكون أول تجمع / تنظيم عربي في ألمانيا . في عام ١٩١٣ توفي هذا الثائر. وعقب وفاته نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥ دعا السلطان العثماني إلى توحيد صفوف المسلمين والعرب للوقوف ضد الاستعمار الإنجليزي، وتشجيع ما يسمى بالقمة الوسطى ألمانيا / روسيا / النمسا للتدخل من أجل تحرير الشرق المسلم، كان في ذلك سانحة ذهبية لممثلي التنظيمات السياسية لا سيما من دول المغرب العربي المستعمر، فقدموا من تركيا وسويسرا إلى برلين للانضمام إلى تنظيم برلين . ارتسم مصطلح الحرب المقدسة / الجهاد كمعلم مميز، حينما نادى به منصور رفعت عام ١٩١٤، بعد أن طرد من سويسرا لنشاطه الوطني السياسي المتطرف، إذ كان يدعو وقتها إلى تحرير مصر بعيدا عن تدخل أي قوة خارجية، لأن أبناء مصر كفيلون وحدهم بتحرير موطنهم من ربقة الاستعمار الإنجليزي. بمثل هذه الآراء حفلت الصحافة الألمانية وقتها، بل ودعا منصور رفعت في حديثه مع الدبلوماسيين الألمان إلى زحف ألمانيا إلى قناة السويس لمؤازرة المصريين . كتب ذلك في الصحف الألمانية وأذيع في الأنباء، وفي احتفال بفندق Adlon ببرلين بمناسبة تأسيس جمعية مصرية وطنية، على صعيد آخر دعا عبد العزيز جاويش إلى موقف سياسي مغاير ينشد

أحضر Heinrich Moller
تاجر الحيوانات، العملاق المصرى
حسن علي (٢,٤٠ متر) من واحة سيوة
في إحدى رحلاته ليعرض أمام
الجمهور الألماني والمارة

Araber in Berlin
(العرب في برلين)
Frank Gesemann
Gerhard Hopp

هارون الصويص

وقوف الألمان والعثمانيين لتحرير مصر، كما أنه أنشأ مع رفاقه صحيفة «العالم الإسلامي»، التي كانت تحرر في برلين، وتصبو إلى كسب الألمان كصديق للإسلام. احتفل بهذه المناسبة في فندق Esplander ببرلين. انضم إلى هذا التوجه السياسي الشيخ صالح الشريف التونسي، ومحمد باشا نجل البطل عبد القادر الجزائري، وأفراد آخرون. اتسعت الدعوة إلى تحرير مصر لتشمل دول المغرب العربي وليبيا والسودان. لكي لا يتعلق زمام الأمر الداخلي ببرلين في يد السلطة الألمانية، وظفت القيصرية الألمانية مكتب أنباء الشرق Nfo ومعهد اللغات الشرقية SOS وشخصيات ألمانية مثل Moffenheim وعربا من المغرب العربي المستعمر لمراقبة وتقييم المعلومات والأنباء والترجمات والمخطوطات.

وفقد السياسيون العرب، وتنظيماتهم ببرلين، الآمال في التعاون، والمصلحة المشتركة مع الحلف العثماني الألماني، بعد أن خسر هذا الحلف حرب قناة السويس في عام ١٩١٦. ظل منصور رفعت وصالح الشريف التونسي على ولائهم للحلف السابق، واحتدت مطالبهم تجاهه، حيث طالب منصور رفعت، الذي كان يرأس «منتدى الوطنيين المصريين» في صحيفة «vossischer» بتدخل القيصرية الألمانية لنع تنصيب الأسر العثمانية المالكة على عرش مصر من جديد، لأنها، وفقا لنظره، هي السبب الحقيقي لتأخر وجهل الشعوب العربية المستعمرة من قبلهم. وجد هذا الرأي قبولا، وتأييدا من محمد فريد الذي خلف مصطفى كامل في زعامة الحزب، وكان وقتها (عام ١٩١٧) في برلين، بعد أن قدم من المنفى السويسري، فكتب في صحيفة «الهلال» بأنه في حال انتصار مصر، بمؤازرة القمة الوسطى، ستتعهد بالواجبات، والمصالح المشتركة بين الجهتين. أثنى الأمير شكيب أرسلان على هذا التصريح وطالب العثمانيين بالتوقف عن ملاحقة السياسيين العرب، في بلادهم وخارجها، وبمعاملة تليق بهم. حين انعقد مؤتمر الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية في أوسلو، تجمع العرب ببرلين بقيادة محمد فريد، وصالح شريف التونسي في مظاهرة ضخمة طالبوا فيها بحق تقرير المصير، الأمر الذي زاد قلق الحكومة الألمانية. لم يكتف محمد فريد بهذا التجمع، فبعث تلغرافا إلى الاتحاد السوفيتي حيث المؤتمر الاشتراكي المنعقد وقتها، وبعد عام أرسل إلى لينين نفسه مناشدا إياه بالتدخل لإجلاء الاستعمار الإنجليزي عن مصر. سدى كانت دعوة محمد فريد والتونسي عبر الصحف، والأوراق الطائرة، والمنشورات، لحث الألمان بالتحرك لمواجهة الاستعمار الإنجليزي. في عام ١٩٢٠ توفي التونسي في المنفى السويسري، وتوفي بعده صديقه محمد باشا الحمبا، الذي دفن في برلين، كما توفي قبله بعام محمد فريد، ودفن ٢٥٠ جنديا عربيا معتقلا بمعسكر الهلال، في مقبرة Zehrendorf في ضاحية Wünsdorf حيث المسجد العربي القديم.

الإعلام الموجه

بحلول العهد النازي عام ١٩٣٩ بألمانيا، انقطعت في البدء العلاقة الدبلوماسية بين ألمانيا وحكومات مصر والعراق، واستجوب العرب المقيمين ببرلين في مخابر البوليس، وكان من ضمن المستجوبين الأساتذة العاملون بمعهد «اللغات الشرقية» والمعاهد الإسلامية، والغرفة التجارية المصرية بألمانيا، التي كان يمثلها عزيز قطة، المقلد من قبل هتلر بـ «الصليب الفخري»، الذي شك في ولائه للنازية فيما بعد، فنفي إلى Tirol تحت رقابة العسكر.

صرح هتلر بأنه يجب استخدام العرب كأهداف سياسية لألمانيا، فأنشأ إذاعة ببرلين في مارس ١٩٤١، فكان يونس بحري العراقي يقوم بتقديم البرامج، واشتهر بتحيته «حي على العرب». كان ثمة عرب آخرون يعملون معه بهذه الإذاعة التي كانت تبث خارج ألمانيا، بباريس والمغرب واليونان وتشمل كلا من الأدب وموسيقى وآيات قرآنية. تولى مراقبة هذه الإذاعة قسم مراقبة البرامج المدعوم من الخارجية الألمانية، مستعينا ببعض الشخصيات العربية (كعبد الحليم النجار، ومحمد الصافي).

لم ينحصر عمل هؤلاء في مراقبة الإذاعة أعلاه، فكانوا أيضا يروجون لتوزيع المنشورات والدعاية الموجهة.

في Friedrich Str. أنشئت «وكالة أنباء الشرق» التي كانت تقيم بنشاطها الموجه المعلومات المبثوثة والمكتوبة، داخل ألمانيا وخارجها، حيث تفد المعلومات تلغرافيا من صوفيا واسطنبول. ترأس عفيف الطيبي هذه الوكالة، فيما أسند لـ جلال، رئاسة تحرير بريد الشرق. كان أغلب العرب الذين يشغلون القطاع الإعلامي الموجه لصالح ألمانيا، من الطلبة الوافدين من فرنسا وسوريا وفلسطين والعراق. بعد هزيمة حركة الكيلاني بالعراق كان يحلم هؤلاء بمؤازرة ألمانيا لتحرير مواطنهم المحتلة، بناء على تصريح في ديسمبر ١٩٤٠ بأن ألمانيا ستقف جنبا إلى جنب مع العرب لتحرير بلادهم.

كان هؤلاء الوافدون الجدد طبيعة عملهم «الاستخباري» في الإعلام الألماني، كحرب وثأر من الغرب الاستعماري، بعد أن ذهبت كارثة الحرب العالمية الأولى بآبائهم وأبناء مواطنهم.

بحلول الحرب العالمية الثانية، بارح معظم العرب والأجانب برلين إلا عوائل قلة، منها عائلة محمد سليمان. تميزت هذه العائلة بتغلبها وصمودها في وجه تقلبات النظم الألمانية، من قيصرية إلى جمهورية فايمر، والـ SS، واتحاد الألمانيتين، هذا إلى جانب الحربين العالميتين (الأولى والثانية). قدم محمد سليمان، كرجل أعمال إلى ألمانيا عام ١٩٠٠، واستطاع في الفترة بين ١٩١٥ - ١٩٢٣ أن يحظى بنجاح متميز في مسيرته كرجل أعمال، إذ كان يمتلك ملهى ليلي (كباريه) ومسرحا في الـ Kaisergalerie، تزوج محمد سليمان السيدة M. Westphal، وأنجب منها إناثا وذكورا، تزوجوا فيما بعد بشخصيات متميزة، أوروبية الثقافة والأصل، رغم اعتناق أفراد هذه العائلة للإسلام إلا أنهم ظلوا ينفتحون على المجتمعات الأجنبية، ويحتفلون بأعياد مسيحية، دونما تزمت أو إحساس بتنكر للإسلام. في عام ١٩٠٦ افتتح محمد سليمان سينما أفلام صامتة بـ Friedrichhain. كما أنه كان يملك إلى جانب السينما مسرحا بعد الحرب العالمية. أما أخوه عبد العزيز فافتتح مدرسة لتعليم الرقص بـ Kurfürstendamm في ثلاثينيات هذا القرن. بعد وفاة محمد سليمان المبكرة، كانت زوجته تدير عدة «سينمات» في كل الحقبات السياسية السابقة بألمانيا، إلى أن صودر جزء من منشآتهم في عهد حكومة ألمانيا الشرقية، وأفل عهد السينما الصامتة في الستينيات.

يمثل العرب إلى جانب الجالية التركية والبولندية أكبر جالية أجنبية ببرلين حاليا.

ينتمي أفراد الجالية العربية ببرلين إلى حضارة عربية واحدة، بمعتقدات دينية مختلفة على النقيض من أفراد الجالية التركية ببرلين، الذين قدموا إلى ألمانيا «كيد عاملة» بعد الحرب العالمية الثانية.

وفد معظم العرب إلى برلين كلاجئين، لا سيما من دول الشام، أما البقية منهم فللدراسة والتجارة أو بعقود عمل تجارية موقعة بين ألمانيا ودولهم كالمغاربة والتونسيين. يبلغ عدد العرب ببرلين حوالي ٣٥٠٠٠، من بينهم نخبة كالكتاب والصحفيين والفنانين والأطباء والباحثين والفرق الموسيقية والعازفين، هذا إلى جانب المنشآت (كالاتحادات الثقافية والاجتماعية والتجارية ودور الاستشارة للمواطنين واللاجئين، والمساجد والمطاعم، ودور النشر والطباعة والأندية الرياضية، ومراكز للمرأة والأطفال) التي تأسست في غضون إقامتهم ببرلين، وجزء منها أقامه الألمان كالمتحف المصري والنوبي والشرقي إذاعة عربية...

يمثل العرب إلى جانب الجالية التركية والبولندية أكبر جالية أجنبية ببرلين حاليا

مؤلفو الدراسة:

- بروفيسور هوب : Hopp أستاذ بكلية الاجتماع والعلوم الإسلامية بجامعتي برلين الحرة وهمبولدن.
- د/ جيزمان : باحث اجتماعي، مختص بهجرة الأجانب واستقطابهم في المجتمع الألماني.
- هارون الصويض : مدير القسم العربي بإذاعة الثقافات العديدة Multi Kulti ببرلين.

عرض:

أمير حمد (برلين)

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

عهد الشيطان

توفيق الحكيم

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١١٣صفحة



عُرف توفيق الحكيم بأنه أبو المسرح المصرى الحديث. وقد أبدع الحكيم كثيرا من الأعمال المسرحية الخالدة التى لم يكتب لها أن تمثل على خشبة المسرح، والتى اصطلح على تسميتها بالمسرح الذهنى، وهى تسمية لم تلق ترحيباً كبيرا بين المسرحيين الذين تساءلوا: كيف يكون المسرح ذهنياً، وكثيرون من الجيل الجديد لم يتح ليم الاطلاع على هذه الأعمال وغيرها، فقد نفدت ولم يعد طبعها، وهذه هى أهمية هذا المشروع الذى تضطلع به «دار الشروق» والذى يعيد نشر أعمال توفيق الحكيم جميعها المسرحية والقصصية.

وهذه المجموعة من القصص يسميها المؤلف القصص الفلسفية، لأنها تبحث فى الأسئلة الكبرى وإن بطريقة فنية، مرة من خلال السرد، وأخرى من خلال الحوار. فهو مرة يستعيد حكاية فاوست مع الشيطان، والمساومة التى جرت بينهما، أن يعطيه الشيطان الشباب ويأخذ نفسه، وتخيل نفسه يعيش اللحظة ذاتها ويساوم الشيطان، وكان موضوع المساومة هذه المرة هو المعرفة، فقد راح يلتهم الكتاب التهاماً وينهل من المعرفة فى كل الفروع، لكنه حين نظر فى المرآة هاله منظر التجاعيد فى وجهه، ودلالات الشيب التى رسمت خيوطاً واضحة حول عينيه وفوق جبهته وفى شعر رأسه، فما تمالك نفسه إلا أن صاح: الشباب الشباب، لقد أخذ الشباب.

وفى قصتيه «مع النوم» و«راديوم السعادة» يشير إلى أن الفنان يحتاج إلى قدر محدد من السعادة يعينه على الإبداع والعمل، فلا يجوز أن تصيبه تخمة من السعادة وإلا تعطلت ملكاته الإبداعية، ها هو الراوى يقول فى ختام «راديوم السعادة»: «عند ذاك فهمت أن السعادة التى تلزم لنا نحن الفنانين لنقوم بالأعمال الكبار ينبغى أن تكون بمقدار، مقدار صغير ثمين مثل الراديوم. فإذا انغمرنا فى حوض من هذه المادة السحرية فإنها تنقلب فى نظرنا ماء قراحاً لا فعل له ولا أثر».

وفى قصة «عدو إبليس» يتخيل حواراً يدور بين عزرائيل وإبليس فى أعقاب وفاة النبى محمد صلى الله عليه وسلم، وما بين سعادة إبليس بانقطاع الصلة بين السماء والأرض بوفاة خاتم الأنبياء، وحزن عزرائيل على رحيل النبى الكريم، يدور الحوار بين الاثنين عما سيكون عليه حال المسلمين بعد وفاة نبيهم، ويستحضر الحوار ما قاله عمر بن الخطاب وبعض المسلمين الذين لم يصدقوا وفاة الرسول الكريم، ثم ما قاله أبو بكر الصديق والعباس عم الرسول. وما كان لكلاميهما من أثر فى وأد الفتنة فى مهدها، لينتهى الحوار بين عزرائيل وابليس بقول عزرائيل: ماذا تقول الآن؟ أغرب عن هذا المكان، لقد ظهر الإسلام وتألق روح هذا الدين.

بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة فى الاقتراب من القضايا الفكرية الكبرى، ناقش توفيق الحكيم أعقد الموضوعات.

قبل أن نكره باولو كويلهو

جيهان عمر

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٧، ٨٢صفحة



هذا هو الديوان الثانى للشاعرة بعد ديوانها الأول «أقدام خفيفة»، والذى لاقى ترحيباً نقدياً ومغامرة من شعراء الجيل الجديد، وقد وصف قصائده الناقد الغربى الدكتور محمد برادة بأنها «تتميز بحساسية مرهفة وكلمات تتسلل إلى الأعماق، إلى حيث تختبئ أحزاننا القديمة والجديدة لتجعلها تطفو على السطح، بل ولتبددها فى آن»، ووصفت الكاتبة صافى ناز كاظم الشاعرة بأنها «لا تتساءل ولا تتعجب، إنها حزن مستتر بأقدام خفيفة».

وفى هذا الديوان، تواصل الشاعرة عزفها على الوتر الإنسانى عبر ثلاثين قصيدة قصيرة، هى من تفاصيل الحياة الإنسانية بعلاقاتها البسيطة والمعقدة معاً، مسحات من الحزن الشفيف والتساؤل المعجز الذى لا يبحث عن يقين بقدر ما يشير إلى مواطن الدهشة بين العادى والمألوف فى سلوكنا اليومى، نقرأ فى «علاقة حميمة»: ذات مساء/ اصطدم بسعادتى/ أزاحها/ وجد حزناً/ أبعده/ فوجئ بثورة/ أخمدها/ وجد يقيناً/ داعبه/ فظهرت عجوز نائمة/ غطاها بردائه/ قائلاً/ تصبحين على خير.

نقرأ أيضاً فى «دور الدمية»:

فى مثل عمرى/ كانت تجر خلفها خمسة أطفال/ والصغيرة لا ترى أمامها/ سوى غابة من السيقان/ كانت أنا/ وكان أمراً عبثياً/ أن أبحث عن أشيائى المفقودة/ فى فوضى الغرف/ المخبأة ببطولاتهم الوهمية/ كان يجب أن أرضى بدور الدمية/ التى يقذفون بها فى الهواء/ فتصدر ضحكات/ قصيرة/ متكررة/ بريئة/ أو تبدو كذلك.

على هذا النحو تمضى قصائد الديوان: احتفاء بالتفاصيل، باليومى والآنى دون التمحك فى قضايا كبرى، لكن هذا اليومى والآنى هو ذاته، الذى يصوغ معانى حياتنا كلها.

كان زمان يا مان

سمير الجمل

القاهرة: كتاب اليوم، ٢٠٠٧، ١٤٢صفحة



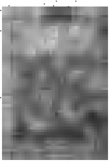
بأسلوب ساخر يتناول المؤلف العلاقة بين الرجل والمرأة فى العصر الحديث، يحاول الرجل أن يسترجع ذكريات الذكورية الأولى، أيام الحريم والحرملك، الزوجات الأربع والجوارى الحسناوات عن اليمين وعن الشمال صوته المدوى الذى يصدع فى أنحاء البيت فيهز أركانه وترتعد فرائص من فيه. لكن المؤلف يعيد قارئه الذكر إلى أرض الواقع قائلاً له بصراحة ساخرة قاسية: كان زمان يا مان.

فى الكتاب نلتقى بتصورات ساخرة كاريكاتورية لنساء من زماننا: كونداليزا رايس ومارلين مونرو وزنوبيا وإنجيلينا جولى وفيفى عبده وغيرهن. وسنستمع رأياً فى نوال السعداوى لا يخلو من سخرية، حين جلس المؤلف وزوجته يستمعان إليها فى حوار تليفزيونى وهى تساوى بين القرآن والروايات، بل وتفضل الروايات أحياناً عليه، ويصفها المؤلف بأنها «لاسعة»، وحين صرخت زوجته فى فزع: يخرب بيتها هى بتقول إيه، قال لها بهدوء: ليس على الملسوعة من حرج فإن الرد عليها خسارة والاستماع إليها خسارة أكبر وقد أعطيناها أكثر من حجمها، ويهزأ من هذا الاهتمام البالغ فيه حين تعرضت نانسى عجرم للسرقة فى شرم الشيخ، ويتخيل أن مجلساً أعلى للحرامية انعقد وأصدر بياناً يستنكر فيه سرقة نانسى شكلاً وموضوعاً، ثم ظهرت الحقيقة واتضح أن الحرامية من روسيا، وعلى غرار الحرامية سرقة بيت الرئيس بوتين فى عز الضهر الأحمر.

تربية العنصرية فى المناهج الإسرائيلية

صفا محمود عبدالعال

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ٢٣٠صفحة



تكاد موضوعات المناهج الإسرائيلية أن تكون مرآة لبشاعة العنصرية نحو الحقوق العربية، وهى تعكس مقولة هيرتزل «إذا حصلت يوماً على مدينة القدس وكنت ما أزال حياً، فلن أتوانى لحظة عن إزالة كل شىء ليس مقدساً فيها لدى اليهود، وسوف أدمر كل الآثار التى مرت عليها قرون». كان هيرتزل يقصد الآثار الإسلامية والمسيحية حسبما يقول شيخ التربويين الدكتور حامد عمار فى تقديمه للكتاب، الذى يعرض نصوصاً مما يدرسه تلاميذ المرحلة الابتدائية فى المدارس الإسرائيلية فى كتب التاريخ والجغرافيا، وجميعها تشير إلى الشعارات التى قامت عليها دولة إسرائيل العنصرية مثل السلام المسلح، القوة فوق الحق، الحزام الأمنى، الجدار العازل، الحقوق المقدسة للشعب الإسرائيلى وغيرها.

وقد استقت المؤلفة هذه النصوص من نحو ستة عشر كتاباً من كتب التعليم الإسرائيلية، الذى يستهدف تغذية التلاميذ فى هذه المرحلة المبكرة من العمر على المفاهيم والمبادئ التى قامت عليها دولة إسرائيل، وهى مبادئ سياسية عنصرية تم تلوينها بمقولات دينية حتى تكتسب قداسة ما فى عقول متلقيها، ومنها الادعاء بأن أرض فلسطين كانت منذ أقدم العصور أرض إسرائيل، وأن أورشليم كانت عاصمتها التى اختارها الرب لتكون مقراً للشعب اليهودى بعد الشتات.

وتشير المؤلفة من واقع تحليلها لهذه النصوص التى أوردت أصولها العبرية ثم قامت بترجمتها وتحليلها، إلى أن حدود الوطن الإسرائيلى مغيبة، وأنه يمتد من فلسطين إلى سوريا ولبنان ومصر والأردن والعراق، تحت ادعاءات ومزاعم بحقوق تاريخية، وهى مزاعم يتم بثها بإلحاح داخل عقول التلاميذ، حتى ينشأ هذا النشء وقد ارتبط بالأرض وبالدفاع عنها

ومواجهة ما يحيط به من عداء عربي، وهي واحدة من المهام الرئيسية لنظام التعليم في إسرائيل الساعي إلى زراعة بذور الخوف من الآخرين في عقول الصغار وترسيخ عناصر الكراهية والحقد في وجدانهم، وهي واحدة من الآليات التربوية المهمة التي تشكل بنية التوظيف الاجتماعي لمؤسسات الاستيطانية في إسرائيل بشكل عام.

وتشير المؤلفة بوجه خاص إلى كتاب أرض الوطن بجزءيه الأول والثاني، والذي تراه أخطر هذه الكتب جميعاً في ترسيخ الفكرة العنصرية للدولة الإسرائيلية، ولأنه كذلك، فإنه يدرس للطلاب على مدار عدة سنوات دراسية، كما أنه يدرس خارج قاعات الدرس النظامي، وفي الدراما التليفزيونية، وفي السياق ذاته فإن المناهج الدراسية الإسرائيلية كما تشير إلى ذلك النماذج التي قامت المؤلفة بتحليلها، تثير الرغبة في الانقياد للحرب باعتبارها الوسيلة الوحيدة أمام النشء للحصول على حقوقهم «المشروعة»، ودفاعاً عن أرض الآباء والأجداد.

*

المستشرقون الجدد

مصطفى عبد الغني

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٧، ١٧٤ صفحة



المستشرقون الجدد هم الآن خبراء، يقومون بنقل تحليلاتهم ودوافعهم الممتزجة بهذا التحليل إلى صانعي السياسات في الولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص، في الكونجرس والأعضاء التنفيذيين في الوزارات السيادية بهدف معلن هو التصدي للإرهاب والذي يخفي هدفاً حقيقياً هو تأكيد دور الإمبريالية الجديدة عبر مشروع الشرق الأوسط الجديد والدعوة إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان.

هذه النخبة الجديدة يطلق عليها في مراكز البحوث الأمريكية Think Tanks وهي التي استبدلت فيها النخبة من المستشرقين القدامى التقليديين، بتلك التي تؤثر في اتخاذ القرارات داخل الولايات المتحدة الأمريكية بوصفهم خبراء.

ويشير المؤلف إلى أن هذه المراكز وهؤلاء الخبراء، تزايدت الحاجة إليهم وتعاظم دورهم على هذا النحو الذي يشير إليه بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وبعد غزو العراق على وجه الخصوص، ويشير كذلك إلى أن الممول الرئيسي لمراكز الأبحاث تلك هو الشركات العملاقة التي يقارب إنتاجها نحو ٢٥٪ من الإنتاج العالمي، ومنها جنرال موتورز ووال مارت وإكسون موبيل وفورد وديملر كرايسلر، وهي شركات يتجاوز ناتجها الناتج القومي لـ ١٨٢ دولة في العالم، هذه الشركات هي طليعة القوى الصانعة للعولمة، وهي الأسخى تبرعاً وتمويلاً لمرشحي الرئاسة الأمريكية ولمراكز الأبحاث وبيوت الخبرة السياسية والاستراتيجية. وقد باتت بيوت الخبرة السياسية تلك هي الكيانات الأكثر فاعلية في صنع السياسة الأمريكية. ومنها معهد بروكنجز، ومجلس العلاقات الخارجية، ومؤسسة هيرتراج، وأمريكان إنتربرايز، وهدسون انستتيوت، ومركز بيكر للسياسة العامة، ومؤسسة راند، ومعهد الشرق الأوسط، ومعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، ومعهد هوفر، ومشروع القرن العشرين.

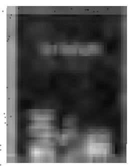
عبر ما تنشره هذه المراكز من تقارير، وعبر ما يبثه خبراؤها في وسائل الإعلام المختلفة، يتابع المؤلف ويحلل مقولات المستشرقين الجدد.

*

عالم المتاحف

عصمت داوستاشي

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧، ١٧٥ صفحة



تتعدد الكنوز المتحفية في مصر، وربما كان أكبرها وأهمها، هو المتحف الذي يتم إنشاؤه الآن تحت اسم «المتحف المصري الكبير»، والذي سيضم ١٠٠ ألف قطعة آثار من تاريخ مصر الممتد عبر قرون عديدة، والذي سيقام في سفح أهرامات الجيزة، والذي تم نقل تمثال رمسيس الثاني من ميدان رمسيس إليه، كما سيتم إنشاء متحف الحضارة الجديد بالقاهرة كأضخم متحف حضارة في العالم، وبين المشاريع المتحفية الجديدة في مصر، متحف للآثار الغارقة بمنطقة الميناء الشرقي بالإسكندرية أمام مكتبة الإسكندرية، وسيكون أول متحف في مصر يقام تحت سطح البحر، حيث سيتجول الزائر داخل أنابيب شفافة أو ينظر من قاع زجاجي لسفينة مجهزة بتجهيزات خاصة على هذه الآثار الغارقة للإسكندرية القديمة، كما سيضاف إلى هذه المتاحف الجديدة، متحف للروائي العالمي نجيب محفوظ يجمع تراثه الروائي والشخصي، ويشهد تنوع المتاحف في مصر على تنوع حضاراتها وفنونها، وبينها المتحف المصري «الانتيكخانة»، المتحف الإسلامي، المتحف القبطي، المتحف اليوناني الروماني، متحف النوبة بأسوان، متحف جزيرة فيلة، متحف الأقصر، وهناك أيضاً المتحف الحربي بالقاهرة ومتحف دنشواي ومتحف المركبات، ومتاحف الفنون الجميلة، ومنها متحف محمد محمود خليل ومتحف مختار ومتحف ناجي ومتحف الفنون الجميلة بالإسكندرية.

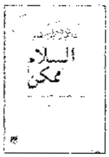
المؤلف وهو فنان تشكيلي سكندري يجول في عدد من هذه المتاحف شارحاً أساليب العرض فيها ومحتوياتها مثل المتحف المصري بالقاهرة والمتحف اليوناني الروماني بالإسكندرية، ومتحف الفن المصري الحديث وآثار مدينة رشيد، إلى جانب مجموعة أخرى من الدراسات ذات العلاقة بالمتاحف، ضمن سلسلة تراثنا المتحفي.

*

السلام ممكن

دانيال إبراهام

رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ٢٠٠٧، ١٧٠ صفحة



قام المؤلف يرافقه عضو الكونجرس الأمريكي أوينز بأكثر من ٦٠ رحلة إلى الشرق الأوسط بين الأعوام ١٩٨٨ و٢٠٠٢، حيث قابل عدداً كبيراً من القادة العرب بينهم الرئيس حسني مبارك والرئيس السوري حافظ الأسد والملك عبدالله بن عبدالعزيز ملك السعودية وكان وقتها ولياً للعهد وملك الأردن الراحل حسين والملك الحالي عبدالله، والرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات والحالي محمود عباس «أبومازن» وغيرهم، وتكونت لديه قناعة مفادها أن السلام ممكن بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وقد سعى من جانبه إلى تدبير لقاءات من خلف الكواليس بين أطراف الصراع، العرب والإسرائيليين، حاثاً هؤلاء القادة على التركيز على ما يحتاجونه من السلام وليس فقط ما يريدونه.

وفي المقدمة التي كتبها انطوان شلحت مدير مركز مدار إشارة إلى الاختلاف مع كثير مما ذهب إليه المؤلف، لكن نشر الكتاب برغم أنه يحمل وجهة نظر خاصة للقاءات التي عقدها المؤلف مع الشخصيات العربية والإسرائيلية، يأتي بهدف تعريض القارئ العربي لمختلف القراءات عن الواقع الإسرائيلي، وهي هنا وجهة نظر واحد من الشخصيات الفاعلة في الجالية اليهودية الأمريكية، وهي جالية ذات تأثير مهم على السياسة الإسرائيلية وعلى سياسة الإدارة الأمريكية خصوصاً تجاه قضية النزاع العربي الإسرائيلي ونزاعات منطقة الشرق الأوسط على وجه العموم.

ويشير شلحت على وجه الخصوص إلى ما يبذله المؤلف في سبيل تقنين مواصفات السلام تحت شعار ما يحتاجه الفلسطينيون والعرب وليس ما يريدونه وكأنهما معنيان متصادمان، كما أن تصور إبراهام عن السلام الممكن لا يبعد كثيراً عن التصور التقليدي المستجد بعد اتفاق أوسلو، ويعني العودة إلى حدود ١٩٦٧ مع بعض التعديلات دون حق العودة، وتقسيم القدس حسب التعداد السكاني، فضلاً عن تأكيده على أهمية التفوق العسكري الإسرائيلي على الدول العربية جميعاً.

مع الوضع في الاعتبار هذه الملاحظات، يصبح بالإمكان قراءة كتاب إبراهام وحصيلة حواراته مع قادة عرب وإسرائيليين.

*

استعادة المسافرخانة

جمال الغيطاني

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٦٠ صفحة



في عام ١٩٩٨ احترقت المسافرخانة، تلك التي بناها محمود محرم شهبندر تجار القاهرة قبل قرنين تقريباً، وفيها ولد الخديو إسماعيل، وفيها عاش ومر عشرات، بل مئات من الناس الذين يبقى بعضهم في الذاكرة فيما تلاشى آخرون، والتي يرتبط المؤلف معها بذكريات الطفولة الأولى، حيث كان يقيم في درب الطبلاوي وكان باب المسافرخانة مفتوحاً على الدرب من ناحية قصر الشوق.

وحين احترقت المسافرخانة بيد الإهمال الآثمة، شعر المؤلف أن جزءاً عزيزاً من ذكرياته وذاكرة القاهرة القديمة قد احترق، ومن ثم، بدأ في استعادة المسافرخانة في رحلة صوفية ومعمارية وأدبية. هو لا يستعيدها فقط كبناء ومعمار مبين، وإنما أيضاً بشر ومهن وعلاقات شكلت طبيعتها الفريدة وسط القاهرة القديمة. لهذا يعمد الغيطاني الذي عرف بولعه بالتراث وبمصر العتيقة، وهو يحدثك عن السمات المعمارية والفنية المميزة: ملقف الهواء في الأعلى، قاعة المجد، أكبر قاعات القصر، السقف بما احتواه من نقوش وزخارف الأرضية بوصفها متمماً للسقف في الأعلى، القبة الخشبية وتواجهها الناهورة في مركز الأرضية، الفتحات والنوافذ والمنمنمات، يعمد إلى أن يتداخل هذا كله مع صورة عم مصطفى نقاش النحاس في خان الخليلي الذي عاش

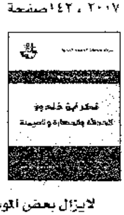
تسعين عاماً ينقش النحاس، وقصائد الشعر التي تزين الجدران والتي اختيرت بعناية بين درر الشعر العربي، وأصوات الباعة الذين عرفت لهم مواعيد محددة حسب نوع البضاعة التي يبيعونها. كل ذلك في تناغم لا يعرف التنافر، هكذا تستدعيه الذاكرة التي تعيد ترتيب الأشياء وصياغتها في علاقاتها المتشابكة كما تراها بعين البصيرة، لا كما هي في الواقع.

وإضافة إلى ذلك، يقدم المؤلف بحثاً لطيفاً مبسطاً في فنون العمارة والزخرفة الإسلامية، وتمايزاتها عن مثيلاتها الأوروبية، خصوصاً أن مرجعيتها هي القرآن الكريم وآياته، لذا يشير المؤلف إلى معنى أن تتواجد آيات القرآن الكريم في العمارة الإسلامية عادة في الأعلى، قرب السقف، حيث تتطلع العين إلى السمو، إلى السماء، إلى الخالق سبحانه وتعالى بالدعاء والرجاء، ثمة إشارة أيضاً إلى أبواب البنايات الإسلامية، دائماً فوقها ما يبعث الطمأنينة في نفس الزائر، تطالعنا آية من القرآن الكريم: ادخلوها بسلام آمنين، أو دعاء: يا مفتح الأبواب افتح لنا خير باب، هذه سمة مميزة للعمارة الإسلامية «التي تتخذ من القرآن الكريم مثالاً ومرجعية أولى، ولذا فإنها تعتبر المدخل موازياً، مقتدياً بالبسملة التي تضفي سكينة وراحة على روح الإنسان»، كما أن الأبواب في العمارة الإسلامية مزدوجة، ليست وظيفتها الصد والمنع، وإنما أيضاً الترحيب والطمأنة، فأنت تدخل من باب رئيسي يفضي بك إلى الداخل، ثم إلى اليسار حيث باب آخر يؤدي إلى فراغات القصر، وهكذا كان الوضع في كل بيوت القاهرة القديمة، وكما يقول المؤلف، فإن الانتقال بين البابين يشبه تلك الوقفة الفاصلة بين البسملة وبدء تلاوة الآيات. هكذا حاول الغيطاني أن يستعيد المسافرخانة.

❊

فكر ابن خلدون

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ١٤٢ صفحة



لايزال بعض الموسوعات «الفلسفية» العربية - «على قلتها» والغربية «على كثرتها» - يُغفل إفراد مادة لابن خلدون، وبعض هذا الإغفال يبرر بأن ابن خلدون هو بالدرجة الأولى عالم الاجتماع الأول أو مؤسس علم الاجتماع وبالدرجة الثانية مؤرخ للحضارة.

وعلى سبيل المثال فإنه عندما كتب الراحل الدكتور عبدالرحمن بدوي موسوعته للفلسفة - التي نشرها في عام ١٩٨٤ - لم يجد حرجاً في أن تصدر من دون مادة باسم ابن خلدون. لكنه لم يلبث - عندما أصدر ملحقاً لهذه الموسوعة في عام ١٩٩٦ - أي بعد ١٢ عاماً - أن أفرد لابن خلدون تسع صفحات كاملة تساوي عدد الصفحات التي خص بها مادة «التصوف الإسلامي» في هذا الملحق.

ابن خلدون عاد منذ سنوات يطل في الموسوعات الفلسفية وفي كتب الفلسفة، ولم يكن ذلك لمجرد الاحتفاء به في الذكرى الستمائة لوفاته (التي حانت في عام ٢٠٠٦).

وكما يشهد هذا الكتاب في هذه الطبعة من «سلسلة كتب المستقبل العربي» فإن ابن خلدون يعود - ليس فقط من باب الفلسفة الذي أوصده بعضهم في وجهه - إنما يعود أيضاً من باب المعاصرة.

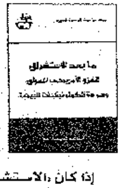
نحن في هذا الكتاب أمام ابن خلدون فيلسوفاً.. ومعاصراً. يطل كمشارك في قضايا الفلسفة كأنه معاصر لنا. وهذه سمة المفكرين الذين يتجدد فكرهم، بل يولد من جديد كلما بدا أن غبار الزمن سينهال عليه ويدفنه. هو فيلسوف في تناوله «العلمي» للتاريخ وفيلسوف في تناوله «الديالكتيكي» للحضارة، حينما لم تكن أي من فلسفة التاريخ أو فلسفة الحضارة قد ولدت بعد بالمعنى المعاصر لأي منهما».

❊

ما بعد الاستشراق

فاضل الربيعي

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧، ٢٠٤ صفحات



إذا كان «الاستشراق» الكلاسيكي يرتبط بصورة ما من الصور، ببزوغ عصر الاستعمار القديم في الشرق، فإن (ما بعد الاستشراق) يرتبط، بصور متنوعة لا حصر لها، ببزوغ عصر استعماري جديد تنبئ به سلسلة من الزلازل والمتغيرات، تكاد رجاتها الأولى تسمع في كل أرجاء الوطن العربي والعالم الإسلامي.

لقد كشف غزو العراق، المدى الذي بلغته «شرقنة» الشرق - أي الطريقة التي تم فيها تخيل الشرق وإنشاء صور خيالية عنه - تماماً، كما كشف عن القدر المفرط من القسوة والعنف حيال أي بلد يفكر مجرد تفكير، بالدفاع عن استقلاله ومصالحه الوطنية. وفي الغالب الأعم، سوف يصبح العنف متلازماً مع نشر صور وحشية «للآخر»، بحيث يؤدي ذلك تلقائياً إلى معاملته كمتمرد، أو «مارق على إرادة المجتمع الدولي». وهذا هو الوضع الذي وجد العراق نفسه فيه طوال أكثر من عقدين من الزمن. ومع الغزو الأمريكي للعراق يكون الغرب بأسره - لا الولايات المتحدة وحدها وحسب - قد تعرف إلى الشرق القديم نفسه من جديد، ولكن هذه المرة بواسطة أدوات جديدة من العنف تخطت كل نتائج الكولونياليات القديمة وتقاليدها.

❊

الوادي المقدس

محمد كامل حسين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ١٧١ صفحة



الكتاب الأشهر للدكتور محمد كامل حسين هو «قرية ظالمة» وفيه تجسيد لحياة السيد المسيح عليه السلام وما لاقاه من أذى على أيدي اليهود الذين تعاملوا بغلظة وسخرية مع دعوته إلى التسامح والمحبة والتآخي بين الناس، لكن للرجل كتابات أخرى أقل شهرة وإن كانت على الدرجة نفسها من الأهمية بينها وحدة المعرفة، قوم لا يتطهرون، الذكر الحكيم، اللغة العربية المعاصرة، التحليل البيولوجي للتاريخ، والمؤلف الذي عاش في الفترة من ١٩٠١ وحتى ١٩٧٧ كان طبيباً بارعاً، ويمكن اعتباره من رواد جراحة العظام في مصر ونال جائزة الدولة في العلوم عام ١٩٦٧، وقبلها جائزة الدولة في الآداب، فأصبح بذلك أول مصري يجمع بين جائزتي الدولة في الآداب والعلوم.

والفكرة الأساسية التي يطرحها المفكر الكبير في هذا الكتاب هي أن أساس الدين سيكولوجي، أما أساس الأخلاق فهو فسيولوجي، وهو يتساءل قبل الولوج إلى شرح مفهومه لفكرة التطهر وأهميتها للإنسان: إذا كانت الأديان تنبع من أصل فطري واحد، وإذا كانت غايتها واحدة ووسيلتها واحدة، وإذا كان الحق فيها كلها قائماً، ففيم اختلافها وتطاحن أهلها وتقاتل المؤمنين بها، ويجيب بأن الخلاف بين أهل الأديان في حقيقته هو اختلاف في التركيب السيكولوجي للناس، وتختلف مظاهر التدين باختلاف موقفنا من القوة العليا التي يهتدي بها المؤمنون بالغيب، أي تختلف باختلاف موقفنا من الله، الذي لا يكون إلا حباً أو خوفاً أو أملاً، وفي النفس المؤمنة شيء من هذه الأمور الثلاثة وإن اختلفت درجاتها.

وفي شرحه لفكرة التطهر التي تستحوذ على جل الكتاب يشير إلى أن كل مؤمن بالله سواء كان مسلماً أو مسيحياً أو حتى يتبع واحداً من المذاهب داخل الديانتين يتطهر بطريقته النابعة من طبيعته النفسية، والتي تجعله أقرب إلى أصحاب ديانة أخرى حتى دون أن يقصد، فبعض المسلمين أو المسيحيين هم «موسويون» أي أنهم يميلون إلى التطهر وتطهير الناس من الذنوب بالقوة، كما كان نبي الله موسى يفعل، ويرون أن من واجبهم حمل الناس على العقيدة التي يرونها صحيحة ولو بالقتل أو بالتعذيب، كما كانت حالة الخوارج على سبيل المثال الذين يراهم المؤلف موسويين، يؤمنون بالعدل مهما كان في تطبيقه من قسوة، ولو خالفوا في ذلك روح الدين، وبين المسلمين «عيسويون» في مزاجهم النفسي كالشيعة، الذين يشعرون أنهم بحاجة نفسية إلى شهيد يقدسونه، يعتقدون أنه مات في سبيلهم، فيحبونه ويتعلقون بمن يحبونه..

على هذا النحو يدرس المؤلف تاريخ التطهر الإنساني باعتباره وحدة متكاملة وكلاً متناسقاً مهما بدا من اختلافات بين أبناء الديانات، وهو يرى في التطهر ما يعين الإنسان على حل مشاكل التوفيق بين حياته وضميره وعقيدته، وهي المشكلة الأزلية التي يعانيها الإنسان منذ ميلاده وحتى وفاته، وأثره في نفس الإنسان كبير جداً، فهو برأيه قانون النفس البشرية الأكبر «لا تطمئن إذا أغفلته، ولا تستقر إذا حادت عنه، فهو أصل من أصول كيانها السليم».

❊

الإمام المراغي

رجاء النقاش

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٧ - ١٠٢ صفحة



يعيد هذا الكتاب الاعتبار لواحد من شيوخ الأزهر الكبار، والذي تولى مشيخة الأزهر الشريف مرتين، استمرت إحداهما نحو عشر سنوات في عهد الملك فاروق، من ١٩٣٥ حتى وفاته في ٢٢ أغسطس ١٩٤٥، فيما لم يمكث في الثانية أكثر من أربعة عشر شهراً في عهد الملك فؤاد، منذ سبتمبر ١٩٢٨.

ألصقت بالرجل تهم عديدة منها أنه كان عميلاً للإنجليز وكذا للملك فؤاد ومن بعده ابنه الملك فاروق، وأنه كان مهادناً داعياً إلى الاعتدال في زمن استوجب التشدد دفاعاً عن استقلال الوطن.

أما اعتداله وميله إلى الوسطية والتدرج، فلا يرى فيه المؤلف ما يشين، بل يراه ميزة كبيرة مكنته من تنفيذ مخططه في تطوير الأزهر والارتقاء به. ولم يكن المراغي يوماً عميلاً

للإنجليز، فهو الذي وقف مؤازرا لثورة المصريين في عام ١٩١٩ حين كان قاضيا للقضاة في السودان وجمع أكثر من ستة آلاف جنيه دعما للثوار أرسلها إلى مصر، وحين عنفه الحاكم الإنجليزي على هذا العمل واعتبره سلوكا معاديا رد عليه المراغي بكل قوة وبدوافع وطنية حقيقية.

وفيما يتعلق بالملك فؤاد فإن استقالة المراغي بعد ١٤ شهرا فقط من توليه مشيخة الأزهر في عهده جاء بعد رفض الملك مشروع المراغي لإصلاح الأزهر الشريف، أما فاروق فقد اصطدم به المراغي عدة مرات يورد بعضها المؤلف، بل إنه كثيرا ما ألمح إلى استهتاره وفساده وسعى إلى جذبه إلى طريق الصواب حتى يمكنه أن يواصل مشروعه في تطوير الأزهر، ويدلل المؤلف على صدق تحليله بقوله إن الملك فاروق لم يتبد فساده إلا بعد وفاة الشيخ المراغي في عام ١٩٤٥، فيما كان يتمتع بشعبية كبيرة حين كان المراغي إلى جانبه.

❊

من طيوب الذاكرة

رياض نعسان أغا

القاهرة: المكتب المصري للمطبوعات، ٢٠٠٧، ٢٩٢صفحة



تقدم هذه المجموعة من المقالات والدراسات المسجلة نموذجا للكتابة الثقافية بامتياز، وهي ترتحل في بستان الفكر والأدب العربي شرقا وغربا، قديمه وحديثه، فهو يكتب مثلاً عن السياسة في الشعر، متنقلاً بين زهير بن أبي سلمى وبشار بن برد وأبو نواس والنابغة الذبياني وجرير والفرزدق وسواهم، كاشفاً عن المغزى السياسي في قصائدهم وأبعاده، فالسياسة هي محور شعر زهير بن أبي سلمى، وهو أول من عرف له شعر يستنكر الحروب استنادا إلى موقف إنساني عقلاني، داعيا إلى السلام، وكانت السياسة هي التي قتلت طرفة بن العبد، فقد أفاق على الدنيا فتى فإذا قرابته يستبيحون حقوقه، فسعى إلى نصرة على قومه جاءت عليه بالويل، وقد دس خصوم النابغة على شعره فأثاروا الملك عليه، وأوقعوا بينهما، واستمر الحال هكذا مع ظهور الإسلام، ومع الفتنة الكبرى، دخلت السياسة إلى القصيدة من كل باب، ولم تكن النقائض بين جرير والفرزدق برأي المؤلف، إلا نوع من الملهاة لصرف الناس عن شعر المواقف الذي طرحه الشريف الرضي والكميت وقطري بن الفجاءة وسواهم من كبار شعراء السياسة، حتى وصلنا إلى شاعر السياسة والحب نزار قباني كما يسميه المؤلف، فقد كان نزار الشاعر العربي الوحيد الذي تجرأ على الحديث بلسان المرأة، وهو الذي جعل من الحب قضية كبرى، وحين أزاح الستار عن حقيقة المعاناة التي يشن منها المجتمع، حتى إذا قرأ الناس قصيدتيه الشهيرتين «خبز وحشيش وقمر» و«هوامش على دفتر النكسة» رأوا فيه شاعرا من طراز سياسي رفيع، يعبر بالقدرة ذاتها التي عبر بها عن أعماق المرأة، عن أحزان الأمة كلها.

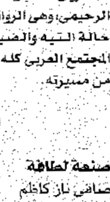
بالكتاب دراسات مهمة أخرى عن شعراء آخرين مثل عمر أبو ريشة ومحمد مهدي الجواهري وتوفيق زياد وفدوى طوقان وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم والبارودي وسليمان العيسى وأدونيس وغيرهم، كما أن به دراسات عن الروائي السوري الأشهر حنا مينا وعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين، وعن الدور المهم الذي لعبه قاسم أمين في قضية تحرير المرأة، ومقالاً مهماً عن المفكر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد، ودراسات أخرى عن ابن خلدون وابن النفيس وابن طفيل، ويحظى عميد الرواية العربية نجيب محفوظ باهتمام خاص من جانب المؤلف الذي يشغل الآن موقع وزير الثقافة في سوريا، فقد زاره ليقدم له تهنئة الرئيس حافظ الأسد عقب حصول محفوظ على نوبل في ١٩٨٨، وقتها كان المؤلف مستشارا سياسيًا للرئيس الأسد ولم تكن العلاقة بين مصر وسوريا على ما يرام، ثم مهنئا بالنجاة من حادث الاغتيال الآثم الذي تعرض له الأديب الكبير، والدراسات التي يقدمها المؤلف عن نجيب محفوظ وإن كانت تركز بشكل خاص على روايتي الطريق وحضرة المحترم، إلا أنها تكشف عن وعي كامل بعالم نجيب محفوظ وروافده الفلسفية والإنسانية، وهو ما يتبدى في تحليله الدقيق لشخصية بطل رواية «الطريق» صابر الباحث عن أبيه سيد الرحيمي، وهي الرواية التي جسدت بالرمز حالة التيه والضياع التي عانى منها المجتمع العربي كله، في مرحلة انعطافية من مسيرته.

❊

صنعة لطافة

صافي ناز كاظم

القاهرة: دار العين للنشر، ٢٠٠٧، ٢١٨صفحة



هذا كتاب عن رائدات النهضة والعمل النسوي في مصر، لكنك لن تجد فيه مثلاً هدى شعراوي، أو سيزا نبراوي، ولن تحتاج إلى جهد كبير حتى تعرف السبب، بعد سطور من قراءتك دراسة المؤلفة عن أم الجيل - كما تسميها - نبوية موسى، إذ زاملت نبوية موسى هدى شعراوي وسيزا نبراوي إلى مؤتمر النساء الدولي الذي عقد في روما ١٩٢٣م، لكنها عند عودتها معهما لم تلق برقعها الإسلامي على الأرض ولم تدسه بقدميها كما فعلت هدى وسيزا، بل ظلت متمسكة به إلى لحظة وفاتها.

لكنك ستجد أسماء لرائدات في مجالات عديدة، مجهولات للعامة، ولا يحفل الإعلام بذكرهن، لأنهن بطبيعتهن آثرن العمل في صمت، برغم أن ما قدمنه من إنجازات في المجالات اللائي تخصصن بها يشير إلى جهودهن الجبارة.

كما أشرنا فإن نبوية موسى بنظر المؤلفة هي أم الجيل، الرائدة التربوية التي كانت لها بصمة واضحة في الدفاع عن حق المرأة في التعليم والعمل، كما أنها ترجمت كفاحها عملياً من خلال مدارس «بنات الأشراف» التي تخرجت فيها الآف البنات ممن واصلن المسيرة.

ستجد أيضاً دراسة عن جميلة صبري، التي أسهمت بنصيب وافر في تأسيس جمعية ترقية الفتاة بالإسكندرية، كما أنها من خلال كتاباتها ومشاركاتها في العديد من الجمعيات الأهلية النسائية، لعبت دوراً مهماً في هذا الإطار.

دراسة أخرى عن الدكتورة معصومة كاظم، شقيقة المؤلفة، وهي واحدة من رائدات علم الرياضيات ومناهج تدريسها، وصاحبة إسهام رائع في هذا المجال.

دراسة أخرى عن الدكتورة عفت بدر رائدة علم الوراثة، التي تخصصت في الهندسة الوراثية وحصلت على الدكتوراة فيها من أمريكا بعد أن تخرجت في كلية الزراعة بجامعة الإسكندرية.

ثم دراسة عن الأديبة زينب صادق وأخرى عن ليلى عراد وثالثة عن مي زيادة، ومقالات تفيض بالحميمية والامتنان عن وداد متري وأماني فريد وأليفة رفعت.

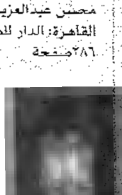
لكن بالكتاب دراسات عن نساء أخريات، لسن رائدات ولا زعيمات، لكنهن بعطائهن يستحققن أن تجمعهن الصفحات جنباً إلى جنب رائدات العمل النسائي، مثلاً مقالة عن الشهيدة نوحة و[illegible]احة شريفة فاضل وأولجا الخياطة لرشيد.

❊

الاستبداد من الخلافة للرئاسة

محسن عبدالعزيز

القاهرة: الدار للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ٢٨٦صفحة



بيات المسألة السياسية في التاريخ الإسلامي فور وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم في اجتماع سقيفة بني ساعدة، حيث تبدت بوضوح العصبية والتحزب للقبلية والجماعة، وهو ميراث جاهلي حذر منه القرآن الكريم بنص صريح «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم». لكنها السياسة التي تدير الرءوس وتحجب الحقوق لحساب المصالح الصغيرة، وبعد سنوات قلائل من احتواء الفتنة التي كان يمكن أن تتفشى في اجتماع السقيفة بين المهاجرين والأنصار، كانت الفتنة الكبرى التي بدت بوادرها في خلافة عثمان بن عفان، والتي استمرت بعد ذلك في خلافة علي بن أبي طالب والذي كان عليه أن يواجه الخوارج من ناحية وأطماع بني أمية من ناحية ثانية، فلما انتهى الأمر بانتصار معاوية بن أبي سفيان عقب واقعة التحكيم الشهيرة، آلت الأمور إلى بني أمية وتحولت الخلافة من شورى بين المسلمين إلى ملك عضوض يورثه الآباء للأبناء، ولم يعدم الخلفاء بين القضاة ورجال الدين والشعراء من يزين لهم سوء أعمالهم، وانقضاضهم على الدولة واستحلالهم أموال المسلمين وحقهم في اختيار ولاتهم بتأويلات معوجة ومغرضة حصدوا مقابلها عطايا ومعيشة آمنة في كنف السلطان، وهو ما دفع الإمام الفقيه الحسن البصري إلى القول: أفسد هذه الأمة اثنان عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف، والمغيرة بن شعبة حين أشار على معاوية بالبيعة ليزيد، ولولا ذلك لكانت شورى إلى يوم القيامة.

يتابع المؤلف تاريخ الاستبداد في العصر الأموي، مشيراً بتفصيل واضح إلى رحالات عصور الاستبداد تلك من توصية عبدالله بن مروان الذي أوصى ابنه الوليد بالحجاج بن يوسف الثقفي، وهو أشهر الحلفاء - أو أدواتهم - في عصر الدولة الأموية، فقد قال عبدالملك لولده وهو على فراش الموت: أوصيك بالحجاج خيراً وإذا مت فشمر واتبعن جلد نمر وضع سيفك على عاتقك، ومن أبدى ذات نفسه لك اضرب عنقه ومن سكت مات بدائه.

لكن المؤلف مع ذلك يشير إلى فترات من الراحة والعدل - الراحة من الاستبداد والمستبدين، مثلت استثناءات في التاريخ الإسلامي كله، مثل تلك السنوات التي حكم فيها الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز، والتي كانت بمثابة صفحات بيضاء في كتاب الاستبداد الأسود، فإذا المسلمون يبتلون بعده بيزيد بن عبدالملك ثم هشام بن عبدالملك ثم الوليد بن يزيد وغيرهم ممن يسميهم المؤلف خلفاء الجواري والشذوذ ليصلوا إلى الدولة العباسية وخلفائها الذين يسميهم خلفاء الحضارة والاستبداد، ويستعرض المؤلف في هذا الإطار محنة المفكرين وأصحاب الرؤى المستقلة وما عانوه في ظل دولة الاستبداد، وصولاً إلى الدولة الفاطمية، فالأيوبية، ثم دولة المماليك والعثمانيين، وأثناء سرده

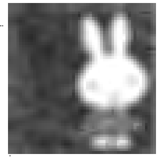
لهذه المسيرة، يلقي بإسقاطات على عصرنا الراهن، مشيراً إلى صور من فساد الاستبداد في السلطة والصحافة معاً.

※

سلسلة كتب ميفي المصورة

دك برونا

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧



هذه هي النسخة العربية من سلسلة كتب ميفي المصورة للأطفال في سن ما قبل المدرسة (من الثانية إلى السادسة)، للفنان العالمي دك برونا، والتي حققت نجاحاً غير مسبوق في مختلف دول العالم منذ بداية صدورها في عام ١٩٥٥م.

سلسلة قصص ميفي بطلتها أرنوبة بيضاء صغيرة تمر بمواقف وأحداث مختلفة تساعد الطفل على فهم العوالم والأحداث من حوله بطريقة بسيطة.

القصص مكتوبة بلغة عربية سلسة بها سجع خفيف تناسب الأطفال في سن ما قبل المدرسة أو حديثي تعلم القراءة، فهي تعتمد على كلمات سهلة ولا تستخدم علامات الترقيم، بالإضافة إلى كونها قصصاً مصورة ذات رسوم بسيطة وواضحة تجذب الأطفال وتساعدهم على التخيل.

والفنان الهولندي دك برونا الذي يبلغ من العمر ٨٠ عاماً، بدأ الرسم في عام ١٩٤٠ وحقق نجاحاً مع الأطفال والكبار حتى إنه أصبح يضاف إلى قائمة الفنانين الهولنديين العظام مثل رمبرانت، وموندريان، وفان جوخ.

قام برونا بإنتاج أكثر من مائة كتاب مصور وأكثر من ألفي غلاف لكتب أخرى، وهو الأب الروحي للعديد من شخصيات الأطفال.

كما حصد بأعماله العديد من الجوائز في هذا المجال، حيث تتميز أعماله بالخطوط الواضحة البسيطة التي تناسب كتب الأطفال المصورة.

في حين يتطلب العمر الذي تخاطبه سلسلة كتب ميفي مميزات خاصة في نوعية الكتب التي تقدم له: فإن شخصية ميفي، بخطوطها الواضحة البسيطة وألوانها المميزة وشكلها المحبب، نجحت في أن تصبح نجمة في عالم كتب الأطفال حتى إنها مثلت ظاهرة فريدة في ارتباط الأطفال بها وحبهم لها، خاصة مع ندرة الكتب الموجهة إلى هذه المرحلة السنية.

سلسلة ميفي ترجمت إلى أكثر من ٤٠ لغة وباعت أكثر من ٨٥ مليون نسخة حول العالم، وقد أصدرت دار الشروق حتى الآن ست قصص جميلة من سلسلة ميفي وهي:

- ميفي في حديقة الحيوان.
- بيت ميفي.
- الطفل الجديد.
- عيد ميلاد ميفي.
- ميفي في المدرسة.
- ميفي تبكي.

ومن خلال الكلمات البسيطة والرسوم ذات الخطوط الواضحة والألوان المميزة يتعرف الطفل حديث التعلم على أشكال الحروف واستخدامات الجمل، فضلاً عن العلاقة التي تنشأ بينه وبين الأشياء، عبر ارتباطه بشخصية ميفي المحببة والأدوات التي تستخدمها.

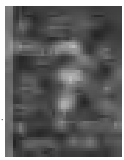
نقرأ مثلاً: ميفي عندها مائدة صغيرة، وطبق صغير لها وحدها، وعندما تأكل إفطارها، تستعمل ميفي ملعقتها، وهنا أيضاً كوب ميفي، إنه كوب مفيد وعجيب، له يد في كل جانب، لتمسكه وهي تشرب الحليب.

※

دوريات

دبي الثقافية

دبي: الصدى للصحافة والنشر

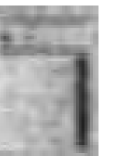


في البانوراما موضوعان، أحدهما عن مدينة إب اليمنية وهي مدينة تتميز بطابع جمالي خاص ويعود تاريخ إنشائها إلى ألفي عام والمدهش أن كثيراً من بناياتها ومناظرها الطبيعية بقيت على حالها برغم هذا التاريخ الطويل. الموضوع الثاني عن عاصمة جنوب أفريقيا «جوهانسبرج» والتي يطلق عليها أهلها عدة تسميات، فهي جوبيرج أو جوزي أو جي إتش بي، وهي المدينة الأفريقية الوحيدة المعترف بها دولياً كمدينة عالمية.

ويواصل الناقد رجاء النقاش في هذا العدد حديثه عن الأديب عادل كامل وثلاثيته الرائعة ملك من شعاع ومليم الأكبر وويك عنتر وجميعها صدرت بين عامي ١٩٤١ و١٩٤٢ ويعدها اتخذ عادل كامل الذي كان صديقاً لنجيب محفوظ ومواكباً له في الإبداع، قراراً بالتوقف نهائياً عن الكتابة.

المجلة العربية للعلوم السياسية

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية



يتضمن العدد افتتاحية كتبها الدكتور علي الدين هلال، ومحوراً حول السياسة الخارجية يشتمل على عدة مساهمات: مصادر القوة العربية والسياسة الخارجية الأمريكية لأحمد سليم البرصان، مقاربة أولية للاتجاهات المستقبلية في العلاقات العربية الأوروبية لحمد صالح السعر، محددات السياسة الخارجية الصينية تجاه منطقة الخليج العربي لمحمد بن هويدن، المساومة في السياسة الخارجية التركية لمحمود سالم السامرائي، العلاقات العراقية الألمانية وآفاق تطورها لخلود محمد خميس.

كما يتضمن دراستين: الأولى بعنوان الإسلام في دساتير دول مجلس التعاون الخليجي والثانية بعنوان العلاقة بين الدولة والمجتمع في البلاد العربية.

أما باب آراء فيكتب فيه محمد محمود الإمام تحت عنوان: أهم التطورات الإقليمية والعالمية والقطرية خلال العقود الثلاثة الماضية، وفي باب كتب مراجعتان: الأولى لرضوان زيادة حول كتاب، روايتان أمريكيتان مختلفتان عن المفاوضات العربية الإسرائيلية، والثانية لوليد خالد أحمد حسن حول كتاب إشكالية الشرعية في الأنظمة السياسية العربية، مع إشارة إلى تجربة الجزائر لخميس حزام والي.

※

أوراق إسرائيلية

رام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية



هذا العدد هو ترجمة لنشرة صدرت عن مركز بيجن - السادات للدراسات الاستراتيجية تحت عنوان «إسرائيل في الفضاء - جوانب استراتيجية» في عام ٢٠٠٦، ضمت بين دفتيها المحاضرات التي ألقيت خلال يوم دراسي تحت هذا العنوان، وقد شكل هذا اليوم محاولة غير مسبوقة لتسليط الضوء على أنشطة الفضاء الإسرائيلية.

وقد ركز بعض المحاضرين على البعد المعنوي لأنشطة إسرائيل في الفضاء، والمقصود هو البعد الذي يؤطر الدول التي لديها أنشطة متشعبة في الفضاء في عداد الدول المتقدمة، لكن يبقى الأهم هو ما لهذه الأنشطة من أبعاد عسكرية واستراتيجية، مع مراعاة أن الخوض في هذه الأبعاد تحده قيود أمنية صارمة.

※

المحيط الثقافي

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة



يتضمن العدد حواراً مطولاً مع الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة السابق الدكتور جابر عصفور، يجيب فيه على أسئلة عديدة عن الإرهاب والتطرف والإسلام السياسي وإشكاليات النقد العربي المعاصر وأكثر الشخصيات التي أثرت في تكوينه الفكري والأدبي.

أما ملف العدد فهو عن الاستراتيجية الأمريكية الجديدة والتي جاءت تحت عنوان «إعادة التوجه».

بالعدد أيضاً دراسة عن بنات الليل في السينما المصرية.

في باب المتابعات قراءات نقدية لرواية جميل عطية إبراهيم الأخيرة شهرزاد على بحيرة جنيف، وقراءة جديدة لأدب إحسان عبد القدوس يقدمها نبيل فرج، إضافة إلى إبداعات شعرية وقصصية.

※


أحدث إصدارات
دار الشروق

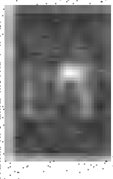
الاصدارات المختارة فى هذا العدد من القائمة التى يعدها كتاب دورية Foriegn Affairs شهريا
والاختيارات من شهور فبراير ومارس وابريل ٢٠٠٧

Twice a Stranger: The Mass Expulsion that Forged Modern Greece and Turkey
(غريب مرتين: النفى الجماعى الذى شكل اليونان وتركيا الحديثتين)
Druce Clark
Harvard University Press:
$29.95, 304pp., 2006



مرت جميع الدول تقريبا بتغير كبير فى حدودها فى بدايات القرن وخاصة بعد كل من الحربين العالميتين. إلا أن هذه التغيرات كان لها تأثير أكثر درامية فى دول البلقان والمنطقة المحيطة بهم بسبب تعدد الأعراق واختلاطهم. عام ١٩٢٣ تحديدا انتهت حرب شديدة الدموية بين تركيا واليونان وعقد فى نهايتها اتفاق لتبادل السكان، حيث ينتقل أكثر من مليون مسيحى ارثوذكسى تركى إلى اليونان وينتقل حوالى نصف مليون يونانى مسلم إلى تركيا. يجمع الكاتب شهادات شفوية ممن بقى على قيد الحياة من هؤلاء المهاجرين كما يستعين بوثائق وأعمال مؤرخين من تلك البلدان كما يستخدم مواد أرشيفية تم الكشف عنها مؤخرا. وعبر تلك المصادر يروى الكاتب وجهة النظر الدبلوماسية والإنسانية فى تلك القصة. ويفسر هذا التاريخ الصلة المبهمة بين اليونان وتركيا حيث إن من المعروف أن العلاقة بين البلدين غير ودية بالمرة وإن كانت تمتلئ بالمشتركات والصلات الثقافية والمعنوية غير المفهومة لمن هم من خارج نطاق المنطقة. مع محاولات تركيا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى وسع العلاقة الخلافية بين الإسلام والغرب فى الوقت الحالى يأتى هذا الكتاب ليكشف جزءا من خلفيات الوضع لا يأتى ذكره كثيرا.

Israel and Palestine: Peace Plans and Proposals from Oslo to Disengagment
(إسرائيل وفلسطين: خطط وعروض السلام من أوسلو إلى فض الاشتباك)
Galia Golan
Markus Wiener Publishers:
$29.95, 208pp., 2006



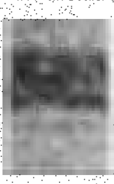
مع كل التطورات فى الشرق الأوسط تبقى القضية الفلسطينية هى القضية المحورية فى المنطقة. وبعد مرور ١٤ عاما على اتفاقيات أوسلو التى تم توقيعها بين الإسرائيليين والفلسطينيين عام ١٩٩٣ أصبح العدد الكبير من الخطط والخطط البديلة والاتفاقيات الفرعية التى تهدف إلى الوصول إلى حل لتلك القضية متشعبة بحيث كان لابد من كتاب واحد يجمعها معا كى يتمكن الفرد من دراستها بشكل كامل. يتوقف الكتاب عند الانسحاب الإسرائيلى من غزة ويدرس إمكانية تحقق سلام فى ظل الأحداث الممتدة عبر تلك المرحلة. وتحلل الكاتبة الفترات المهمة والحساسة عبر تلك الفترة مثل قضية اللاجئين منذ العام ١٩٤٨ فى ظل التطورات السياسية عبر المراحل المذكورة فى الكتاب ومنها صعود شارون والانتفاضة الفلسطينية. وترى الكاتبة وهى إسرائيلية، أن الجانب المشرق فى تلك المحادثات كان إرساء حدود العام ١٩٦٧ كأساس للمفاوضات وإن كانت تتحدث عن خلل خطير فى ميزان القوى بين الطرفين الأساسيين وحالة شديدة من انعدام الثقة بينهما. كما أنها ترى أن من أهم المعوقات لتلك العملية هى الاحتلال الإسرائيلى نفسه وما تسميه الإرهاب الفلسطينى. يتضمن الكتاب خرائط مهمة وملاحق تحوى النصوص الكاملة لاتفاقيات مختلفة.

Reviving the Invisible Hand: The Case for Classical Liberalisim in the Twenty First Century
(إحياء اليد الخفية: دفاعا عن الليبرالية الكلاسيكية فى القرن الواحد والعشرين)
Deepak Lal
Princeton University Press:
$18.95, 334pp., 2006



يعتبر هذا الكتاب دعوة للعودة إلى الليبرالية الكلاسيكية بعيدا عن أى تدخل من الحكومات أو المنظمات الدولية. يرى الكاتب أن هنالك يدا خفية لحركة التجارة بمقدورها وحدها أن تنظم حركة التجارة وتعيد نوعا من النظام المتوازن للعالم. ويتطرق الكاتب فى رؤيته إلى أن المحاولات الحكومية لتنظيم الأسواق تمنع التقدم الاقتصادى وتهدد الاستقرار. ولا يكتفى الكاتب بالدفاع عن العولمة ولكنه يقدم ما يراه حلولا وأجوبة على مخاوف الحركات المناهضة للعولمة الاقتصادية. فهو يلجأ إلى منهج متعدد المجالات ويرى من خلاله أن هنالك نوعين من مناهضى العولمة. النوع الأول هو المدافعون عن الوطنية الثقافية وهم لا يعارضون الرأسمالية وإنما التغريب والنوع الثانى على النقيض لا يعارض الغرب ولكنه يعارض الرأسمالية. وهو يقول أن الرأسمالية لا تعنى بالضرورة التشبه بالغرب ويرى أن اليابان والصين والهند أدلة على رأيه. أما عن النوع الثانى فهو يرى أنهم أكثر معارضة لتحلل القيم فى مجتمعاتهم عن معارضتهم الحقيقية للأدوات الرأسمالية. ويتبنى الكاتب موقفا شديد التطرف حيث لا يكتفى بالمطالبة بإلغاء المنظمات الدولية ولكنه أيضا يبدى تأييده لعمالة الأطفال فى بلدان العالم الثالث.

Global Migration and the World Economy: Two Centuries of Policy and Performance
(الهجرة العالمية والاقتصاد الدولى: قرنان من السياسات والأداءات)
Timothy J. Hatton & Jeffery G. Williamson
The MIT Press: $50.00, 448pp., 2006

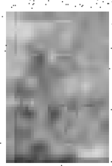


يشترك فى هذا العمل كاتبان متخصصان فى الاقتصاد والتاريخ مما يمنحه نظرة شاملة لموضوعه وهو الهجرة فى القرنين الماضيين. وقد بدأت الهجرة على نطاق واسع فى القرن التاسع عشر مع تطور وسائل المواصلات وزيادة التطور الصناعى اللذين سمحا مجتمعين للأفراد بالسفر إلى بلاد بعيدة بحثا عن حياة أفضل. ويرى الكاتبان أنه فى الوقت الحالى لا توجد قرية فى أى مكان من آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية لم تصل إليها منظمة التنمية والتعاون الاقتصادى. يركز الكاتبان على مرحلتين مهمتين فى تاريخ الهجرات عموما وهما الفترة ما بين عام ١٨٢٠ وحتى بداية الحرب العالمية الأولى والفترة الثانية أتت فى الخمسينيات من القرن العشرين. فيما بين هاتين الفترتين أتت الحربان العالميتان وفترة الركود الكبيرة التى أتت فى المنتصف كما أن تلك الفترة شهدت تحديدا لأعداد المهاجرين التى من الممكن استقبالها. والكتاب يتبنى وجهة نظر غربية بشكل واضح فهنالك تجاهل لأكبر موجة هجرة قسرية عبر التاريخ وهى التى تزامنت مع تجارة العبيد ثبتت عدد سكان أفريقيا لعقود طويلة بشكل متناقض مع الطبيعة. يركز الكتاب فى ثلثه الأخير على أنماط الهجرة الحالية ويناقش كيفية استفادة واضعى السياسات من الدراسة المتأنية للمسألة من وجهة النظر التاريخية.

Ends of British Imperialism: The Scramble for Empire, Suez and Decolonization

(غايات الإمبريالية البريطانية: الصراع من أجل الإمبراطورية والسويس والتحرر)

Wm Roger Louis
I.B. Tauris: $25.00, 1082pp., 2007

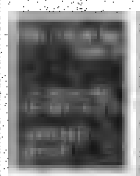


تعقد منذ فترة العديد من المقارنات بين الإمبراطورية البريطانية في أواخر أيامها وبين والوضع الحالي للولايات المتحدة الأمريكية. لذا كان من الطبيعي أن يظهر على هذه القائمة كتاب عن تاريخ الإمبراطورية البريطانية. يتابع الكاتب تاريخ التوسع الإمبريالي البريطاني منذ قمته في نهاية القرن التاسع عشر إلى التوسعات في القارة الأفريقية إلى التاريخ الصاخب إبان الحرب العالمية الثانية في جنوب شرق آسيا ثم الانهيار مع بداية حركات التحرر الوطني والتي بلغت قمتها في حرب العام ١٩٥٦ التي كانت الهزيمة السياسية لبريطانيا فيها هي العلامة التي يتم التأريخ فيها لنهاية الإمبراطورية البريطانية. ولا يكتفي الكتاب بسرد هذا التاريخ ولكنه يفحص القرارات والسياسات التي أدت إلى النهوض بالإمبراطورية ثم أفولها. هو بحث تاريخي مهم ولكنه لا يخلو من متعة في القراءة.

The Looming Tower: Al Qaeda and the Road to 9/11

(الأبراج المشيدة: القاعدة والطريق إلى ١١ سبتمبر)

Lawrence Wright
Knopf: $27.95, 480pp., 2006

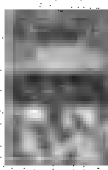


يرى مؤلف هذا الكتاب أن الحركات الإسلامية المسلحة، برغم عمليات العنف والاغتيال التي قامت بها منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية إلا أنها لم تستطع أن تفرض نظام حكم إسلامي على أي دولة في المنطقة. ومع أن العديد من الإسلاميين قد دافعوا عن أفغانستان ضد الغزو السوفيتي عام ١٩٧٩ إلا أنهم عادوا فيما بعد لبلادهم ليصعدوا عملياتهم ضد الحكومات المحلية. أما القاعدة وهو التنظيم الذي أنشأه أسامة بن لادن في أفغانستان عام ١٩٨٨ فقد سلك منهجا مختلفا بإلقائه اللوم على الولايات المتحدة فيما يخص مشاكل العالم الإسلامي. ويرى المؤلف أن أسامة بن لادن أقل ثراء مما يتصور أغلب الناس وأن مهارته الحقيقية تكمن في قدراته التنظيمية وموهبته في العلاقات العامة. وبعد عشر سنوات على إنشاء التنظيم قام بن لادن بتفجير سفارات للولايات المتحدة في أفريقيا كما قام بتفجير المدمرة كول. مفتتحا بذلك الأبواب التي تدفق منها المتطوعون والأموال. ولكنه يرى أن الإرهاب الذي يرجع مسئوليته لبن لادن عمل غير متقن وأنه قد ترك العديد من الأدلة التي أثارت شكوك وكالة الاستخبارات المركزية والمباحث الفدرالية ووكالة الأمن القومي. ويرى الكاتب أن حادثة ١١ سبتمبر كان من الممكن تفاديها في حالة تعاون جميع تلك الهيئات.

The Shia Revival: How Conflict Within Islam will Shape the future

(الصحوة الشيعية: كيف سيشكل الصراع داخل الإسلام المستقبل)

Vali Nasr
W.W. Norton: $14.95, 240pp., 2007



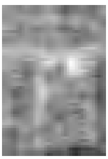
مع الحرب في العراق والنجاحات التي حققتها المقاومة اللبنانية والتهديدات الموجهة ضد إيران صعد إلى السطح الخلاف الدائم في الشرق الأوسط بين السنة والشيعة. وتنتشر آراء مدعومة بالكثير من الأدلة أن هذا الصعود الجديد لصراع شديد القدم تحركه القوى الإمبريالية الجديدة في المنطقة وخاصة الولايات المتحدة لتسهيل سيطرتها على المقدرات والأوضاع. هذا الكتاب يتوجه للقارئ الأجنبي الذي لا يتعرض للكثير من الأخبار والإيضاح حول هذا الشقاق وتحديدا كما يتجسد في العراق.

ويبدأ الكتاب بدراسة تاريخية حول ظهور المذهب الشيعي والسياسات المرتبطة به على الصعيدين السياسي والفقهي وموقعه من الأغلبية السنية. ويرى الكاتب أن الهلال الشيعي الذي يبدأ في لبنان وسوريا مرورا بالخليج والعراق وإيران والذي ينتهي في باكستان والهند اكتسب قوة جديدة بعد سقوط صدام حسين. حيث أن الروابط التي تتخطى عوامل اللغة والسياسة تزداد متانة مما يبدو أنه سيساهم في رسم خريطة جديدة للشرق الأوسط.

Globalization and Labour Conditions

(العولمة وأحوال العمال)

Robert J. Flanagan
Oxford University Press: $28.95, 304pp., 2006



توجد ثلاثة مكونات أساسية للعولمة الاقتصادية وتتمثل في الشركات متعددة الجنسيات والتجارة الدولية وهجرة العمالة.

ومن المؤكد أن لتلك العوامل الثلاثة تأثيرا أساسيا على أشكال وظروف وطبيعة الطبقات العاملة في البلدان المختلفة. ولا يقتصر تأثير تلك العوامل على الطبقات العاملة من حيث فرص العمل فقط وإنما يصل التأثير إلى حقوق العمال وظروف العمل عبر القرن العشرين.

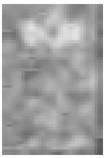
ولا يكتفي الكاتب بتحليل الظواهر التاريخية بشكل مجرد بل يجمع في الكتاب العديد من الجداول التي توضح وجهة نظره بالأرقام والإحصائيات.

ويتناقض الكاتب مع العديد من الآراء التي ترى أن أحوال الطبقات العاملة في تدهور منذ انتشار العولمة الرأسمالية وإن كان يرى أن العوامل الثلاثة التي يبني تحليله على أساسها قد ساهمت في تحسين ظروف العمال وازدياد حقوقهم.

The Box: How the Shipping Container Made the World Smaller and the World Economy Bigger

(الصندوق: كيف جعلت حاويات الشحن العالم أصغر والاقتصاد العالمي أكبر)

Marc Levinsion
Pinceton Press: $24.95, 390pp., 2006



مع تطور وسائل النقل وبالذات السفن نشطت جدا حركة التجارة في الصادرات والواردات ومعها ظهرت الحاويات.

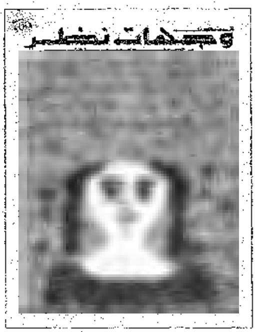
ويتساءل الكاتب نفسه، ما الذي يستدعي كتابة كتاب كامل عن الحاويات. ويجيب الكاتب إن الحاوية في حد ذاتها ليست هي الموضة ويقول ساخرا إنها تملك نفس جاذبية العلبة المصنوعة من الصفيح.

ولكن الكاتب لا يتعامل مع الحاويات على أنها وسائل لنقل البضائع أو تعبيئها ولكن على أنها تطور تاريخي له وقعه على العمال والمستهلكين في جميع أنحاء العالم. يتتبع الكتاب المواني القديمة والتي أغلقت حتى يصل إلى آسيا التي أصبحت المصدر الأساسي للبضائع الرخيصة والتي يتم شحنها منطقيا في حاويات شديدة الضخامة.

وينقسم الكتاب إلى فصول حسب الموضوع مما يسهل البحث عن نقاط محددة كما أن لغته ليست جافة كما هو متوقع من الكتب الأكاديمية ولكنه يناقش تطورات الاقتصاد من زاوية جديدة إلى حد كبير.

من قارئ إلى مجلته


العدد 1


العدد 100

وقفات عند مائة.. فائتة
ونظرات إلى مائة.. قادمة

بداية.. أنا لست بكاتب ولا يحزنون... أنا والحمد لله قارئ فقط...

قبل الخوض في مسألة العدد المائة من العزيزة وجهات نظر... اسمحوا لي بأن أقدم تهاني إلى القراء الذين كان من حظهم - والحظوظ نادرة في هذا الزمان - أن يكونوا من بين من عرفوا هذه المجلة «المختلفة» التي عرفت طريقها إلى هذا القارئ «المختلف» بدوره، كما يقول شعارها «الحاسم».

...

وبعدها...

نشد على الأيدي الصديقة من رواد القلم في «الثقافة... والسياسة... والفكر»... ثم لكل أولئك الذين يقفون بالفكر والجهود وراء إخراج العدد الشهري من الحبيبة «وجهات نظر»، وصولاً بها إلى بلاد بعيدة حيث نحن والآخرون من العشاق في انتظارها، رغم تطفيف مسئولي الاشتراكات والتوزيع، الذين يبطئ بهم الشعور بالزمن والوقت فتأتينا تمشي الهوينا، وما قرأوا قول المتنبي قبل عصر «الإنترنت» بقرون:

قوافٍ إذا سرن عن مقولي
قفزن الجبالا وخضن البحارا

نعم سادتي...

فما بين المجلة والقارئ علاقات وشيجة، وصلات قوية، ينميها نوع من الحوار المتصل فيما يمكن أن يوصف:

حقوقكم علينا وواجباتنا نحوكم.. أو العكس، ليس بالمعنى القانوني والحرفي، وإنما بالمعنى الروحي وأصوليات قواعد الالتزام، من عيار الأخذ دون تبعية.. والعطاء دون إملاء، باختصار كالعنصر المشع... وكفى.

وهاك مثال...

«عندما لا تنشر جريدة الإندبندنت مقالاً للكاتب الإنجليزي الفذ روبرت فيسك «Robert Fisk» في إحدى طبعاتها التي توزع في الـ «وست إند»، ثم نتبين أنه ظهر في طبعة أخرى، نجري اتصالاً هاتفياً احتجاجياً بإدارة التحرير: «لماذا هناك وليس هنا؟؟»... لتأتينا الإجابة بالاعتذار، والاستجابة فوراً بإرسال المقال إلكترونياً... ومن ثم من العدد الكامل (النسخة المطبوعة) صباح اليوم التالي!!

هكذا... العلاقة ما بين القارئ والناشر تتم بها عمليات «التناغم والانسجام».

وعليه... بهذا المفهوم المشترك... اسمحوا لنا أن نقدم وجهة نظرنا... في «وجهات نظركم» على جزءين:

الأول: وقفات عند المائة الأولى

والثاني: نظرات إلى المائة الثانية

نأمل من الثانية أن تكون صدًى عميقا... ورنينا للأولى.

وجهة نظرنا في المائة الفائتة...

أولاً... هل يمكن تقليل حجم المجلة قليلاً إلى أصغر، كالتي كانت عليها مجلة «الفكر المعاصر» التي كانت تصدر من القاهرة في ستينيات القرن الماضي؟؟؟ تيسيراً لسهولة الإمساك بأطرافها.. ثم أرشفتها قائمة، وليست نائمة كما يحدث الآن بالحجم الحالي، حتى يمكن الرجوع للأعداد السابقة في وقت أقصر؟؟؟

نرجو أن يكون ذلك محل دراسة بانعكاساته على تكلفة الورق والطباعة والمسائل المتعلقة بالنواحي الفنية، ولكم في الدوريات العالمية الشبيهة سوابق.. ومرجعيات.. ومقارنات.

ثانياً... عمود «كتاب العدد» الموجود على الصفحة الثالثة من كل عدد؛ هم أنفسهم المذكورون تحت خانة «محتويات العدد»، فلماذا لا ينقل الكتاب كل على حدة تحت مقاله المنشور، مع كتابة نبذة قصيرة عن من هو؟؟... مثلا خيري منصور في عدد مارس: «كاتب عربي»... هل من الممكن أن يذهب خيري إلى آخر سطور مقاله بصفحة ٩ من العدد، مع إضافة سطرين أو ثلاثة نبذة عن حياته الفكرية... ألا يكون ذلك أفضل وأعم فائدة للقارئ؟؟

هكذا تفعل الكثير من المجلات العالمية والتي غالباً ما تضيف حتى عنوان بريده الإلكتروني للتعليق المباشر معه من غير سدود ولا حدود ولا «فلاتر». فإذا ما خلت الصفحة الثالثة بهذا الانتقال والتعديل، تكون الخانة الفاضية أولى ببيان ضاف عن موقع «وجهات نظر» الإلكتروني على «الإنترنت» الذي نتوقع منه أن يكون على شكل يليق بـ «وجهات نظر»، ولا يقل بحال عن مواقع الإنترنت الخاصة بالصحف والمجلات المحترمة المشابهة.

ثالثاً... القارئ يحتاج إلى التعرف على تعبيرات إنجليزية، دخلت بالطول والعرض عالم السياسة، مثل "Spinning, Cynical, Rendition & Philanthropy etc" فهل من عمود صغير يقوم على «تعريب» ولو كلمة بكل عدد.. تضاف فيها إلى لغتنا الجميلة بعض تعابير السحرة والساحر.

ما هي نظراتنا إلى مائة قادمة..

وسط حالة اليأس.. الدفاع والاعتذار، تقطع الأطراف وتمزق الأوصال.. حيث يهلك حرثنا ونسلنا.. وينتشر على أرضنا القتل والفساد والتدمير، أثارت المائة الأولى.. الآمال العراض في الإصلاح والتطوير وأن النصر حتماً قريب.

جاءتنا المائة الأولى بصفحاتها الـ «اثنتين وثمانين» من كل عدد من «وجهات نظر» بالآمال والفجر الجديد.. بالمعرفة والاستنارة وتوسيع المدارك، جذباً للاهتمام وتفجيراً للطاقات واستنهاضاً للهمم، وأنه ومهما طال ليل الحصار، فلا بد أن تلد هذه الأمة «زهير بن أبي أمية المخزومي»، نعم زهيرا آخر ليمزق صحيفة مقاطعة (مثلا فلسطين) كما مزق «زهير» بالأمس الأول صحيفة بني هاشم رافعاً صوته: «يا أهل مكة.. أنأكل الطعام ونلبس الثياب.. وبنو هاشم هلكى.. لا يباع ولا يبتاع منهم؟؟؟... إلى آخر القصة...» فمصير كل «عمرو بن هشام» في التاريخ واحد...

سأختار نماذج من كتاب وكتابات المئوية الأولى، أثارت قضايا استراتيجية كبيرة في «السياسة.. والثقافة.. والفكر».. فما هي آفاق انعكاساتها على المئوية القادمة... وهل لها آثار مستقبلية على عملية الإصلاح «Reform»... والتطوير «Development».

هل المئوية الأولى مدخل بعمق للمئوية الثانية؟؟ وما هو صداها وقوة دفعها إلى عالم العدل والحق والجمال؟؟؟

هاكم منصات انطلاق لرؤى مستقبلية:

١ - «تحصيل وتحصين أسباب الأمن والقوة على تنوع مجالاتها»: هيكل.. فبراير ٢٠٠٣م

٢ - «بعدما فقدت الجيوش التقليدية قيمتها.. يصبح ضرورياً إعداد النفس لمواجهة من نوع آخر»: يحيى الرخاوي.. يوليو ٢٠٠٣م.

٣ - «من يملك خبزه يواجه الكثير من المشاكل... أما من لا يملكه فلن تكون أمامه سوى مشكلة واحدة»: أحمد مستجير.. مارس ٢٠٠٤م.

٤ - «قراءة: أوراق اللعب»: أيمن الصياد.. مايو ٢٠٠٤م

٥ - «الحركة في المكان»: أيمن الصياد... سبتمبر ٢٠٠٥م

٦ - «أدى ظهور شبكة المعلومات العالمية «الإنترنت» إلى حدوث ثورة في مفهوم الزمان والمكان»: معتز خورشيد.. يوليو ٢٠٠٦م

٧ - «سقوط أقنعة الزيف والخديعة والادعاء»: سلامة أحمد سلامة... سبتمبر ٢٠٠٦م

هل ستلقى المئوية القادمة... المزيد من الضوء والأضواء؟؟؟... لماذا... وكيف...

نحن...

- في حالة انكماش؟
- حالة دفاع؟؟
- حالة اعتذار؟؟؟

هذا هو العدد «المائة» من «وجهات نظر».

وهذه رسالة أو بالأحرى «وجهة نظر» لقارئ كريم: فيها تاريخ وتأريخ.. وآمال وأمنيات.. وتوقعات هي حق لكل قارئ عند مطبوعته. فيها ـ للمناسبة ـ تحية تقدير تفرض بالضرورة ـ في المقابل ـ عرفانًا وإحساسا واجبًا بالمسئولية.

المحــرر

باختصار: حالة تخبط " State of Confusion" . ثم كيف الخروج من القبلية السياسية والفكرية.. والتشرذم في الدين والأخلاق.. لا نقرأ المفكر الصيني " Sun Tsu" ولا نفهم «كلاوز فيتز». ولا نتعلم مجانًا من التاريخ القريب في تجربة حياة شاهد عصره (الأستاذ هيكل).. عجزنا عن كشف هؤلاء الأشباح الذين يقودوننا من وراء الكواليس. حججا إلى من «نال من بوش نظرة ساعة. نال السرور ونال كل مرام».. فهل كان هيكل على شاشة الجزيرة دوريا يؤذن بالخطبة الفا في مالطا؟؟؟

هل تأتينا المئوية الثانية بشيء من:

التربية والتعليم:

ليس من الناحية الإحصائية بقدر ما هو من الناحية التطبيقية.. مثلا:

• جامعة هارفارد: التي تبحث الآن عن تعاون وثيق مع الخليج.. ميزانيتها تفوق الـ ٢٨ بليون دولار.

• أربع جامعات بريطانية تفوق ميزانياتها الـ ٥ مليارات جنيه استرليني.

• أكسفورد: افتتحت لها فرعًا في لندن.. نعم الهند.

• نحن لا زلنا تقليديًا في مجالات الطب والهندسة والقانون. أما مجالات العلوم: كالمناعة والجينات والفيزياء والذرة. «رحم الله الأجداد». فهي للآخرين. حضورهم يسجل ويثبت غيابنا عند جائزة نوبل.

الزراعـــة:

كيف تأهلت دولة كندا «٢٥ مليون نسمة» لتكون عضوا في نادي الأغنياء السبعة؛ ذوات متوسط عدد السكان ٧٥ مليون نسمة أي «بنسبة واحد إلى ثلاثة». كندا التي كادت أن تطعم كل سكان العالم الثالث. المضحك أن وزراء زراعة دول الكوميسا.. اجتمعوا في الخرطوم قبل أسابيع بحثًا في تطوير التسويق..!! ماذا تسوقون بربكم.. أليس حريا بكم أن تنتجوا أولا؟! أليست هذه مايقولون عنها.. " Politics of Food" ...

المائة وشئون الدفاع:

هل ستبحث لنا مجلتكم في مئويتها الثانية شئوننا الدفاعية وقواتنا العسكرية؟؟

هل فتح أحد من قبل ملف ضباطنا وجنرالاتنا الذين أحيلوا إلى التقاعد في سنين مبكرة من أعمارهم.. أين هم الآن؟؟؟

لماذا يبدأ عسكرهم هم حياة مثيرة وخطيرة في مجالات الدفاع و الأمن القومي كباحثي تخطيط لمشروعات التحكم والسيطرة في شتى مناطق العالم جيوبولوتيكيا. عند مراكز البحث الاستراتيجي بمدارسها الأمريكية والغربية. يفدون إليها كأساتذة وخبراء. الأمثلة أكثر من أن تعد: كالجنرال موشي يالون رئيس أركان الجيش الإسرائيلي السابق. والدكتور جلد فرايليش نائب مستشار الأمن القومي السابق لإسرائيل.. وغيرهم.. وغيرهم جنرالات الجيوش الغربية. سندا لتلك السياسات الأمنية التي تتحكم اليوم في حياتنا اليومية الحالية والمستقبلية. أين جنرالاتنا من كل ذلك؟؟ أعجز العالم العربي أن يقدم حاضنًا لتلك الخبرات؟؟ لماذا لم نجد من يفسر لنا اختيار إسرائيل لدان حالوتس رجل الطيران رئيسًا للأركان متخطيًا عددا لا يستهان به في الأقدمية؟ ألم تكن هي مرحلة «اليد الطويلة».. على أية حال قطع الله الذراع الطويلة ومترها في جنوب لبنان.. ولكن كان حالنا عجبا. أقبل بعضهم على بعض يتلاومون. غريب أن نشق الجيوب ونلطم الخدود على مصير كل معتد أثيم بلوم الأمين؟؟؟... ولا أزيد.

كيف لا نلقي الضوء على عباقرة عسكريين عرب كانوا كالجنرال «شتوند» الألماني عمالقة في التخطيط عباقرة أثناء العمليات العسكرية. كيف لا نحتفل بذكراهم كما يحتفلون كل ١١ نوفمبر بـ «دنكيرك» بغرب فرنسا... فأين يا ترى يجلس الآن صائد دبابات ملحمة أكتوبر ٧٣... هل نتذكره؟؟؟ (محمد عبد العاطي صائد الدبابات توفي بعد طول معاناة مع مرض البلهارسيا نهاية ٢٠٠١. المحرر)

عندما.. حرمنا من مذكراتهم وتجاربهم بدعوى أسرار الدولة. وعندهم: كل الأسرار متاحة حتى بنطلون رئيس الوزراء البريطاني «توني بلير» وجد نصيبه في مذكرات سفيره السابق في واشنطن السير «كريستوفر ماير» أين نحن من كل ذلك.؟

المائة وأمريكا والسياسة الخارجية:

في لقاء مع السيد «روبرت فيسك» أكتوبر الماضي، استعرت سؤالاً من الصحفي الإسرائيلي «جدعون ليفي» من مقال نُشر له بعنوان " The Mystery of America" في جريدة «هاآرتس» في ٩ أكتوبر ٢٠٠٦م: «هل أمريكا لها الرغبة الأكيدة في وضع حلول لمشاكل الشرق الأوسط؟؟؟»...

" Is America at all interested in bringing about a solution in the Middle East??".

أجابني السيد «فيسك»: أمريكا الحكومة ليس لها مصلحة في السلام... ولكن لابد من مخاطبة الشعب الأمريكي مباشرةً. تطوف عليه ولايةً ولاية.. لنكشف له أكاذيب حكومته. أتمنى أن تعنى «وجهات نظر» في مئويتها الثانية بترجمة كاملة لمثل هذا المقال. فسوف نجد فيه الكثير المثير والخطر.. هل من مفسر لنا لماذا تُستقبل «كوندي» و«سولانا» وغيرهم بالأحضان والقُبل في أورشليم القدس. أما هم فعند لقائنا.. الوجه عابس ومنقبض الأسارير، تعلوه ابتسامة خبيثة من نوع:

العـــدد 20



العـــدد 10



«أريك الرضا وإن أخفت النفس خافية»..

لاحظوا «كوندي» كيف «صلت» بوزراء الخارجية. ثم أكلت الطعام مع مديري المخابرات. عسى ولعل... فالهوى غلاب. كل مصادر الأخبار وهي متاحة على «الإنترنت» مثال www.leap/europe 2020 تؤكد أن إظهار الحديث عن السلام... هو من ترتيبات الحرب ضد إيران...

" Players pretend to prepare peace because they want war".

هل تعرفون «قصة الطاحونة» التي اكتسحتها السيول في إحدى قرى كردفان بغرب السودان؟ عاد المهندس الذي حوصر بسؤال واحد «ماذا فعلت في الطاحونة؟» فقال: لم نجد أرضاً.. فركبنا الطاحونة فوق شجرة التبلدي.. قالوا له: ما معقول!! قال: اسألوا ابني خير شاهد... فماذا قال ابن العشرة أعوام من العمر: «صحيح أنني لم أر الطاحونة... ولكني رأيت الناس حاملين الدقيق»... سنجد الدقيق عند النشطاء والوسطاء الذين سعوا ليل نهار لإطلاق سراح البحارة البريطانيين الخمسة عشر. وليتهم فعلوها مع الـ ١٠ آلاف فلسطيني وغيرهم من المنسيين في جوانتانامو والمختطفين إلى أماكن مجهولة من العالم. ناسين أن حقائق القوة على الأرض هي التي أطلقت الدبلوماسي الإيراني جلال شرفي... وتعهدت ألا ترتكب حماقةً في أمثال السيد محمد جعفري نائب رئيس مجلس الأمن القومي الإيراني... أو الجنرال عينوجهار فروزندا مدير مخابرات الحرس الثوري... فهل فهمنا قواعد «اللعبة»!! أذكر هنا درساً بليغاً من ممثل كوريا الشمالية في الأمم المتحدة... عندما سأله مراسل الـ «نيوزويك»... لماذا لا تقبلون بالتفتيش؟؟؟... فرد الكوري:

" Today you come and ask for inspection, tomorrow you will come and ask us to take our pants off "

أعتذر عن الترجمة فلكل مقام مقال... وآه من شكوى الجريح إلى الغربان والرخم...

المائة الثانية وجيوش الاحتلال المقنعة:

أجندة ما نتوقعه كقراء من «وجهات نظر» في مئويتها الثانية مازالت مزدحمة. منها أيضا: كيف ستكون السياسة الخارجية لأي بلد عربي أو إسلامي أو أفريقي مستقلة

رســــائــــل

أمام جيوش الاحتلال الجديدة أمثال ما يسمى بالمنظمات غير الحكومية أو منظمات المجتمع المدنى (غير المحايدة) وتلك الكلمة الزائفة التى تسمى «المجتمع الدولى». هذا غير الجرأة الوقحة لفيتو الكونجرس الأمريكى على سياسات أى دولة مخالفة لهم مما جعل السيد «مهاتير محمد» يقول ساخراً: لا داعى لأى برلمان لنا طالما هنالك الكونجرس الأمريكى بلجانه المختلفة يملك هذا الحق القدسى... كأنما لم تكفنا «فيتوهات» مجلس أمنهم... إنه حقا «مجتمع دولى» غريب. لا يصدق أى أحد منا مقالا كتبه المذكورون أعلاه ولو أقسم يميناً مغلظاً وعلى الكتب الأربعة. هل تسمعون (جيداً) CNN وSky و Fox و BBC ... أعرفتم لماذا لم تنصف صوت العرب وضيعنا أحمد سعيد. دروعنا التى أغرقناها مع السفينة «ليبرتى»... التى لا زال أسر بحارتها يطالبون فى المحاكم الأمريكية بفك طلاسم أسرارها الخبيثة؟

المائة الثانية والدولار المترنح:

قالوا، والعهدة على الراوى، إن السبب الرئيسى لحرب العراق هو محاولة صدام حسين الخروج من بيت طاعة الدولار إلى حسابات البرميل البترولى باليورو. ومقدمات الحرب ضد إيران هى نفسها بالخروج إلى بورصة البترول باليورو. وما الملف النووى إلا ذريعة. فأزمة الثقة فى الدولار تؤكدها أزمة توازن ميزان المدفوعات الأمريكى لصالح الصين بـ ٢٠٠ بليون دولار أمريكى ثم إرهاصات ضرب إيران. ثم أزمة القيادة الأمريكية فى التعامل مع العرب والمسلمين. كل ذلك من شأنه أن يأخذ الدولار إلى هاوية السقوط.. وما توقف نشر الـ «M3» وهو بيان «المطبوع» من عملة الدولار مما يجعل العالم يعيش فى ضبابية وغموض من اتجاهات وتوقعات سعره... أصبح بعد الدولار ملجأ غير آمن وفق الحسابات المالية الدولية المعقدة والتى أساسها الرهان. فهل نحن على أبواب أزمة أخرى من انهيار كامل شبيه بثلاثينيات القرن الماضى؟ وأين أموال العرب وثرواتهم من الحديث الهامس فى دوائر القرار السياسى والمالى الغربى عن استبدال الدولار الحالى بدولار ذهبى؟ فهل ننتظر قدومه على أسنة الخلافات التى صدروها لنا من مذهبية وسياسية وعرقية وهلم جرا... فحتى متى يطالبوننا بتثبيت أسعار الدرهم والريال حفاظاً على توازن السوق العالمية دون الأخذ فى الاعتبار معدلات القوى الشرائية للدولار... أحلال عليهم تضخمه وحرام علينا من كل عملة؟

المائة الثانية وملف نهر النيل...

هل نعيد مقولة الأستاذ هيكل؟؟ «انتبهوا لما يجرى فى السودان»... المياه وحربها القادمة... وهل ستنجح اجتماعات وزراء دول حوض النيل العشرة التى ظلت تنعقد منذ عام ١٩٩٩م والتى سوف تختتم مداولاتها فى مايو مع عددكم المائة. هل ستنجح فى النهاية فى إقامة هيئة مشتركة للدول العشر للاتفاق على الاستغلال المتكافئ لمياه النيل لصالح شعوبها جمعاء دون إحداث أضرار وبالتالى تسهم فى معالجة النزاع الذى ظل يدور بين دول المنبع ودول المصب طيلة العقود الماضية وبالتالى ينحسر شبح التهديد بحرب مياه النيل. وهل تكون السيطرة على مصر بغير السيطرة على نيلها؟

المائة الثانية والموسيقى العربية...

انتبه ملحنونا ومؤلفونا الموسيقيون إلى وجدان هذه الأمة منذ زمن قديم... أين الملحن العظيم «محمود الشريف» أحد أميز الباقة يكفيه أنه اعتذر للدكتور محمد عبدالقادر حاتم متعه الله بالصحة والعافية عن قبول «شقة ع النيل»... حسب تعليمات الريس.. مفضلاً البقاء بـ «حى عابدين» مصدر وحيه وجذور إلهامه... قولوا لنا من هو محمووووود؟؟؟ من أنشدنا «الله للمظلوم خير مؤيد».. وأين الشاعر.. وأين... وأين... وهل ستذكرنا المئوية الثانية بالفنان على إسماعيل. وما أدراك من فرقة رضا؟ لنقف بتختنا الشرقى وموسيقانا العربية فى وجه هذا السخف والغزو الثقافى الذى يطبق على الأنفاس قبل الأذن والقلب بمسميات الأغنية الشبابية والـ «فيديو كليب». عجباً. فالموسيقار السير «إدورد إلقار» الذى ولد قبل مائة وخمسين عاماً مازالت صورته تحتل موقعها من العملة الإنجليزية فئة الـ «٢٠ جنيهاً استرلينيا»... فقط نريد لهؤلاء صوراً على صفحات «وجهات نظر»...

الختــــام...

كل هذه الآمال العريضة فى المئوية القادمة... تحتاج... لجهود فكرى وفنى كبير.. مدعوماً بإمكانيات مالية محترمة ومقدرة... فكيف السبيل إلى ذلك؟؟؟

أولاً: بزيادة انتشار المجلة بأرقام طموحة. تقوم على خطة إعلامية «وإعلانية» كبيرة. وزيارات ميدانية لمواقع التوزيع المستهدفة والدوائر ذات الاهتمام من «أكاديمية» وثقافية. والعمل على استقطاب مشتركين جدد بأسعار جاذبة "Introductory Offers" حبذا لو كانت مبنية على "Aggressive Sales Policy" ... وأرجوكم انظروا بعيداً (خارج الحدود التقليدية للعالم العربى) فالعرب باتوا فى كل مكان.. وأكاد أجزم... أن هناك مراكز كثيرة من العالم... عطشى للمجلة...

ثانياً: زيادة السعر الحالى للمجلة... الزيادات المحلية والعالمية... للتضخم... لا يتبعها زيادة فى سعر المجلة فكل الوسائط الإعلامية فى زيادة مستمرة... ما يسمى... Value for Money

ثالثاً: وهو الأهم...

إعادة ترتيب الوضع الإدارى للاشتراكات والتوزيع.. بشكل يضمن عدم تأخر وصول المعشوقة إلى عشيقها.

سادتى...

هل يعلم ذوو الشأن أنه فى منتصف أربعينيات القرن الماضى.. كانت كل الدوريات المصرية... تأخذ طريقها بالقطار والبواخر.. ثم القطار والعربات.. لتصل إلى مدينة القضارف بشرق السودان عند مكتبة «حنا تسفاى»... وأيضاً إلى مدينة الأبيض بغرب السودان لمكتبة الفاتح النور مكتبة كردفان. لتباع رسالة الزيات بـ ٢٠ مليما.. نعم والله.. ورغم المشوار تصل فى مواعيد مضبوطة. فكيف لنا أن ننتظر أربعة أسابيع لتصل بالطائرة؟ لخاطرنا.. أوصوا بنا اشتراكات الأهرام والقومية للتوزيع. هل تتذكرون مقال الدكتور يحيى الرخاوى «نوفمبر ٢٠٠٣» «كيف؟؟ نعم كيف وزع من كتاب «هارى بوتر» فى ٢٤ ساعة ٦ ملايين نسخة؟؟؟

تركت استقطاب النعم... بجذب رءوس الأموال العربية لدائرة النشر لتقديركم... فهى مسألة لا يتخذ فيها القرار بسهولة فى عالمنا العربى. ولكن... عندهم (أو عندنا بحكم الإقامة) فى غرب أوروبا.. لا يضير الأخوان باركليز أن يدفعوا ملايين الاسترلينيات فى شراء الـ «ديلى تيلغراف». وتلك قصة أخرى.. تدخل رءوس الأموال. ولكنها تظل بعيدة عن «قلم التحرير». فلكل حدود. مرحلة نحتاجها ونصبو إليها بشدة. أعرفتم لماذا ترك «مايكل قريد» الـ «BBC» إلى الـ «ITV» بصفقة قدرت بـ «خمسة ملايين جنيه استرلينى؟؟... هذا هو عالم اليوم... يحترم:

لسان من أراد فصاحة وسيوف من أراد قتالا...

خواطر... من أجل المئوية القادمة...

حاولتنا... فيها الاجتهاد... بالإحاطة...

أرجو أن تكون إضافة... لمزيد من النجاح والتوفيق...

ولكم سادتى....

أجمل المنى...

مخلصكم

عبدالرحمن عبدالقادر

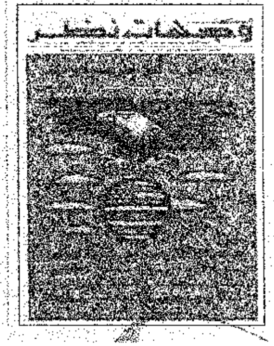
قارئ

لندن فى ١٥ أبريل ٢٠٠٧م

العـــــدد 30



العـــــدد 50



العـــــدد 70

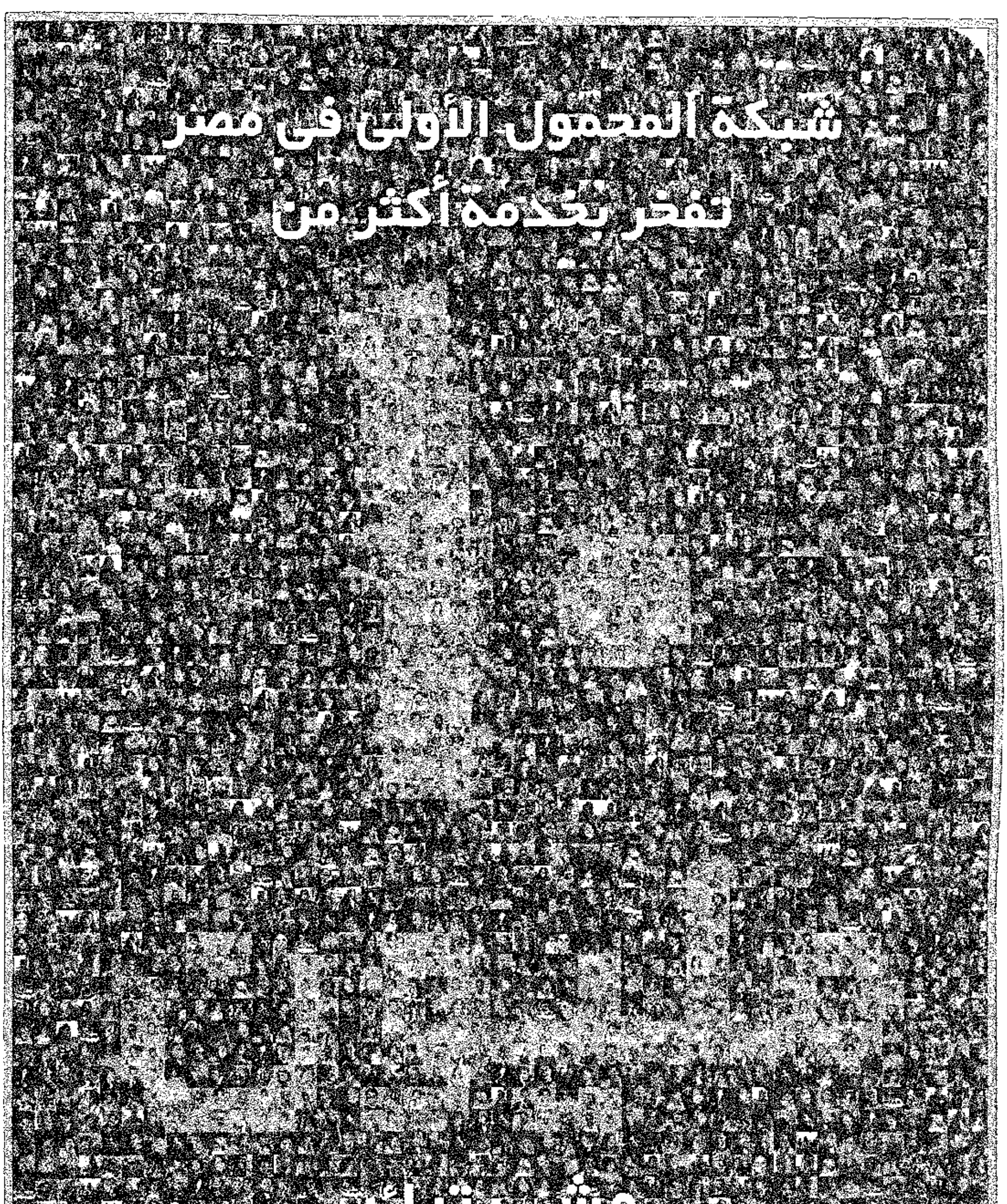


العـــــدد 90





دار الشروق
الأعمال الكاملة
نجيب محفوظ
في عشرة مجلدات ذهبية فاخرة


شبكة المحمول الأولى فى مصر
تفخر بخدمة أكثر من
مشترك
موبينيل
اتكلم من القلب


إسبيرانزا ...
إنطلاقة تجسد طموحك